مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المُبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الثاني

الفقيه المحقق

الشيخ جعفر السُّبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

مقدمة في علوم القرآن ١١
تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني ١١
الأقسام في القرآن الكريم ١١
جواز الحلف بغير الله سبحانه ١٣
أنواع الأقسام الواردة في القرآن الكريم ١٣
القسم الأوّل: الأقسام المفردة ١٣
القسم الثاني: الأقسام المتعدّدة ١٤
الأوّل: القسم في سورة الصافات ١٥
الثاني: القسم في سورة الذاريات ١٥
الثالث: القسم في سورة الطور ١٦
تفسير ما هو المراد من الأقسام الخمسة؟ ١٦
الرابع: القسم في سورة القلم ١٧
الخامس: القسم في سورة الحاقّة ١٨
السادس: القسم في سورة المدّثّر ١٨
السابع: في سورة القيامة ١٩
الثامن: القسم في سورة المرسلات ١٩
التاسع: القسم في سورة النازعات ٢٠
العاشر: القسم في سورة التكوير ٢١
الحادي عشر: القسم في سورة الانشقاق ٢٢
الثاني عشر: القسم في سورة البروج ٢٢
الثالث عشر: القسم في سورة الطارق ٢٣
الرابع عشر: القسم في سورة الفجر ٢٤

الخامس عشر: القسم في سورة البلد ٢٤

السادس عشر: القسم في سورة الشمس ٢٥

السابع عشر: القسم في سورة الليل ٢٦

الثامن عشر: القسم في سورة الضحى ٢٦

التاسع عشر: القسم في سورة التين ٢٧

العشرون: القسم في سورة العاديات ٢٧

المبحث العشرون الأمثال في القرآن الكريم...٢٨

١التمثيل الأوّل(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ.... (البقرة:١٤ـ١٨.) ٢٨

البقرة ٢التمثيل الثاني أَوْ كَصَيِّب مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيْ... .) (البقرة:١٩ـ٢٠.) ٢٩

بيان التمثيل..٢٩

البقرة٣التمثيل الثالث(إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا.... .) (البقرة:٢٦.).... ٣٠

البقرة٤التمثيل الرابع(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ....) (البقرة:٧٤.) ٣١

البقرة٥التمثيل الخامس(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ....).(
البقرة:١٧١.).. ٣١

البقرة٦التمثيل السادس(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ..... .) (
البقرة:٢١٤.).. ٣١

البقرة٧التمثيل السابع:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ....) (البقرة:٢٦١.)..... ٣٢

البقرة٨التمثيل الثامن(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ....) (البقرة:٢٦٤.)
.... ٣٢

البقرة٩التمثيل التاسع(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغاءَ مَرضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنة....) (البقرة:٢٦٥.)
.... ٣٣

البقرة١٠التمثيل العاشر(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ....) (البقرة:٢٦٦.)٣٣

البقرة١١التمثيل الحادي عشر(الّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلاّ كَما يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطان. .) (البقرة:٢٧٥.).. ٣٤

آل عمران ١التمثيل الثاني عشر(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ ...) (آل عمران:٥٩ـ٦٠.)
.... ٣٤

آل عمران ٢التمثيل الثالث عشر(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمَ...) (آل عمران:١١٦ـ ١١٧.) ٣٥

الأنعام١التمثيل الرابع عشر(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ... .) (الأنعام:١٢٢.) ٣٥

الأعراف١التمثيل الخامس عشر(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى....) (الأعراف:٥٧ـ٥٨.) ٣٥

الأعراف٢التمثيل السادس عشر(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطان.) (الأعراف:١٧٥ـ١٧٧.) ٣٦

التوبة١التمثيل السابع عشر(وَالّذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنينَ و...) (التوبة:١٠٧ـ ١٠٩.) ٣٦

يونس١التمثيل الثامن عشر(إِنَّما مَثَلُ الحَياة الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَط بِهِ....) (يونس:٢٤ـ ٢٥.) ٣٧

هود١التمثيل التاسع عشر(إِنَّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأَخْبتُوا إِلى رَبّهِمْ أُولئِكَ......) (هود:٢٣ـ ٢٤.)............ ٣٧

الرعد١التمثيل العشرون(لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء.....) (الرعد:١٤.) ٣٨

الرعد٢التمثيل الحادي والعشرون(أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً.....) (الرعد:١٧.) . ٣٨

إبراهيم١التمثيل الثاني والعشرون(مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في.....) (إبراهيم:١٨.) . ٣٨

إبراهيم٢التمثيل الثالث والعشرون(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة...) (إبراهيم:٢٤ـ ٢٥.)..... ٣٨

إبراهيم٣التمثيل الرابع والعشرون(وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ...).(إبراهيم:٢٦.) ٣٩

إبراهيم٤التمثيل الخامس والعشرون(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا....) (إبراهيم:٤٤ـ ٤٦.)٣٩

النحل١التمثيل السادس والعشرون(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ....).(النحل:٥٦ـ٦٠.) .. ٣٩

النحل٢التمثيل السابع والعشرون(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..) (النحل:٧٣ـ٧٥.).. ٤٠

النحل٣التمثيل الثامن والعشرون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَهُوَ كَلٌّ...) (النحل:٧٦.) ٤٠

النحل٤التمثيل التاسع والعشرون(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ.... .) (النحل:٩١ـ ٩٢.) ٤٠

النحل٥التمثيل الثلاثون(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا...) (النحل:١١٢ـ ١١٣.) ٤١

الإسراء١التمثيل الحادي والثلاثون (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .....) (الإسراء:٢٩ـ ٣٠.) ٤٢

الكهف١التمثيل الثاني والثلاثون(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لاِحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب....) (الكهف:٣٢ـ ٤٣.) ٤٢

الكهف٢التمثيل الثالث والثلاثون (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَط .....).(الكهف:٤٥.) ٤٣

الحج١التمثيل الرابع والثلاثون (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ ...) (الحج:٧٣ـ٧٤.) ٤٣

النور١التمثيل الخامس والثلاثون (اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكوة....).(النور:٣٥.) ٤٤

النور٢التمثيل السادس والثلاثون(وَالّذينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرَاب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَمآنُ....).(النور:٣٩.) ٤٤

النور٣التمثيل السابع والثلاثون(أَوْ كَظُلُمَات فِي بَحْر لُجّيّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ...) (النور:٤٠.) ٤٥

العنكبوت ١التمثيل الثامن والثلاثون (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ....).(العنكبوت:٤١ـ ٤٣.).. ٤٥

الروم١التمثيل التاسع والثلاثون(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ...) (الروم: ٢٨.) ٤٦

فاطر١التمثيل الأربعون(وَما يَسْتَوِي البَحْران هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ....).(فاطر:١٢.) ٤٦

فاطر٢التمثيل الحادي والأربعون(وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ*....(فاطر:١٩ـ ٢٢.)........... ٤٧

يس١التمثيل الثاني والأربعون (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ....).(يس: ٧٨ ـ ٧٩ .) ٤٧

الزمر١التمثيل الثالث والأربعون (ضَرَبَ اللّه مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُركاءُ مُتَشاكِسونَ و... .(الزمر:٢٩.)..................... ٤٧

الزخرف ١التمثيل الرابع والأربعون (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوّلِينَ* وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيّ إِلاّ... .) .(الزخرف:٦ـ٨.) .. ٤٨

الزخرف٢التمثيل الخامس والأربعون (فَاسْتَخَفَّ قوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِين*...).(الزخرف:٥٤ـ٥٦.) ٤٨

الزخرف٣التمثيل السادس والأربعون (وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * و...).(الزخرف:٥٧ـ٦١.).. ٤٨

محمد١التمثيل السابع والأربعون (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِن...).(محمد:١٥.)........... ٤٩

الفتح١التمثيل الثامن والأربعون (هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى..).(الفتح:٢٨ـ ٢٩.)........... ٤٩

الحديد١التمثيل التاسع والأربعون (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ....).(الحديد:٢٠.) ٥٠

الحشر١التمثيل الخمسون (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاءِ...).(الحشر:١٤ـ ١٥.)................... ٥٠

الحشر٢التمثيل الحادي والخمسون (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ...).(الحشر:١٦.) ٥١

الجمعة١التمثيل الثاني والخمسون (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ...).(الجمعة:٥.) ٥١

التحريم١التمثيل الثالث والخمسون (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط....).(التحريم:١٠.) ٥١

التحريم٢التمثيل الرابع والخمسون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ..).(التحريم:١١ـ ١٢.) ٥١

الثانية: مريم بنت عمران.. ٥٢

المبحث الحادي والعشرون في أسباب النزول ٥٢

القرآن كتاب الأجيال والقرون.. ٥٥

التأكّد من صحّة سبب النزول.......... ٥٥
١. أُسطورة الغرانيق ٥٥
٢. تأخير نزول الوحي لجرو ميّت تحت السرير.......... ٥٦
٣.امتناع أبي طالب عن التكلّم بالتوحيد.......... ٥٦
يلاحظ عليه بوجهين: ٥٦
٤. صلاة رسول الله على المنافق.......... ٥٧
٥. تصميم النبي على التمثيل بسبعين من المشركين.......... ٥٧
القصص القرآنية ٥٨
الأنبياء الذين ذُكرت قصصهم فهم:.......... ٥٨
القصص القرآنية في غير الأنبياء ٥٩
أ. الموضوعية والواقعية ٦٠
ب. تصحيح التحريف.......... ٦٠
ج. الإيجاز في سرد القصّة.......... ٦٠
د. المحافظة على كرامة الأنبياء ٦٠
١. قصّة آدم في التوراة والذكر الحكيم.......... ٦١
٢. قصّة نوح(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم.......... ٦١
٣. قصة لوط(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم.......... ٦١
٤. قصّة يعقوب(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم.......... ٦٢
النبي يعقوب يصارع الرب!! ٦٢
٥. هارون في التوراة والقرآن الكريم.......... ٦٣
المبحث الثالث والعشرون التفسير و حاجة القرآن إليه.......... ٦٣
سؤال وإجابة.......... ٦٥
القرآن وآفاقه اللامتناهية ٦٥

المبحث الرابع والعشرون مؤهلات المفسِّرأوشروط المفسِّر وآدابه ٦٦

شروط التفسير ومؤهّلات المفسّر ٦٩

١. معرفة قواعد اللغة العربية ٦٩

٢. معاني المفردات ٦٩

٣. تفسير القرآن بالقرآن ٧٠

٤. الحفاظ على سياق الآيات ٧١

الشاهد الأوّل: ٧٢

الشاهد الثاني ٧٢

٥. الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين ٧٣

٦. الرجوع إلى العقل الحصيف أو أحد الثقلين ٧٤

النبيّ هو المفسّر الأوّل ٧٤

٧. معرفة أسباب النزول ٧٥

٨. الإحاطة بتاريخ صدر الإسلام ٧٥

٩. تمييز الآيات المكّية عن المدنية ٧٦

١٠. الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية ٧٧

١١. الاجتناب عن التفسير بالرأي ٧٧

المبحث الخامس والعشرون المناهج التفسيرية ٧٨

تمهيد ٧٨

أنواع المناهج التفسيرية ٧٩

أنواع المناهج التفسيرية ٧٩

المنهج الأوّل: تفسير القرآن بالقرآن ٧٩

المنهج الثاني: التفسير البياني للقرآن ٨٢

المنهج الثالث: تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية ٨٣

المنهج الرابع: تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة (عليهم السلام) ٨٥
أمّا أشهر المصنّفات على هذا النمط عند أهل السنّة فهي عبارة عن: ٨٥
وأمّا التفسير بالمأثور عند الشيعة، فأشهرها ما يلي: ٨٥
المبحث السادس والعشرون أنواع الاهتمامات التفسيرية ٨٦
الأوّل: تفسير القرآن في ظل العقل الحصيف ٨٦
١. واحد لا ثاني له ٨٧
أ. صرف الوجود لا يتعدّد ٨٧
ب. التعدّد يستلزم التركيب ٨٧
ج. الوجود اللا متناهي لا يقبل التعدّد ٨٨
٢. لا مدبّر للكون إلاّ الله ٨٨
٣.الله تبارك وتعالى فوق الرؤية ٨٩
٤. هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ٨٩
القرآن والعقل العملي ٩٠
١. تنزيهه سبحانه عن العبث ٩٠
٢. الله عادل لا يجور ٩١
الثاني: تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية والسنن المختلفة ٩٢
الأوّل: تفسير الآيات على ضوء مدرسة الاعتزال ٩٢
١. الشفاعة حطّ الذنوب أو رفع الدرجة ٩٢
٢. هل مرتكب الكبيرة يستحقّ المغفرة أو لا ؟ ٩٣
الثاني: التفسير على ضوء المنهج الأشعري ٩٤
١. جواز التكليف بما لا يطاق ٩٤
٢. امتناع رؤية الله أو إمكانها ٩٥
الثالث: التفسير على ضوء السنن الاجتماعية ٩٦

خصائص تفسير المنار ٩٦

الوصية للوالدين ليست منسوخة ٩٧

الصبر وأثره البنّاء ٩٧

انشقاق السماء عند اختلال نظامها ٩٨

مؤاخذات على تفسير المنار ٩٨

الرابع: التفسير على ضوء العلم الحديث ١٠١

الخامس: التفسير حسب تأويلات الباطنية ١٠٢

مع الشهرستاني في كتابه «مفاتيح الأسرار» ١٠٤

السادس: التفسير حسب تأويلات الصوفية ١٠٥

هانحن نذكر شيئاً من تفاسيرهم: ١٠٦

١. تفسير التستري ١٠٦

٢. حقائق التفسير للسلمي ١٠٦

٣. لطائف الإشارات ١٠٧

٤. تفسير الخواجه ١٠٧

٥. كشف الأسرار وعدّة الأبرار ١٠٧

٦. تفسير ابن العربي ١٠٧

٧. عرائس البيان في حقائق القرآن ١٠٧

٨. التأويلات النجمية ١٠٧

التفسير الإشاري بين القبول والرفض ١٠٨

ختامه مسك حول كتاب «التفسير والمفسّرون» ١١٠

الأُولى: جعل الإمام علي(عليه السلام) ثالث المفسّرين من الصحابة ١١٠

الثانية: اعتماده في بيان عقيدة الشيعة على خصومهم ١١٠

الثالثة: مفسّرو الشيعة يُخضِعون الآيات لعقائدهم ١١١

المبحث السادس والعشرون منهج أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير القرآن المجيد ١١٢

الأوّل:استنطاق نفس الآية ١١٢

١. الاستغفار سبب نزول الرزق ١١٢

٢. المسح ببعض الرأس لوجود (الباء) ١١٣

٣. تعلّق الخمس بكلّ فائدة ١١٣

٤. بطلان الطلاق في الحيض.. ١١٣

الأُسلوب الثاني: تفسير الآية بآية أُخرى ١١٤

١. تفسير شاهد ومشهود ١١٤

٢. استنباط حكم قصر الصلاة من حكم الطواف ١١٥

٣. تفسير الاجتناب عن الخمر بآية أُخرى.. ١١٥

٤. الواجب قطع الأصابع من أُصولها ١١٦

الأُسلوب الثالث: تفسير الآية بشكل بديع خاف عن أذهان العامّة ١١٦

١. الذمّي الّذي نقض حكم الذمّة ١١٦

٢.تحديد أقل الحمل بالجمع بين آيتين ١١٧

٣. الاستدلال على أنّ الحسنين ابني رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بحرمة التزويج ١١٧

الأُسلوب الرابع: التفسير بالإشارة إلى أبرز المصاديق ١١٧

١. النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة القائمون مقامه هم الصراط المستقيم.................................. ١١٨

٢. المنذر هو الرسول وعليّ الهادي ١١٨

٣. الأئمّة هم أهل الذكر... ١١٨

٤. الإشارة إلى مصداق مَن يعلمون ومَن لا يعلمون ١١٨

٥. تفسير (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ).. ١١٨

٦. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم المصطفون.. ١١٩

٧. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم نعم الله تعالى... ١١٩

٨. تفسير صدور الذين أُوتوا العلم ١١٩
٩. الأئمّة(عليهم السلام)هم المتوسّمون ١٢٠
١٠. ردّ الأمانات إلى أهلها ١٢٠
الأُسلوب الخامس: مزج الآية بجملة إيضاحيّة ١٢٠
الأُسلوب السادس: الاستئناس بالآية على المورد ١٢١
الروايات الموضوعة على لسانهم ١٢١
١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري(عليه السلام) ١٢١
٢. تفسير علي بن إبراهيم القمّي ١٢١
المبحث السابع والعشرون المفسّرون في عصر الرسالة وبعدها ١٢٣
الوصي هو المفسّر الثاني ١٢٤
المفسّرون بعد الإمام علي(عليه السلام) ١٢٥
المبحث الثامن والعشرون في فضائل القرآن ١٢٦
ضعف الأحاديث الواردة في فضائل السور ١٢٧
فهرس مصادر التأليف ١٢٨

مقدمة في علوم القرآن

تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني

منشورات مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآن مُبِين) الحجر: ١.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير بريّته محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد؛

لم يلق كتاب سماوي من الاهتمام من قبل أتباعه، ما لقيه القرآن الكريم، فقد اهتمّ المسلمون بكتابهم المجيد، منذ نزوله وتعاهدوه قراءة، وحفظاً، وتعلّماً، وتفسيراً وكتابة، و...

وقد ألّفوا حول تفسيره وبيان مكامن أسراره مئات الموسوعات التفسيرية وآلاف الكتب والرسائل والمقالات.

ولو تمكّن أحدٌ من جمع ما أُلّف حول القرآن من التفاسير على تعدّد أنواعها، وجعلها في مركز معيّن لنشأت مكتبة ضخمة، تضم أنواع العلوم والمعارف.

ومع هذا الاهتمام فالركب بعدُ سائر، لأنّ الحقائق القرآنية و المعارف الإلهية غير متناهية، كيف تنتهي والقرآن الكريم فعل الله سبحانه، ومظهر من مظاهر علمه، فإذا كانت ذاته غير متناهية فليكن فعله أيضاً كذلك، ولذلك يصف النبي الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) القرآن بقوله: «وهو كتاب فيه تفصيل، وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم(وفي بعض النسخ:«تخوم».)، وعلى نجومه نجوم، لا تُحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظرة، ينج من عطب و يتخلّص من نشب».(الكافي:٢/٢٣٨.)

ونحن في تقديمنا هذا نشكر الله سبحانه على توفيقه لهذا العبد الضعيف في خدمة القرآن الكريم في التفسير تارة وفي بيان أهم المباحث المتعلقة بعلوم القرآن الكريم أُخرى.

وهذا هو الجزء الثاني من كتابنا حول العلوم القرآنية، حيث جعلناه مع ما سبقه كمقدّمة لتفسيرنا المسمّى بـ«منية الطالبين في تفسير القرآن المبين»، وسيجد القارئ الكريم فيه بحوثاً حول الأقسام والأمثال في الذكر الحكيم، وأسباب النزول، ومؤهّلات المفسّر، وإلى غير ذلك من المباحث الهامّة.

أسأل الله سبحانه أن يتقبّل منّا هذا العمل بفضله الكريم ويجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به القرّاء الكرام.

إنّه بذلك جدير وعلى الإجابة قدير

جعفر السبحاني

قم المقدّسة ـ مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)

٢٣ ذي القعدة الحرام ١٤٣٩هـ

الأقسام في القرآن الكريم

إنّ من آفاق القرآن ومعانيه السامية هو أقسامه المتنوّعة، فقد أقسم القرآن الكريم بأُمور مختلفة ربّما يبلغ عددها إلى أربعين

حلفاً أو أكثر، وهي تمتاز عن الأقسام الرائجة في العصر الجاهلي بأنّها انصبّت على ذوات مقدّسة أو ظواهر كونية ذات أسرار عميقة، في حين امتاز القسم في العصر الجاهلي بالحلف بالمغاني والمدام ـ أي الخمر ـ وجمال النساء، إلى غير ذلك من الأُمور المادّية السافلة.

ثمّ إنّ أوّل من أفرد أقسام القرآن بالتأليف هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية (المتوفّى ٧٥١هـ) ولم يَذكر كتاباً غيره، ثم جمع السيوطي أقسام القرآن وجعله نوعاً من أنواع علومه، فبحث عنها بحثاً موجزاً لا يتجاوز الخمس صفحات.(الإتقان في علوم القرآن:٤/٤٦ـ٥١.)

إنّ القسم يتكوّن من أُمور ثلاثة:

١. لفظ القسم: كقوله سبحانه:(لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)(القيامة:١.) أو ما يعادله من الحلف أو أدوات القسم، أعني: الباء والتاء والواو واللام.

٢. ما يُحلف به أو المقسم به: فإنّ لكلّ قوم أُموراً مقدّسة يحلفون بها، وأمّا القرآن فقد حلف بأُمور تجاوزت عن الأربعين مقسماً به، وهذه هي سورة الشمس حلف فيها سبحانه بأُمور ثمانية غير الحلف بذاته المقدّسة وقال:(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)إلى قوله: (وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا)(الشمس:١ـ٧.).

٣. ما يحلف عليه، أي المقسم عليه: والمراد هو جواب القسم الذي يراد منه التأكيد عليه وتثبيته وتحقيقه، وهذا ما يقال: القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده.

ففي الآية التالية تتجلّى الأركان الثلاثة وتقول:(وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ)(النحل:٣٨.)، فقوله:(وَأَقْسَمُوا) فهو الركن الأوّل و قوله:(بِاللّهِ) هو ما يحلف به.

وقوله: (لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ) هو المقسم عليه.

وهناك أمر رابع جدير بالإشارة وهو أنّ أكثر المفسّرين حينما تطرّقوا إلى الأقسام الواردة في القرآن الكريم ركّزوا جهودهم لبيان ما للمقسم به من أسرار و رموز، كالشمس والقمر في قوله سبحانه: (والشَّمْسِ وَضُحاها* وَالْقَمرِ إِذا تَلاها)(الشمس: ١ـ٢.)، أو قوله: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون) (التين:١.)، ولكنّهم غفلوا عن دراسة بيان الصلة والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه، لاحظ مثلاً قوله سبحانه: (وَالضُّحى * وَاللّيلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى)(الضحى: ١ـ٣.) فالضحى والليل مقسم بهما، وقوله:(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) هو جواب القسم الذي نعبّر عنه بالمقسم عليه، فهناك صلة في الواقع بين المقسم به والمقسم عليه، وهو أنّه لماذا لم يُقسم بالشمس ولا بالقمر ولا بالتين ولا بالزيتون بل حلف بالضحى والليل لأجل المقسم عليه، أعني قوله: (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى)؟ سواء علمنا بها أم لا؟

وصفوة القول: إنّ كلّ قسم جدير لتحقيق الخبر وتأكيده، ولكن يقع الكلام في كلّ قسم ورد في القرآن الكريم أنّه لماذا اختار المقسم به الخاص دون سائر الأُمور الكثيرة التي يقسم بها؟ فمثلاً: لماذا حلف في تحقيق قوله: (ما ودّعك) بقوله: (وَالضُّحى * وَاللّيلِ) ولم يقسم بالشمس والقمر؟ وهذا هو المهم في بيان أقسام القرآن، ولم يتعرّض له أكثر المفسّرين ولا سيّما ابن قيّم الجوزية في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» إلاّ نزراً يسيراً.

ثمّ إنّ الغالب هو ذكر جواب القسم، وربّما يحذف كما يحذف جواب «لو» كثيراً، كقوله سبحانه: (وَلَو أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْكُلِّمَ بِهِ الْمَوتى)(الرعد:٣١.)، فإنّ الجواب محذوف، تقديره: «لما آمنوا».

وهناك أمر خامس وهو: ما هي الغاية المتوخّاة من القسم؟

أقول: الغاية هي أحد أُمور ثلاثة:

١. تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الإيمان والإذعان به كما هو الغالب.

٢. إلفات النظر إلى عظمة المقسم به وما يكمن فيه من أسرار ورموز، كما هو الغالب في الأقسام الواردة في سورة الشمس البالغة إلى ثمانية، من (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)إلى قوله:(وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا).

٣. بيان قداسة المقسم به وكرامته كقوله: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ).(الحجر:٧٢.)

فإن قلت: إنّ حلفه سبحانه إن كان لأجل المؤمن فهو يصدّقه بلا حلف، وإن كان لأجل الكافر فهو لا يصدّقه حتّى مع الحلف.

قلت: إنّ حلفه سبحانه لأجل المؤمن غير أنّ إيمان المؤمن بصدق إخباره سبحانه لا ينافي تأكيده بالحلف، مضافاً إلى ما عرفت من أنّ حلفه سبحانه بشيء إشارة إلى كرامته وقداسته أو إلى عظمته وما يكمن فيه من أسرار ورموز.

إلى غير ذلك من الأقسام الواردة في كلامه(عليه السلام) وكلام سائر أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)

جواز الحلف بغير الله سبحانه

إنّ كتاب الله سبحانه هو الهادي إلى ما هو الحقّ، وقد حلف سبحانه بغير ذاته من مصنوعاته إمّا لأجل التذكير بما فيها من الأسرار، أو لبيان قداسة المقسم به. وقد حلف سبحانه في كتابه بذاته ومصنوعاته فلو كان الحلف بغير الله سبحانه أمراً محظوراً لذكره، واحتمال أنّ الحلف بغير الله من خصائصه سبحانه يحتاج إلى دليل قاطع، على أنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) حسب ما رواه مسلم قد حلف بغير الله سبحانه.

أخرج مسلم في صحيحه أنّه جاء رجل إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم؟ فقال: أمّا ـ وأبيك ـ لتنبّئنّه أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء.(صحيح مسلم:٣/٩٤، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة. ولاحظ ج ١/٣٢، باب ما هو الإسلام.)

وهذا هو الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) قد حلف بغيره سبحانه في غير واحدة من خطبه:

١. «وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إدْهَان وَلاَإِيهَان».(نهج البلاغة: الخطبة ٢٣.)

٢. «وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلاَبِهِمُ الْعُهُودُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٥.)

أنواع الأقسام الواردة في القرآن الكريم

حلف سبحانه في الكتاب العزيز بأُمور، وهي بين قسم مفرد، وقسم متعدّد، وإليك الكلام فيهما:

القسم الأوّل: الأقسام المفردة

إنّ المراد من القَسَم المفرد هو ما إذا حلف سبحانه بأمر واحد ولم يضم إليه حلفاً آخر، سواء تكرّر في سورة أُخرى أو لا. وإليك نماذج من هذا القَسَم:

١. القَسَم بلفظ الجلالة:

كقوله سبحانه: (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَم مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)(النحل:٦٣.).

٢. القَسَم بالرَّب:

كقوله سبحانه: (فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ).(المعارج:٤٠.)

٣. القَسَم بحياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):

كقوله سبحانه:(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ).(الحجر:٧٢.)

٤. الحلف بوصف النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه شاهد:

كقوله سبحانه:(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ).(البروج:١ـ٤.)

فالمراد من الشاهد هو النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة أنّه سبحانه وصفه بهذا الوصف ثلاث مرات، وقال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).(الأحزاب:٤٥.)

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ).(المزمل:١٥.)

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).(الفتح:٨.)

فإن قلت:إنّ الكلام مركّز على الحلف بأمر مفرد، والحلف في الآية جاء ضمن أُمور أُخرى.

قلت: إنّ تخصيص ذكر «الشاهد في المقام» لأجل أنّه حلف بالوصف من أوصاف النبي فناسب ذكره في ضمن الحلف بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم). وإن كان المورد خارجاً عن المقسم.

٥. الحلف بالقرآن الكريم:

حلف سبحانه بالقرآن الكريم في ثلاث آيات:

أ. (يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ).(يس:١ و٢.)

ب. (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ).(ص:١.)

ج. (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ).(ق:١.)

٦. الحلف بالكتاب المبين:

حلف سبحانه بالكتاب المبين مرّتين، وقال:

أ. (حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ).(الدخان:١ـ٣.)

ب. (حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).(الزخرف:١ـ٣.)

٧. الحلف بالعصر:

حلف سبحانه بالعصر مرّة واحدة وقال: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر).(العصر:١ـ٢.)

٨. الحلف بالنجم:

حلف سبحانه بالنجم مرّة واحدة وقال:(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى).(النجم:١.)

٩. الحلف بمواقع النجوم:

حلف سبحانه وتعالى في سورة الواقعة بمواقع النجوم وقال: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ).(الواقعة:٧٥.)

١٠. الحلف بالسماء ذات الحبك:

قال سبحانه:(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْل مُخْتَلِف).(الذاريات:٧ـ ٨.)

إلى هنا تمّ ذكر الحلف بأمر واحد وقد اقتصرنا الكلام في هذا القسم ولم نذكر شيئاً في ما هو الوجه للحلف بالمقسم به، كما لم نذكر، صلة الجواب بالمقسم به. وأمّا من أراد الوقوف على هذه الجهات فليرجع إلى تفسيرنا هذا «منية الطالبين في تفسير القرآن المبين» يجد فيه بغيته. وإليك الكلام في القسم الثاني أعني الحلف بأُمور متعدّدة مجتمعة.

القسم الثاني: الأقسام المتعدّدة

قد عرفت الأقسام المفردة التي حلف فيها سبحانه بأمر واحد، وإليك الكلام في الأقسام المتعدّدة في موضع واحد، وهذا ما نذكره حسب السور:

الأوّل: القسم في سورة الصافات

أقسم سبحانه في هذه السورة بأُمور ثلاثة يمكن أن تكون كلّها من صفات الملائكة، قال:

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ).(الصافات:١ـ٤).

فالمقسم به عبارة عن أُمور ثلاثة، وجواب القسم قوله: (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ).

إنّما الكلام فيما هو المقصود من الأُمور الثلاثة، فنقول:

(الصَّافَّاتِ): جمع صافّة، وهي من الصف بمعنى جعل الشيء

على خط مستو، يقول سبحانه: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا)(الصّف:٤).

(فَالزَّاجِرَاتِ) من الزجر، بمعنى الصرف عن الشيء بالنهي والتهديد.

(فَالتَّالِيَاتِ) من التلاوة، وهي جمع تال أو تالية، غير أنّ المهمّ بيان ما هو المقصود من هذه العناوين؟ ولعلّ الرجوع إلى القرآن الكريم يزيح الغموض عن كثير منها.

أمّا الأوّل: فيمكن أن يراد به الملائكة، يقول سبحانه: (وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)(الصافات:١٦٤ـ ١٦٦).

نعم وصف سبحانه الطير أيضاً بهذا الوصف وقال:(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات وَيَقْبِضْنَ)(الملك:١٩)، كما وصف البعير المعدّ للنحر بقوله: (صَوَافَّ) قال سبحانه: (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ)(الحج:٣٥) ولكن إرداف هذا الوصف بوصفين آخرين يعني: الزاجرات والتاليات، يُشكّل قرينة على أنّ المراد غير الطير والبُدن.

وأمّا الثاني ـ أعني: الزاجرات ـ : فلم يرد في القرآن ما يرشدنا إلى المقصود منها فيحتمل أن يراد بها أيضاً الملائكة حيث يزجرون العباد عن المعاصي بالإلهام إلى قلوب الناس قال سبحانه:(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَد حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ).(البقرة:١٠٢) ومع ذلك يحتمل أن يراد كلّ من يزجر العباد عن المعاصي، وعلى رأسهم الأنبياء العظام.

وأمّا الثالث ـ أعني: التاليات أي الذين يتلون الوحي على النبي الموحى إليه ـ : فالمراد هم الملائكة وفي الوقت نفسه يحتمل أن يكون المراد العلماء، أعني: الجماعة التالين لآيات الله.

وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)، هو أنّ الملائكة أو الأنبياء والعلماء هم دعاة التوحيد وروّاده وأبرز مصاديق الدعاة إلى توحيد الله سبحانه.

الثاني: القسم في سورة الذاريات

لقد حلف سبحانه بأُمور أربعة متتابعة وقال:

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)(الذاريات:١ـ٦).

ثم حلف بخامس منفصلاً عن هذه الأقسام الأربعة أعني قوله: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)(الذاريات:٧).

وقد تقدّم ذكر الخامس عند ذكر الأقسام المفردة.

وعلى ذلك فلنذكر معاني الأُمور الأربعة:

أمّا الأوّل ـ أعني: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا) ـ فأُريد بها الريح التي تُنشر شيئاً في الفضاء بقرينة قوله سبحانه: (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)(الكهف:٤٥).

وأمّا الثاني ـ أعني: (فَالْحَامِلاَتِ) ـ فهي من الحمل والوقر ـ على زنة الفكر ـ ذو الوزن الثقيل، ولعلّه أُريد بها السُّحب، يقول سبحانه: (هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)(الرعد:١٢.)، وقال سبحانه: (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَد مَيِّت فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ).(الأعراف:٥٧.)

وأمّا الثالث ـ أعني: الجاريات ـ فهي جمع جارية وأُريد بها السفن بشهادة قوله سبحانه: (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ)(البقرة:١٦٤.).

وأمّا الرابع ـ أعني: المقسمات ـ المراد الملائكة التي تقسّم الأرزاق بواسطتها التي ينتهي إليها التقسيم.

قال العلاّمة الطباطبائي: والآيات الأربع تشير إلى عامّة التدبير حيث ذكرت أُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البرّ وهو (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا)، وأُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا)، وأُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجو وهو (فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا)، وتمّم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير، وهم (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا).(الميزان في تفسير القرآن:١٨/٣٦٥.)

أمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فهو: إنّه سبحانه بعدما أقسم بالأُمور التي يتمّ بها أمر التدبير، يذكر أنّ الخلق والتدبير ليسا سُدىً ولا بلا غاية، وإنّما غايتهما هو يوم الدين، وعودة الإنسان إلى يوم الجزاء، إذ لولا هذه الغاية لأصبح أمر الخلق والتدبير عبثاً بلا غاية، فكأنّه سبحانه يريد إلفات نظر الإنسان من التدبّر في أسباب التدبير إلى الغاية المتمثّلة في يوم الجزاء.

الثالث: القسم في سورة الطور

حلف سبحانه في سورة الطور بأُمور خمسة، وقال: (وَالطُّورِ * وَكِتَاب مَسْطُور * فِي رَقّ مَنْشُور * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِع).(الطور:١ـ ٨.)

تفسير الأُمور:

أمّا الأوّل: (وَالطُّورِ) اسم جبل خاص لا مطلق الجبل بشهادة قوله مقروناً بالألف واللام.

أمّا الثاني ـ أعني: (وَكِتَاب مَسْطُور) ـ : أُريد به المثبّت بالكتابة، قال سبحانه: (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)(الإسراء:٥٨.).

وقد كتب في: (رَقّ مَنْشُور) ـ فالرق ما يكتب فيه شبه الكاغذ، والمنشور من النشر بمعنى البسط، يقول سبحانه: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)(التكوير:١٠.).

وأمّا الثالث ـ أعني:(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُور) ـ : أي البيت الذي عمر بالطائفين.

وأمّا الرابع ـ أعني: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) ـ : أي المرتفع .

وأمّا الخامس ـ أعني: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)ـ : فالمسجور من السجر وهو تهييج النار، يقال: سجّرت التنور.

إلى هنا تبيّن معاني المفردات يبقى الكلام في ما هو المراد؟

تفسير ما هو المراد من الأقسام الخمسة؟

الأوّل: الطور: والظاهر هو الجبل المعروف الذي كلّم الله فيه موسى(عليه السلام).

وأمّا الثاني ـ أعني: (وَكِتَاب مَسْطُور) ـ : فأُريد به القرآن الكريم الذي كان يكتب في الورق المأخوذ من الجلد.

ومع ذلك يحتمل أن يراد التوراة بقرينة اقترانه بالحلف بالطور، كما يحتمل أن يراد به صحائف الأعمال، وقد وصفه سبحانه بالنشر وقال:(وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا)(الإسراء:١٣.).

وأمّا الثالث ـ أعني:(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) ـ : فيحتمل أن يراد به الكعبة المشرّفة ووصفه بالعمارة لكونه معموراً بالطائفين والعاكفين.

وأمّا الرابع ـ أعني: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) ـ : فأُريد به السماء، لقوله سبحانه: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)(الرحمن:٧.).

وأمّا الخامس ـ أعني: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) ـ : فلعلّ المراد هو البحر المحيط بالأرض الذي سيلتهب قبل يوم القيام ثم ينفجر، قال سبحانه: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)(التكوير:٦.)، وقال تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)(الانفطار:٣.).

ثمّ إنّ الأقسام الثلاثة الأُولى يجمعها شيء واحد وهو صلتها بالوحي وخصوصياته، حيث إنّ الطور هو محل نزول الوحي، والكتاب المسطور هو القرآن أو التوراة، والبيت المعمور هو الكعبة أو البيت الذي تطوف به الملائكة الذين هم رسل الله.

وأمّا الاثنان الآخران، أعني: السقف المرفوع والبحر المسجور، فهما من الآيات الكونية ومن دلائل توحيده ووجوده وصفاته.

وأمّا المقسم عليه فهو قوله: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ).

أمّا وجه الصلة بين المقسم به ـ على تعدّده ـ والمقسم عليه هو: أنّ وقوع العذاب على وجه القطع وعدم القدرة على دفعه، يناسب في التأكيد عليه أن يقسم بالكتاب، أي بالتوراة أو القرآن اللّذين جاءت فيهما أخبار القيامة وحتميتها. كما ناسب أن يحلف بمظاهر القدرة وآيات العظمة كالسقف المرفوع والبحر المسجور حتى يُعلم أنّ صاحب هذه القدرة لقادر على تحقيق هذا الخبر: إنّ عذابه لواقع، وليس له دافع يدفعه عن المجرمين فينجيهم منه إذا حلّ بهم.

الرابع: القسم في سورة القلم

حلف سبحانه في سورة القلم بأمرين: ١. القلم. ٢. مايسطرون، وقال: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)(. القلم:١ـ٢.).

والظاهر أنّ لفظة «ن» من الحروف المقطّعة، تفسّر كما تفسّر غيرها.

حلف سبحانه بالقلم، ولعلّ المراد جنس القلم الذي يكتب به من في السماء ومن في الأرض ويؤيّده قوله سبحانه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).(العلق:١ـ٥.)

كما حلف بـ (وَمَا يَسْطُرُونَ) فلو كانت «ما» موصولة، يكون المراد المكتوب؛ ولو كانت مصدرية، يكون المراد نفس السطر والكتابة.

ثمّ إنّ في الحلف بالقلم وبالمكتوب أو الكتابة إلماعاً إلى مكانة القلم والكتابة في الإسلام، كما أنّ في قوله سبحانه: (علّم بالْقَلم) إشارة إلى ذلك، والعجب أنّ القرآن الكريم نزل وسط مجتمع يسوده التخلّف والجهل والأُميّة، وكان عدد مَن يجيد القراءة والكتابة في العصر الجاهلي لا يتجاوز عدد الأصابع، وقد سرد البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» أسماء سبعة عشر رجلاً في مكة، وأحد عشر من يثرب،(فتوح البلدان : ٤٥٧ .) كانوا عارفين بالقراءة والكتابة.

وهذا ابن خلدون يحكي في مقدّمته: أنّ عهد قريش بالكتابة لم يكن بعيداً، بل كان حديثاً وقريباً بعهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) . (مقدّمة ابن خلدون:٤١٨.) ومع ذلك يعود القرآن ليؤكّد بالحلف بالقلم على مكانة القلم والكتابة في الحضارة الإسلامية، وجعل في ظل هذا التعليم أُمّة متحضّرة احتلّت مكانتها بين الحضارات. وليس هذه الآية وحيدة نسجها في الدعوة إلى القلم والكتابة، بل ثمة آية أُخرى هي أكبر آية في الكتاب العزيز، يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْن إِلى أَجَل مُسمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُب...).(البقرة:٢٨٢.)

وفي نهاية الكلام نختم الدراسة بحديث رواه الشيخ يحي البحراني عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في كتابه «الشهاب في الحكم والآداب» قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «ثلاثة تخرق الحجب وتنتهي إلى ما بين يدي الله:

١. صرير أقلام العلماء.

٢. وطء أقدام المجاهدين.

٣. صوت مغازل المحصنات». (الشهاب في الحكم والآداب:٢٢.)

أمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فهو أنّ القلم والكتابة آية العقل والدراية، فحلف به لغاية نفي الجنون عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

الخامس: القسم في سورة الحاقّة

حلف سبحانه بما يُبصر وبما لا يُبصر، قال سبحانه: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِر قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِن قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الحاقّة:٣٨ـ ٤٣.) فحلف بأمرين:

الأوّل: (بِمَا تُبْصِرُونَ) أقسم سبحانه هنا بما يُبصر أي ما له علاقة بالبصر ولم يُقسم بغيره ممّا هو محسوس بسائر الحواس، ولعلّه داخل في القسم الثاني.

الثاني:(وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ) أقسم سبحانه بما لا نبصر وما أكثره وأعظم خطره، فيشمل الموجودات الدنيوية والأُخروية والأجسام والأرواح والإنس والجن والنعم الظاهرة والباطنة، حتى ولعلّه يشمل الخالق والمخلوق وإن استبعده السيد الطباطبائي قائلاً: بأنّه من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والمخلوق في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع، تعظيماً مشتركاً في عرض واحد. (الميزان في تفسير القرآن:١٩/٤٠٣.)

هذا هو المقسم به، وأمّا المقسم عليه فهو قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِر قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِن قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فالمقسم عليه مركّب من أُمور إيجابية ـ أعني كونه: قول رسول كريم، وأنّه تنزيل من ربّ العالمين ـ وسلبية وهو أنّ القرآن ليس بقول شاعر ولا كاهن.

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فيمكن أن يقال: إنّه سبحانه وتعالى حلف بعالم الغيب والشهادة ـ أي بمجموع الخليقة والنظام السائد على الوجود الإمكاني ـ على وجود هدف مشترك لهذا النظام، وهو صيرورة الإنسان في هذا الكوكب إنساناً كاملاً مظهراً لأسمائه وصفاته، ولا يتمّ تحقيق ذلك الهدف في عصر الرسالة إلاّ من خلال بعث رسول كريم ومعه كتاب جليل لا يشبه شعر شاعر أو سجع كاهن.

السادس: القسم في سورة المدّثّر

حلف سبحانه في سورة المدّثّر بأُمور ثلاثة، هي: القمر، والليل عند إدباره، والصبح عند ظهوره، قال: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلاَّ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ). (المدثر:٣١ـ ٣٧.) وإليك دراسة الكلّ:

١. (وَالْقَمَرَ): وهو يتجلّى في الليل، ولولا الليل لما كان لضوئه ظهور؛ لأنّه يختفي نوره في النهار لتأثير الشمس.

٢. (وَاللَّيْلِ إذا أَدْبَرَ): عبّر عن نهاية الليل بقوله: إذا أدبر.

٣. (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ): أي إذا ظهر.

وفي الآية إشارة إلى نظام عجيب، فكأنّه سبحانه يقول: احلف بتجلّي القمر في وسط السماء الذي يسير مع الليل شيئاً فشيئاً، إلى أن يدبر ويسفر الصبح، هذا مفاد الآيات التي تضمّنت المقسم به.

وأمّا المقسم عليه فهو عبارة عن قوله: (إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (المدثر:٣٥ـ٣٧.) والضمير في (إِنَّهَا) يرجع إلى الآيات القرآنية في قوله سبحانه: (كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا) (المدثر:١٦.).

أمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فيمكن أن يقال: إنّ القمر في الليل الدامس يهدي السائرين، كما أنّ الصبح وطروء النهار

يبدّد الظلام ويظهر النور، فناسب أن يحلف سبحانه بأسباب الهداية، ومعادن النور ومظاهره، بُغية إثبات أنّ القرآن لإحدى المعاجز الكبرى التي تهدي البشر إلى سبيل الرشاد. نعم على القول بأنّ الضمير في (أنّها) يرجع إلى (سقر)فالمناسبة غير واضحة.

السابع: في سورة القيامة

حلف سبحانه في سورة القيامة بأمرين:١. يوم القيامة. ٢. النفس اللوّامة وقال: (لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ).(القيامة:١ـ٥.)

إنّ المقسم به أمران:

١. يوم القيامة: فهو يوم البعث الذي يجمع الله فيه الناس على صعيد واحد، وإنّما سمّي يوم القيامة لأجل أنّه يقوم فيه الحساب قال سبحانه حاكياً عن إبراهيم(عليه السلام): (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)(إبراهيم:٤١.)، ويحتمل أن يكون وجهه قيام الناس كما يقول: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)(المطففين:٦.).

٢. النفس اللوّامة: فهي صيغة مبالغة من اللوم، وهي عذل الإنسان لعمله أو لعمل غيره. وقد اختلف المفسّرون في المراد من النفس اللوّامة على وجوه أفضلها أن يقال: أُريد مطلق النفس، إذ ليس من نفس برّة أو فاجرة إلاّ وهي تلوم نفسها يوم القيامة، إن كانت عملت خيراً قالت: هلاّ ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل.

ويحتمل أن يراد النفس اللوّامة التي تظهر بين الحين والآخر في الحياة الدنيا وتزجر الإنسان عن ارتكاب الذنوب، وهذا الذي يُسمّيه علم النفس في يومنا هذا بالوجدان الأخلاقي، ويصفون الوجدان بأنّه محكمة لا تحتاج إلى قاض سوى النفس، وهي التي تقوم بتأسيس المحكمة، وتشخّص المجرم، وتصدر الحكم بلا هوادة، ودون أي تهاون.

ثمّ إنّ القرآن الكريم جعل للنفس الإنسانية مراتب:

١. النفس الأمّارة. ٢. النفس اللوّامة. ٣. النفس المطمئنة. ٤. النفس الراضية المرضية. فراجع في الوقوف على مفاهيمها كتابنا:«الأقسام في القرآن الكريم».(يلاحظ: الأقسام في القرآن الكريم:١٢٢ـ١٢٧.)

قد عرفت أنّ المقسم عليه مقدّر بمعنى «لتبعثن» والصلة بينه وبين الإقسام بيوم القيامة واضحة، وهكذا بينه وبين الإقسام بالنفس اللوّامة لما مرّ من أنّها تلوم الإنسان في يوم القيامة.

الثامن: القسم في سورة المرسلات

حلف سبحانه في هذه السورة بأُمور خمسة وقال:

أ. (وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا).

ب. (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا).

ج. (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا).

د. (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا).

هـ. (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ).(المرسلات:١ـ٧.)

وظاهر السياق يبعثنا إلى تفسيرها بأمر واحد تنطبق عليه هذه الصفات، فقسم من المفسّرين جعل الأمر الواحد الرياح وهو يصحّ في الثلاثة الأُولى دون الرابعة والخامسة، وإليك البيان:

١. (وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا): أي أُقسم بالرياح التي أُرسلت متتابعة، فقوله: عُرفاً نُصب على الحال بمعنى متتابعة.

٢. (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا): أي أُقسم بالرياح الشديدة الهبوب.

٣. (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا): أي أُقسم بالرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء نشراً للغيث.
٤. (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا): أي أُقسم بما يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا ممّا لا يمكن تفسيره بالرياح، التي تفرّق بين السحاب فتبدّده، لأنّه بعيد.
٥. (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا): أي أقسم بمَن يلقي الذكر، وهذا ما لا يمكن تفسيره بالرياح أيضاً.
٦. (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا): أي إعذاراً من الله وإنذاراً إلى خلقه.

إلى هنا تبيّن بأنّه لا يمكن تفسير الجميع بالرياح.

وربّما يفسّر الجميع بالملائكة بالنحو التالي:
١. (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا): أي الملائكة المرسلين إلى الرسل متتابعين.
٢. (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا)، وهذا ما لا يمكن تفسيره بالملائكة، وأمّا ما يقال من تشبيه سرعة نزولهم بشدّة الريح، فبعيد عن الأذهان.
٣. (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا): أي ينشرون صحف الوحي.
٤. (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا): أي الملائكة التي تأتي بما يُفرّق به بين الحقّ والباطل.
٥. (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا): أي الملائكة التي تلقي الذكر على الأنبياء. (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا): فالذي تلقيه الملائكة بين كونه عذراً أو نذراً.

وهنا وجه آخر ذكرناه في تفسيرنا «منية الطالبين» (لاحظ:منية الطالبين في تفسير القرآن المبين:٢٩/٤٤٧).

وعلى كلّ تقدير فالمقسم عليه قوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ).

وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فلو قلنا بأنّ الأقسام الخمسة تشير إلى الملائكة أو القرآن الكريم فالصلة واضحة، لأنّ أهم ما توحيه الملائكة إلى الأنبياء، أو أهمّ ما يشتمل عليه الكتاب المجيد هو الدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشور، ولذلك جاء الجواب على نحو التأكيد بأنّ الموعود لواقع قطعاً.

ولو قلنا بأنّ المراد من الأقسام الخمسة هو الرياح وقلنا بأنّ الصفات كلّها ترجع إليها، فعندئذ يمكن أن يقال: إنّ المقسم به بأوصافه الخمسة ينبئ عن وجود تدبير في العالم، ومن المعلوم أنّ التدبير لا ينفكّ عن غرض يترتّب عليه، وليس هذا الغرض إلاّ اليوم الموعود الذي فيه يجمع الناس للحساب والجزاء، ولذلك جاء الجواب:(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ).

التاسع: القسم في سورة النازعات

حلف سبحانه في هذه السورة بأُمور خمسة وقال:
أ. (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)
ب. (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا)
ج. (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا)
د. (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)
هـ. (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ). (النازعات:١ـ٩).

حلف سبحانه في هذه السورة بطوائف وصفها بـ :

النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات.

ذكر المفسّرون وجوهاً أفضلها القول بأنّ الموصوفين هم الملائكة وإليك البيان:

١. (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)، وهم الملائكة الذين ينتزعون أرواح الكفّار من أبدانهم بشدّة وقوّة، بقرينة قوله: (غَرْقًا)، وهو بمعنى المبالغة في الشدّة.

٢. (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا): وهم الملائكة الموكّلون بنزع أرواح المؤمنين برفق وسهولة وخفّة في الحركة.

٣. (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا): وهم الملائكة النازلين من السماء بسرعة، وقد مرّ أنّ السبح: الإسراع في الحركة، كما يقال للفرس: سابح إذا أسرع في جريه.

٤. (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا): وهم الملائكة تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهية، ويمكن أن يكون متعلّق السبق أمراً آخر أيضاً.

٥. (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا): أي الملائكة المدبّرة للأُمور، فكأنّ أمر التدبير منقسم بين الملائكة لكلّ منهم وظيفة خاصة، فجبريل يدبّر أمر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبّر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكّل بقبض الأرواح، وإسرافيل يتنزّل بالأمر وهو صاحب الصور.

وأمّا المقسم عليه فكأنّه مقدّر أي لتبعثنّ (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ).

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فيمكن أن يقال: إنّ الملائكة القائمين بهذه الأُمور العظيمة لابدّ أن تكون لأعمالهم غاية، إذ لا يمكن أن تكون أعمالهم عبثاً وبلا هدف، وقد أُشير في الآيات إلى عملية النزع والنشط والسبح والسبق وتدبير الأُمور، فالغاية من القيام بهذه الأُمور العظيمة من نزع الأرواح وغيره، كأنّه مقدّمة لبعث الإنسان يوم القيامة، وإلاّ كانت أعمالهم بلا غاية.

العاشر: القسم في سورة التكوير

قد حلف سبحانه في سورة التكوير بالكواكب بحالاتها الثلاث، مضافاً إلى الليل المدبر، والصبح المتنفس، وقال: (فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم * ذِي قُوَّة عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين * مُطَاع ثَمَّ أَمِين).(التكوير:١٥ـ٢١)

الحلف الأوّل:(فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ) فالمجموع قسم واحد. وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذا القسم بعد تفسير «الخنّس» بالانقباض والكنّس بمعنى التراجع، ولعلّ المراد الكواكب الخمسة المعروفة ـ أعني: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد ـ وهي بالإضافة إلى الأرض ستة كواكب تدور حول الشمس، وهناك كواكب أُخرى تدور حولها أيضاً لا تُرى بالعين المجرّدة، أعني: أورانوس، وبلوتو، ونبتون.

إنّ نجوم السماء ـ ماوراء الخمسة ـ تظهر وتغيب بشكل جماعي من دون أن تتغيّر الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لآلئ صُبّت على لوحة كبيرة فتتحرك اللوحة وبتبعها تتحرّك النجوم من دون أن يحصل بينها اختلاف في المسافات.

وأمّا هذه الكواكب الخمسة فهي بين خنوس ـ أي انقباض ـ وكنوس ـ أي تراجع ـ ولعلّ المراد أنّها منقبضات حينما تتقارب فواصلها، ثم إنّها بالجري يبتعد بعضها عن بعض ثم ترجع إلى حالتها الأُولى، فهي بين الانقباض والابتعاد بالجري ثم الرجوع إلى حالتها الأُولى.

الثاني: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ): أي إذا أدبر بظلامه. وقد روي هذا المعنى عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.(التبيان في تفسير القرآن:١٠/٢٨٥)

الثالث:(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ): أي إذا أسفر وأضاء وامتدّ ضوءه حتى يصير نهاراً.

وأمّا الجواب فقوله سبحانه: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم) وعلى كلّ تقدير فالغرض من الإقسام بهذه الكواكب ـ مع ما لها من الصفات ـ

إثارة الفكر الإنساني إلى التطلّع في هذه السيارات ليتأمّل فيها ويطّلع فيها على الأسرار الكامنة، وبالتالي على قدرة البارئ عزّ وجلّ.

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فيمكن أن يقال: إنّ القرآن أمام المستعدّين للهداية كالصبح في إسفاره، فهو لهم نور وهداية، كما أنّ للمدبرين عنه، كالليل المظلم، وهو عليهم عمى، والله العالم.

الحادي عشر: القسم في سورة الانشقاق

قال سبحانه:(فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ *وَاللَّيلِ وَما وَسَقَ * وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق * فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذا قُرِئَ عَلَيهِمُ الْقُرآنُ لا يَسْجُدُون).(الانشقاق:١٦ ـ ٢١.)

أقسم سبحانه في هذه الآيات بالأُمور التالية:

١. الشفق.

٢. الليل.

٣. ما وسق.

٤. القمر في حالة الاتّساق.

وإليك تفسيرها:

١. (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ): فهو وإن كان بظاهره نفي القسم، ولكنّ المتفاهم منه في العرف هو الكناية عن القسم، فأقسم سبحانه بالحمرة التي تظهر في الأُفق الغربي عندما ترسل الشمس آخر خيوطها وهي تجنح للمغيب، إذ يُرتسم على الأُفق منظر رائق، بهيج الألوان، يروي ظمأ العيون للجمال، ويُلهم الشعراء المعاني العرفانية الغرّاء.

٢. (وَاللَّيلِ): أقسم سبحانه بالليل لأنّه ـ كالنهار ـ عماد الحياة، ولولا الليل لارتفعت حرارة الأرض بشروق الشمس الدائم على الكائنات الحيّة ولانعدمت الحياة فيها.

٣. (وَما وَسَقَ): أقسم سبحانه بما جمع، أي كأنّ ظلمة الليل هي السبب لعودة الإنسان إلى منزله، والحيوان إلى مربضه، والطير إلى وكره.

٤. (وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ): حلف سبحانه بالقمر عند اكتماله بالليالي الثلاث لما فيه من روعة وجمال.

فهذه أقسام أربعة بينها ترتيب طبيعي تقريباً، فقدّم الشفق على الليل مع أنه يظهر بعد مضيّ شيء قليل من الليل، لأنّ الشفق من نور الشمس عند استتارها تحت الأُفق، ولذلك قدّمه على الليل.

ثمّ يتلوهما القمر في حالة الاكتمال.

وأمّا المقسم عليه فهو ما أشار إليه بقوله تعالى:(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق).

وأمّا الجواب فهو (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق) وهو إشارة إلى المراحل التي يمرّ بها الإنسان في حياته وأوضحها هي الحياة الدنيوية، ثم الموت، ثم الحياة البرزخية، ثم الانتقال إلى الآخرة، ثم الحياة الأُخروية، ثم الحساب والجزاء.

أمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فيمكن أن يقال: إنّ القرآن يقسم بأُمور متتابعة الوقوع ذات تسلسل زماني خاص كما مرّ، فإذا كان المقسم به بهذا النحو، فالطبقات التي يركبها الإنسان، مثل المقسم به، مترتبة متتالية فيبدأ بالدنيا ثم إلى عالم البرزخ ومنه إلى يوم القيامة.

الثاني عشر: القسم في سورة البروج

قال سبحانه: (وَالسَّماءِ ذاتِ البُروجِ *وَاليَومِ المَوعُودِ *وشاهد وَمَشْهُود * قُتِلَ أَصحابُ الأُخدُودِ * النارِ ذاتِ الوَقُودِ *إِذْ هُمْ عَلَيْها

قُعُودٌ *وَهُمْ عَلَى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤمِنينَ شُهُودٌ * وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّه العَزيزِالحَميد).(البروج:١ ـ ٨.)

أقسم سبحانه في أوائل هذه السورة بأقسام أربعة ضمن الآيات الثلاث الأُولى، وذلك لبيان قصة أصحاب الأُخدود والتنبيه على ما فيها من الدروس والعبر.

١. (وَالسَّماءِ ذاتِ البُروج): البروج هو الأمر الظاهر ويستعمل في القصر العالي، ويُسمّى سور البلد للدفاع برجاً، وعلى ذلك فالمراد بالبروج هنا هو مواضع الكواكب من السماء، لقوله سبحانه: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)(الواقعة:٧٥.) ولكن الأظهر أنّ المراد نفس الكواكب بظهورها.

٢. (وَاليَومِ المَوعُودِ): وهو يوم القيامة الذي وعده سبحانه لعباده للقضاء بينهم.

٣. (وشاهد وَمَشْهُود): تضاربت أقوال المفسّرين في معنى شاهد ومشهود، ولو رجعنا إلى القرآن الكريم يتبيّن لنا مفاد الكلمتين.

أمّا الشاهد فقد وصف اللّه به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وقال:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)(الأحزاب:٤٥.).

وأمّا المشهود فالمراد به يوم القيامة لأنّه من صفاتها. قال سبحانه: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)(هود:١٠٣.) أي يشهده الخلائق كلّهم ويحضرون فيه من الملائكة والجن والإنس والأوّلين والآخرين، ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه. وقد مرّ الكلام فيه في تفسير الأقسام المفردة.

وأمّا جواب القسم فهو قوله: (قُتِلَ أَصحابُ الأُخدُودِ) الظاهر أنّه دعاء على أصحاب الأُخدود وإبراز غضب اللّه عليهم، فيكون قوله: (قُتِلَ أَصحابُ الأُخدُودِ) بمنزلة:«قاتلهم اللّه»، وعلى هذا يكون المراد: إنّ الذين عذّبوا المستضعفين من المؤمنين، لُعنوا بتحريقهم المؤمنين في الدنيا بلا جرم.

وهنا وجه آخر ذكرناه في تفسيرنا.(لاحظ: منية الطالبين في تفسير القرآن المبين:٣٠/٢٣٤.)

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فيمكن أن يوضح بوجهين:

١. يقصد سبحانه بهذه الآيات تثبيت قلوب المؤمنين وتصبيرهم على الأذى، خصوصاً إذا قلنا بأنّ الجواب محذوف وهو أنّ كفّار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأُخدود.

٢. أنّه سبحانه حلف بالسماء ذات البروج لبيان أنّه كما يدفع عن السماء كيد الشياطين، كما قال سبحانه: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)(الصافات:٦ـ٨.): أي يرمون بالشهب من كلّ جانب من جوانب السماء إذا أرادوا الصعود إلى السماء للاستماع، فكذلك يدفع عن المؤمنين كيد الكافرين. وهذا الوجه يبين وجه المناسبة للحلف بالسماء ذات البروج دون وجه الحلف بالباقي.

الثالث عشر: القسم في سورة الطارق

قال سبحانه: (وَالسَّماءِ وَالطّارِقِ *وَما أَدْراكَ مَا الطّارِقُ *النَّجْمُ الثاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْس لَمّا عَلَيْها حافِظ).(الطارق:١ـ ٤.)

أقسم سبحانه في بدء السورة بأمرين عظيمين، هما:

١. السماء.

٢. الطارق الظاهر بالليل.

فقوله:(وَالسَّماءِ): أي أحلف بالسماء (وَالطّارِقِ): أي وما يظهر فيها.

ثم قال: (وَما أَدْراكَ مَا الطّارِقُ) هذا النوع من الخطاب لبيان تعظيم الشيء، ثمّ رفع سبحانه الإبهام في الآية التالية وقال: (النَّجْمُ

(الثاقِبُ): أي الذي يخرج في ظلمات الليل ويضيء السماء.

والمراد به جنس النجم، أي مطلق النجم من غير تحديد، وخصّه بعضهم بزحل لقوة شعاعه، ويحتمل أن يراد به القمر لأنّه يطلع بالليل.

هنا تمّ الإقسام وأمّا الجواب فقوله: (إِنْ كُلُّ نَفْس لَمّا عَلَيْها حافِظ) .

وأمّا الصلة بين القسمين والجواب فيمكن أن يقال: إنّ المراد من قوله:(حافِظ) هو حفظ النفوس.

وبعبارة أُخرى: إنّ للنفوس رقيباً يحفظها ويدبّر شؤونها في جميع أطوار وجودها ويحفظ صور أعمالها، كما أنّ للسماء مدبّراً لشؤونها ـ بما تحتويه من أنظمة رائعة ومعقدّة ـ وحافظاً لها، فلكلّ حافظ.

الرابع عشر: القسم في سورة الفجر

قال سبحانه:(وَالْفَجْرِ * وَلَيال عَشْر * وَالشَّفعِ وَالْوَتْرِ * واللَّيلِ إِذا يَسْرِ * هَلْ في ذلِكَ قَسَمٌ لِذي حِجْر).(الفجر:١ـ ٥.)

ابتدأ سبحانه هذه السورة بأقسام خمسة:

الفجر، وليال عشر، والشفع، والوتر، والليل إذا يسر. وإليك تفسيرها:

١. (وَالْفَجْرِ): أي فجر الصبح، عبّر عن الصبح بالفجر الذي هو بمعنى الشقّ؛ لأنّ الصبح يشقّ الأُفق ويبدّد ظلام الليل شيئاً فشيئاً حتى تطلع الشمس.

٢. (وَلَيال عَشْر): التنكير في «ليال» للتفخيم، وقد ذكر المفسّرون وجوهاً واحتمالات أفضلها: بأنّ الليالي العشر هي: من أوّل ذي الحجّة إلى عاشرها. ولا يخفى ما للعشرة الأُولى من ذي الحجّة من الفضيلة ففيها ليلة التروية وليلة عرفة وليلة النحر، إذ كلّ منها يضفي على هذه الليالي ميزة وفضيلة.

ويحتمل أن يراد الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان، وفيها نزول القرآن وليلة القدر على وجه.

٣. (وَالشَّفعِ وَالْوَتْرِ): ذكر المفسّرون احتمالات كثيرة نذكر احتمالاً واحداً وهو:

الشفع: هو كلّ ما خلقه الله، قال سبحانه: (وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً)(النبأ:٨.).

والوتر هو الله تعالى، وكان اللازم على هذا القول أن يستدلّ صاحبه بآية أُخرى وهي:(وَمِنْ كُلِّ شَيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(الذاريات:٤٩.) فما سوى الله تبارك وتعالى شفع، والوتر الحقيقي هو الله.

وأمّا المقسم عليه فهو: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)(الفجر:١٤.).

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فهو أنّ من كان ذا لبّ، علم أنّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال عباده فلا يعزب عنه أحد ولا يفوته شيء من أعمالهم، لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم، خصوصاً إذا نظرنا إلى ما عاقب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوّة والمنعة.

الخامس عشر: القسم في سورة البلد

قال سبحانه: (لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ * ووالِد وَما وَلَدَ * لَقَدْخَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَد).(البلد:١ـ ٤.)

أقسم سبحانه في هذه السورة بالأُمور التالية:

١. (الْبَلَدِ)

٢. (ووالِد)

٣. (وَما وَلَدَ)

أمّا الأوّل: فأُريد بالبلد مكّة المكرّمة بشهادة قوله: (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ).

وأمّا الثاني: (وَوالِدٍ) فهل المراد بقرينة البلد هو إبراهيم(عليه السلام)، أو أنّ المراد كلّ والد إنساناً كان أم حيواناً؟

وأمّا الثالث: (وَما وَلَدَ) فلو قيل: إنّ المراد من (والِدٍ) هو إبراهيم يكون المراد من الثاني هو إسماعيل.

ولو قيل: كلّ والد يكون المراد كلّ مولود.

وأمّا جواب القسم فهو قوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَد): أي في نصب وشدّة.

وأمّا وجه الصلة فلأنّ حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياة إبراهيم وولده كانت مقرونة بالتعب، فكون نتيجة القسم بالأنبياء الثلاثة أنّهم من المصاديق الواضحة لخلق الإنسان في كبد.

السادس عشر: القسم في سورة الشمس

قال سبحانه: (وَالشَّمْسِ وَضُحاها * وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها * وَالنَّهارِ إِذا جَلاّها* وَاللَّيلِ إِذا يَغْشاها * وَالسَّماءِ وَما بَناها * وَالأَرْضِ وَما طَحاها * وَنَفْس وَما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْأَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها).(الشمس:١ـ١٠.)

أقسم سبحانه في هذه السورة بأحد عشر قسماً، وهي:

١. الإقسام بالشمس. ٢. الإقسام بضحى الشمس، ٣. الإقسام بالقمر. ٤. الإقسام بالنهار. ٥. الإقسام بالليل، ٦. الإقسام بالسماء، ٧. الإقسام بما بناه، ٨. الإقسام بالأرض، ٩. الإقسام بما طحاها، ١٠. الإقسام بالنفس، ١١. الإقسام بما سوّاها.

وقد تكرّر الموصول ثلاث مرّات وأُريد به الخالق فينزل عدد الأقسام إلى تسعة. وإليك بيان المقسم به:

١. (وَالشَّمْسِ): أقسم سبحانه بالشمس وهي النيّر الكبير الذي له دور في استقرار الحياة على الأرض وهي مصدر النور والحرارة.

٢. (وَضُحاها) حلف بضحى الشمس وهو انبساط نورها وضوئها، فإنّ لضوئها أثراً خاصاً في نشوء الحياة وبقائها والفتك بالأمراض وزوالها.

٣. (وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها): حلف بالقمر إذا تلا الشمس في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى الخامسة عشرة منه وقت امتلائه حتى يضيء الليل كلّه من غروب الشمس إلى الفجر.

٤. (وَالنَّهارِ إِذا جَلاّها): حلف سبحانه بالنهار إذا جلا الأرض وأظهرها، والضمير يرجع إلى الأرض المفهوم من سياق الآية.

٥. (وَاللَّيلِ إِذا يَغْشاها): حلف بالليل إذا غطّى الأرض وسترها في مقابل الشمس إذا جلا الأرض وأظهرها. وعلى ما ذكرنا فالضمير أيضاً في يغشاها يرجع إلى الأرض.

٦ و٧. (وَالسَّماءِ وَما بَناها): حلف بالسماء وبانيها، بناء على أنّ «ما» موصولة بقرينة ما يأتي في قوله:(وَنَفْس وَما سَوّاها). وفي ذكر السماء وبانيها إلماع إلى أنّه يمتنع أن يكون رهن الصدفة، بل لا يتحقّق إلاّ بصانع حكيم قد أحكم وضعها وأجاد بناءها، خصوصاً بناء الكواكب التي ترتبط أجزاؤها البعض بالبعض، ولولا هذا الترابط لما كان لها تماسك.

٨و٩. (وَالأَرْضِ وَما طَحاها): حلف بالأرض وطاحيها، والطحو كالدحو، وهو البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، والمعنى وسّعها.

١٠ و١١. (وَنَفْس وَما سَوّاها): والمراد من تسوية النفس إعطاؤها القوّة الكثيرة الظاهرة والباطنة. وعلى هذا فتسوية النفس هو تعديل قواها من الظاهرة والباطنة، ولو أُريد من النفس الروح والجسم فتسوية الجسم هو إيجاده بصورة متكاملة.

إلى هنا تمّ بيان الحلف بأحد عشر أمراً ظاهراً وبتسعة أشياء لبّاً، وهذه الآيات تشتمل على أكثر الأقسام الواردة في القرآن الكريم.

وأمّا المقسم عليه فهو قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها).

وأمّا الصلة بين الأقسام والجواب فهي واضحة، وهي أنّه سبحانه يذكر نعمه الهائلة في هذه الآيات التي لو فقد البشر واحداً منها

لتوقّفت عجلة الحياة عن السير نحو الأمام، فمقتضى إفاضة هذه النعم وإنارة الروح بإلهام (وتوضيح) الفجور والتقوى، هو المشي على درب الطاعة، وتزكية النفس دون الولوج في طريق الفجور وإخفاء الدسائس الشيطانية.

السابع عشر: القسم في سورة الليل

قال سبحانه: (وَاللَّيلِ إِذا يَغْشى * وَالنَّهارِ إِذا تَجَلّى * وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى).(الليل:١ـ ٤.)

أقسم سبحانه في هذه السورة بأقسام ثلاثة:

١. (وَاللَّيلِ إِذا يَغْشى): أي إذا غطّى، والظاهر أنّ المراد غشيانه النهار، لقوله سبحانه: (يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ)(الأعراف:٥٤.)، ومعناه أنّ الليل يُجلّل النهار كما أنّ النهار يغطي اللّيل، ولم يذكر هذا لكونه معلوماً من الكلام. والإغشاء هو إلباس الشيء ما رقّ بما يجلّله. وفي الحقيقة أنّ الليل يغطّي بظلامه نصف الكرة الأرضية الذي كان مُضاءً قبل غشيانه.

٢. (وَالنَّهارِ إِذا تَجَلّى): والمراد ظهور النهار على الأرض فيشق ظلام الليل ويغمر كلّ شيء بالنور.

٣. (وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثى): الظاهر أنّ «ما» موصولة والمراد هو الله سبحانه الذي خلق الذكر والأُنثى المختلفين.

وأمّا الجواب فهو قوله سبحانه: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى) فمن الناس من يسعى نحو الأهداف السامية، ومن الناس من يسيطر عليه إرضاء الشهوات والغرائز السافلة.

وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه وهي أنّه سبحانه أقسم بالمتفرّقات خلقاً وأثراً، على المساعي المتفرّقة في أنفسها وآثارها وقال: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى) فأين التقوى والتصديق من البخل والتكذيب.

الثامن عشر: القسم في سورة الضحى

قال سبحانه:(وَالضُّحى * وَاللَّيلِ إِذا سَجى).

أقسم سبحانه في هاتين الآيتين بشيئين:

١. أقسم بوقت الضحى.

٢. أقسم بالليل إذا سكن، وغطّى وجه الأرض وعمّت ظلمته جميع أنحاء البسيطة.

وأمّا ما هي الصلة بين المقسم به ـ أعني: (وَالضُّحى * وَاللَّيلِ إِذا سَجى) ـ وسبب نزول الآية(كان الوحي ينزل على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تدريجاً فاتّخذه المشركون ذريعة للشماتة.)، فالأولى أن يقال: إنّ القسم بالضحى يناسب نزول الوحي، كما أنّ القسَم بالليل يناسب نزول الوحي نجوماً، إذ فيه تثبيت لقلب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أنّ في الليل تثبيتاً لبقاء الحياة؛ وذلك لأنّه لو نزل الوحي جملة واحدة وأوصد بابه وانقطعت صلة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بعالم الغيب، لفقد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) النعمة الكبرى، وهي تثبيت قلبه الناشئ من الاتصال بالله، في فترة بعد فترة، وهذا بخلاف ما إذا كانت هناك صلة بين الأرض والسماء، فعندئذ يعيش النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في ظل إمدادات غيبية تزيل الصدأ العالق على قلبه من خلال مواجهة المشركين والكافرين.

وأمّا جواب القسم فهو قوله: (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى): أي ما تركك ربّك وما أبغضك، والآية تتضمّن ترويحاً لنفس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي الوقت نفسه إبطالاً لما أذاعه المشركون من أنّ ربّه تركه وقلاه، دون أن يستولي على النبي الظن بأنّ ربّه تركه وقلاه، وعندئذ فالغاية من الآية إبطال الإشاعة التي نشرها المشركون، ولا تدلّ على أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) استولت عليه تلك الفكرة.

وأمّا الصلة بين المقسم به وجوابه فيمكن أن يقال: إنّ نزول الوحي يناسب الضحى، وانقطاعه بمعنى نزوله نجوماً يناسب الليل، وهنا وجهان آخران ذكرناهما في كتابنا «الأقسام».(لاحظ: الأقسام في القرآن الكريم:١٧٦.)

التاسع عشر: القسم في سورة التين

قال سبحانه: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ * إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون).(التين:١ ـ ٦).

أقسم سبحانه في هذه السورة بأُمور أربعة:

١. التين، ٢. الزيتون، ٣. طور سينين، ٤. البلد الأمين.

أمّا الأوّلان فهما فاكهتان معروفتان، حلف بهما سبحانه لما فيهما من فوائد جمّة وخواص نافعة، فالتين فاكهة خالصة من شائبة التنغيص، وفيه أعظم عبرة لأنّه عزّ اسمه جعلها على مقدار اللقمة، وهيّأها على تلك الصورة إنعاماً على عباده بها، وهي تشتمل على منافع كثيرة.

وأمّا الزيتون فإنّه يعتصر منه الزيت الذي يدخل في أكثر الأطعمة، وهو إدام.

وبما ذكرنا عُلم وجه القسم بهما.

وأمّا الثالث ـ أعني: الحلف بطور سينين ـ فهو الجبل الذي كلّم الله فيه موسى وقال سبحانه:

(إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوى) (النازعات:١٦).

وأمّا الرابع ـ أعني: البلد الأمين ـ فأُريد به مكّة والشاهد عليه أمرُ نبيه أن يقول: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْء وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (النمل:٩١).

وأمّا جواب القسم للأُمور الأربعة وهو قوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ) فالمراد من خلق الإنسان في أحسن تقويم هو جودة خلقته واستقامة وجوده من صباه إلى شبابه إلى كماله فيتمتع بكمال الصورة وجمال الهيئة وشدّة القوّة، فلم يزل على تلك الحال حتى يواجه بالنزول أي رده إلى الهرم والشيخوخة فتأخذ قواه الظاهرة والباطنة بالضعف، وتنتكس خلقته، قال سبحانه: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ). (يس:٦٨). لكن هذا التفسير لا يناسبه الاستثناء الوارد بعده، قال سبحانه: (إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون): أي غير مقطوع.

نعم لو قلنا بأنّ المراد من التقويم هو القسم المعنوي والمراد من ردّه إلى أسفل سالفين هو انحطاطه إلى الشقاء والخسران، فعند ذلك يصحّ استثناء المؤمنين والعاملين للصالحات من الحكم السابق.

وعلى كلّ تقدير لو قلنا بأنّ المراد من التين والزيتون هو الفاكهتان المشتملتان على أنفع الأغذية للإنسان، فالصلة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة؛ لأنّ الإنسان مركّب من بدن وروح، فهاتان الفاكهتان تغذيان بدنه.

العشرون: القسم في سورة العاديات

قال سبحانه: (وَالعادِيات ضَبحاً * فَالمُورياتِ قَدحاً * فَالمُغيراتِ صُبحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود * وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهيد * وَإِنّهُ لِحبِّ الخَيْرِ لَشَديد). (العاديات:١ـ ٨).

أقسم سبحانه في هذه السورة بأُمور ثلاثة: ١. العاديات، ٢. الموريات، ٣. المغيرات.

أمّا الأوّل ـ أي العاديات ـ فهو من العدو أي الجري بسرعة، والضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها ـ ومعنى الآية: أُقسم بالخيل التي تعدو وتضبح ضبحاً.

وأمّا الثاني ـ أي الموريات ـ فالموريات من الإيراء وهو إخراج النار، والمراد الخيل التي تخرج النار بحوافرها حين ضربها الأحجار.

وأمّا الثالث ـ أي المغيرات ـ والإغارة بمعنى الهجوم على العدو بغتة بالخيل. والمعنى: أُقسم بالخيل المغيرة على العدو بغتة في وجه الصبح.

وجه القسم بهذه الأُمور الثلاثة هو تحقّقها حين الجهاد، فالله يحلف بالخيول التي تسرع إلى ميدان الجهاد بسرعة حتى تضبح ويتطاير الشرر من تحت حوافرها باستدامة ضرب الحافر للأحجار، وعند انجلاء الصبح تشنّ هجوماً شديداً يثير الغبار في كلّ جانب ثم تتوغل إلى قلب العدو وتشتّت صفوفه. وهذا يعرب بأنّ الجهاد له منزلة عظيمة إلى حد استحقّ أن يقسم الله بخيوله وبالشرر المتطاير من حوافرها وبالغبار الذي تثيره في الهواء.

وأمّا جواب القسم وهو قوله: (إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود) والكنود اسم للأرض التي لا تنبت، ويطلق على الإنسان الكافر والبخيل، فكأنّه جُبِلَ على نكران الحقّ وجحودِهِ وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له.

وأمّا وجه الصلة فقد اجتمعت طائفة لمباغتة المسلمين والهجوم على المدينة والإطاحة بالدولة الإسلامية الفتية.

ومن المعلوم أنّ هذه الطائفة التي يعبّر عنهم بالإنسان الكنود، لا تصلحهم إلاّ العاديات الموريات المغيرات التي تهاجم الأعداء كالصاعقة، وتفرّقهم وتجعل كيدهم في تضليل.

***

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ ما ذكرنا من وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، هو ممّا توصلنا إليه بالتدبّر في الآيات الشريفة، وإنّي في هذا المقام أترسّم قوله تعالى: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) (سبأ:٥٠).

المبحث العشرون الأمثال في القرآن الكريم

المثل في الاصطلاح غير المثل في القرآن الكريم.

المثل في مصطلح الناس قسم من الحِكَم يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثم يتناوله الناس في غير واحدة من الوقائع التي تشابهها دون أدنى تغيير، لما فيه من وجازة وغرابة ودقة في التصوير.

فالمثل السائر: «في الصيف ضيّعت اللبن» يضرب به في كلّ مورد ضيّع الشخص فيها الفرصة وأهدرها، كما أنّ قول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):«لا ينتطح فيها عنزان» عَلَمٌ لكلّ أمر ليس له شأن يعتدّ به.(مجمع الأمثال:٢/٢٢٥).

كما أنّ قول أبي عبد الله الحسين بن علي(عليهما السلام):«لو ترك القطا ليلاً لنام» الذي تمثّل به الإمام(عليه السلام) في جواب بنته سكينة (عليها السلام)، عَلَمٌ لكلّ مَن لا يُترك بحال، أو مَن حُمل على مكروه من غير إرادة، إلى غير ذلك من الأمثال الدارجة.

وأمّا المثل في القرآن الكريم وهو التمثيل الذي تعرّض إليه علماء البلاغة في علم البيان وهو قائم بأحد الأُمور الأربعة: التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز، وقد سمّاه القزويني في «تلخيص البيان» المجاز المركّب، فجميع ما ورد من الأمثال في القرآن فهو من قبيل التمثيل لا المثل المصطلح.

وقد ألّف غير واحد من العلماء كتباً ورسائل حول أمثال القرآن وربّما بلغ عدد المؤلّفات إلى أربعة عشر كتاباً ذكرناها في كتابنا: «الأمثال في القرآن الكريم».(لاحظ: الأمثال في القرآن الكريم:٢٧ـ٢٨.) ولعلّ هناك كتاباً أو رسالة لم نقف عليها، فالأولى صرف عنان القلم إلى بيان الأمثال الواردة في القرآن الكريم على وجه الإيجاز

١التمثيل الأوّل(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ.... (البقرة:١٤ـ١٨).

قال سبحانه: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ). البقرة:١٤ـ١٨.

افتتح سبحانه كلامه هنا بشرح حال طوائف ثلاث:

الأُولى: المؤمنون، واقتصر فيهم على آيتين.

الثانية: الكافرون، واقتصر فيهم على آية واحدة.

الثالثة:المنافقون، وذكر أحوالهم وسماتهم ضمن اثنتي عشرة آية.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ النفاق بؤرة الخطر، وأنّهم يشكّلون خطورة جسيمة على المجتمع الإسلامي، وقد مثّل بمثلين يوقفنا على طبيعة نواياهم الخبيثة وما يبطنون من الكفر.

مثلاً: نفترض أنّ أحداً ضلّ في البيداء وسط ظلام دامس، وأراد أن يقطع طريقه دون أن يتخبّط فيه، ولا يمكن أن يهتدي ـ والحال هذه ـ إلاّ بإيقاد النار ليمشي على ضوئها ونورها ويتجنّب المزالق الخطيرة، وما أن أوقد النار حتى باغتته ريح عاصف أطفأت ما أوقده، فعاد إلى حيرته الأُولى.

فحال المنافقين كحال هذا الرجل حيث إنّهم آمنوا في بادئ الأمر واستناروا بنور الإيمان ومشوا في ضوئه، لكنّهم ـ بعد ذلك ـ استبدلوا الإيمان بالكفر فعمّهم ظلام الكفر لا يهتدون سبيلاً.

وهذا التمثيل الذي برع القرآن الكريم في تصويره، يعكس حال المنافقين في عصر الرسالة، فالنار التي اهتدى بها المنافقون عبارة عن نور القرآن، وسنّة الرسول وسيرته، حيث كانوا يتشرّفون بحضرة الرسول ويستمعون إلى كلامه وحججه في بيانه ودلائله في إرشاده وتلاوته لكتاب الله، والريح التي أطفأت نارهم هي تمرّدهم على الله بنفاقهم، فخرجوا عن كونهم أهلاً للتوفيق والتسديد، فأوكلهم الله إلى أنفسهم الأمّارة بالسوء، وعمّتهم ظلمات الضلال بسوء اختيارهم فـ(ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ).

فعند ذلك ظهر معنى الآية (مَثَلُهُمْ): أي أحوالهم وأوصافهم في الإيمان والكفر (كَمَثَلِ): أي كأحوال (الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ): أي عادت الظلمة وأطفأ الله عليه النار (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ).

فإن قلت: إنّ قوله: (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ) يحتاج إلى جواب، فما هو جوابه؟

قلت:الجواب محذوف لأجل الوجازة، وهو كقوله: «خمدت».

فإن قلت: فعلى هذا فبم يتعلّق قوله: (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ)؟

قلت: هو كلام مستأنف راجع إلى بيان حال الممثَّل، وتقدير الكلام هكذا: فلمّا أضاءت ما حوله خمدت فبقوا متخبّطين في ظلام متحيّرين متحسّرين على فوات الضوء، خائبين بعد الكدح من إيقاد النار.

فحال المنافقين كحال هؤلاء، أشعلوا ناراً ليستضيئوا بنورها لكن (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ).

البقرة ٢ التمثيل الثاني أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي...) (البقرة:١٩ـ٢٠.)

قال سبحانه: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). البقرة:١٩ـ٢٠.

بيان التمثيل

نفترض أنّ قوماً يسيرون في الفلاة في أجواء يسودها الظلام الدامس، فإذا بصيّب من السماء يتساقط عليهم بغزارة، فيه رعود قاصفة وبروق لامعة تكاد تخطف الأبصار من شدّتها، وصواعق مخيفة، فتولاّهم الرعب والفزع والهلع ممّا حدا بهم إلى أن يجعلوا

أصابعهم في آذانهم خشية الموت للحيلولة دون سماع ذلك الصوت المخيف، فعندئذ وقفوا حيارى لا يدرون أين يولّون وجوههم، فإذا ببصيص من البرق أضاء لهم الطريق فمشوا فيه هنيئة، فلمّا استتر ضوء البرق أحاطت بهم الظلمة مرّة أُخرى وتوقّفوا عن المشي.

ونستخلص من هذا المشهد أنّ الهول والرعب والفزع والحيرة قد استولى على هؤلاء القوم لا يدرون ماذا يفعلون، وهذه الحالة برمّتها تصدق على المنافقين.

وبما أنّ التمثيل كما ذكره الزمخشري من قبيل التمثيلات المركّبة دون المفرّقة فلنفسر التمثيل في مقاطع ثلاثة:

الأوّل:إحاطة الرعب والهلع بالمنافقين إثر انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ودخول القبائل فيه وتنامي شوكته، ممّا أوجد رعباً في قلوبهم وفزعاً في نفوسهم المضطربة، ويجدون ذلك بلاءً أحاط بهم كالقوم الذين يصيبهم الصيّب من السماء فيه ظلمات و رعد وبرق، وإليه أشار قوله سبحانه: (أَوْ كَصَيِّب مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ).

الثاني:أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا كان يخبرهم عن المستقبل المظلم للكافرين والمدبرين عن الإسلام والإيمان ـ خصوصاً بعد الموت ـ صار ذلك كالصاعقة النازلة على رؤوسهم، فكانوا يهربون من سماع آيات الله ويحذرون من صواعق براهينه الساطعة، مع أنّ هذا هو منتهى الحماقة، لأنّ صمّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (يَجْعَلُون أَصابعهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ وَاللّهُ مُحِيطٌ بِالكافِرِين) .

الثالث:كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعوهم إلى أصل الدين ويتلو عليهم الآيات البيّنة ويقيم لهم الحجج القيّمة، فعندئذ يظهر لهم الحقّ، فربّما كانوا يعزمون على اتّباعه والسير وراء أفكاره، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما يعودون إلى تقليد الآباء، وظلمة الشهوات والشبهات، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (يَكادُ الْبَرقُ يَخْطَفُ أَبْصارهُمْ كُلّما أَضاءَ لَهُمْ مَشوا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) .

إلى هنا تمّ التطبيق المركّب لكن في مقاطع ثلاثة.

ثمّ إنّه سبحانه أعقب التمثيل بقوله: (وَلَو شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِم إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيء قَدير):أي أنّه سبحانه قادر أن يجعلهم صمّاً وعمياً حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تجدي هداية هاد.

وذهاب سمعهم وأبصارهم نتيجة أعمالهم الطالحة التي توصد باب التوفيق أمامهم فيصيرون صمّاً وبكماً وعميّاً.

البقرة٣التمثيل الثالث(إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا....) (البقرة:٢٦.)

قال سبحانه:(إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ).(البقرة:٢٦.)

إنّه سبحانه لمّا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت تكلّم فيه قوم من المشركين وعابوا ذكره، فأنزل الله هذه الآية.(مجمع البيان:١/١٢٩.)

قوله: (يَسْتَحْيِي) من الحياء الذي يصدّ الإنسان عن إبراز ما يضمره من الكلام، والله سبحانه ينفي هذا المعنى عن نفسه.

قوله: (يَضْرِبَ مَثَلاً): أي يصف حال المشبّه عن طريق حال المشبّه به. و«البعوضة» حيوان ضعيف يشبه خرطومه خرطوم الفيل، وهو أجوف، وله قوة ماصّة تسحب الدم.

قوله: (فَمَا فَوْقَهَا): أي فما فوقها في الضعف. يقال بأنّ فلاناً يقترف جريمة لأجل دينار بل فوقه أي نصف دينار، فالمراد من الفوقية هو الفوقية في الضعف والحقارة. فلمّا كان الملاك في ضرب الأمثال كونه مفيداً فلا فرق بين صغير الأشياء وكبيرها.

وعلى كلّ تقدير فالآية بصدد بيان أنّ الملاك في صحّة التمثيل ليس صغر ما مثّل به أو كبره، فلا التمثيل بالبعوضة عيب ولا التمثيل

بالإبل والفيل كمال، وإنّما الكمال أن يكون المثل مبيّناً لحقيقة وواقعة غفل عنها المخاطب، من دون فرق بين كون المثل صغيراً أو كبيراً.

وأمّا قوله سبحانه في ذيل الآية: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ) فواضح إذ ليس إضلال الله سبحانه هؤلاء إلاّ لفسقهم كما يقول: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ) وليس هذا أمراً بعيداً لأنّ المواعظ الشافية لها تأثير معاكس في العقول المنتكسة، فالقلوب المستعدّة تتأثّر منها إيجابياً، والمنتكسة منها تتأثّر سلبياً.

البقرة٤التمثيل الرابع(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ....) (البقرة:٧٤.)

قال سبحانه:(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).(البقرة:٧٤.)

لمّا كان اللازم على بني إسرائيل بعد ما رأوا الآية العظيمة من إحياء الموتى بذبح البقرة، أن تلين قلوبهم، إلاّ أنّهم صاروا على خلاف ذلك، فجاء التمثيل ليبيّن قسوة قلوبهم وأنّها أشدّ من الحجارة، بشهادة أنّ الحجارة تتفجّر منها الأنهار و تشقّق فيخرج منها الماء، وأنّ منها لما يهبط من خشية الله؛ بخلاف هؤلاء فهم أصلب من الحجارة .

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله: (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

البقرة٥التمثيل الخامس(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ...).(البقرة:١٧١.)

قال سبحانه:(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ).(البقرة:١٧١.)

النعيق: صوت الراعي لغنمه زجراً. والنداء: أخصّ من الدعاء، ففيه الجهر بالصوت ونحوه بخلاف الدعاء.

وقد قيل في تفسير الآية وجهان أفضلهما ما يأتي:

يشبّه حال النبي بالراعي العالي صوته، كما يشبّه المشركين الذين لا يتدبّرون في كلامه بالأغنام التي تسمع كلام الراعي ولا تتدبّر فيه، فعلى هذا فالمشبّه متعدّد كما أنّ المشبّه به كذلك، ووجه الشبه عدم التعقّل.

أقول: هذا الوجه قريب بالنسبة إلى سياق قوله سبحانه: (بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ)(البقرة:١٧٠.) ولكن لمّا كان ظاهر الآية هو تشبيه الكافرين بالراعي الناعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء لا تشبيه النبي بالراعي الناعق، فلابدّ في تطبيق الآية على هذا الوجه من تقدير في موضعين بأن يقال: (وَمَثَلُ) داعي (الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ) الراعي (الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ).

البقرة٦التمثيل السادس(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ.....) (البقرة:٢١٤.)

قال سبحانه: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).(البقرة:٢١٤.)

يقول سبحانه: إنّ الابتلاء بالبأساء والضراء سنّة إلهية جارية في الأمم كافّة ولا تختصّ بالأُمّة الإسلامية، فالتمحيص وتمييز المؤمن الصابر عن غير الصابر رهن الابتلاء. فلا يتمحّض إيمان المسلم إلاّ إذا غربل بغربلة الامتحان ليخرج نقيّاً، ولا يترسّخ الإيمان في قلبه إلاّ من خلال الصمود والثبات أمام أعاصير الفتن الهوجاء.

وكأنّ الآية تسلية لنبيه وأصحابه ممّا نالهم من المشركين وأمثالهم، لأنّ سماع أخبار الأُمم الماضية يسهّل الخطب عليهم، وأنّ البلية لا تختصّ بهم بل تعمّ غيرهم أيضاً، ولذلك يقول: (أَمْ حَسِبْتُمْ): أي أظننتم وخلتم أيّها المؤمنون (أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ): أي أن تدخلوا الجنة ولما تبتلوا وتمتحنوا بمثل ما ابتليت به الأُمم السالفة وامتحُنوا به. فعليكم بالصبر

والثبات كما صبر هؤلاء وثبتوا.

وعلى ضوء هذا فالمثل بمعنى الوصف ـ وقد تقدم منّا القول ـ بأنّ من معاني المثل هو الوصف. فقوله: (وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ): أي «لمّا يأتكم وصف الذين خلوا من قبلكم» فلا يدخلون حظيرة الإيمان الكامل إلاّ أن يكون لهم وصف مثل وصف الذين واجهوا المصائب والفتن بصبر وثبات وعانوا الكثير من القلق والاضطراب، كما قال تعالى في حقّ المؤمنين:(وَزلزلوا زِلزالاً شَديداً) ففي خِضمّ هذه الفتنة التي تنفد فيها طاقات البشر، فإذا بالرحمة تنزل عليهم من خلال دعاء الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وصالح المؤمنين.

كما قال سبحانه: (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ) والجملة ليست إلاّ طلب الدعاء للنصر الذي وعد الله به رسله والمؤمنين بهم واستدعاءً له، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُون)(الصافات:١٧١ـ١٧٢) ، وقال تعالى: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي).(المجادلة:٢١)

ثمّ إنّه سبحانه يعد المؤمنين بقوله: (أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).

البقرة٧التمثيل السابع:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ....) (البقرة:٢٦١)

قال سبحانه:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَة مِائَةُ حَبَّة وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).(البقرة:٢٦١)

وعد الله سبحانه في غير واحدة من الآيات بالجزاء المضاعف، قال سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).(البقرة:٢٤٥)

هذه إشارة إلى أنّ الأعمال الصالحة يمليها الله عزّ وجلّ لأصحابها كما يملي لمن بذر في الأرض الطيبة.

وظاهر الآية أنّ المشبّه هو المنفق، والمشبّه به هو الحبة المتبدّلة إلى سبعمائة حبّة، ولكن التنزيل في الواقع بين أحد أمرين:

أ. تشبيه المنفق بزارع الحبة.

ب. تشبيه الإنفاق بالحبّة المزروعة.

ففي الآية أحد التقديرين.

ثمّ إنّ ما ذكره القرآن من التمثيل ليس أمراً وهمياً وفرضاً خيالياً، بل هو أمر ممكن واقع، بل ربّما يتجاوز هذا العدد، فقد حكى لي بعض الزرّاع أنّه جنى من ساق واحدة ذات سنابل متعدّدة تسعمائة حبة، ولا غرو في ذلك فإنّه سبحانه هو القابض والباسط.

البقرة٨التمثيل الثامن(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ....) (البقرة:٢٦٤)

قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَان عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْء مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).(البقرة:٢٦٤)

إنّه سبحانه شبّه أصحاب المنّ والأذى بالمرائي الذي لا يبتغي بعمله مرضاة الله تعالى، ولا يقصد به وجه الله غير أنّ المانّ والمؤذي يقصد بعمله مرضاة الله ثم يتبعها بما يبطله بالمعنى الذي عرفت، والمرائي لا يقصد بأعماله وجه الله سبحانه فيقع عمله باطلاً من رأس، ولذلك صحّ تشبيههما بالمرائي مثل تشبيه الضعيف بالقوي.

وأمّا حقيقة التمثيل فتوضيحها بالبيان التالي:

نفترض أرضاً صفواناً ملساء عليها تراب ضئيل يخيل لأوّل وهلة أنّها أرض نافعة صالحة للنبات، فأصابها مطر غزير جرف التراب

عنها فتركها صلدةً صلبة ملساء لا تصلح لشيء من الزرع، كما قال سبحانه:(كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا).

فعمل المرائي له ظاهر جميل وباطن رديء، فالإنسان غير العارف بحقيقة نيّة العامل يتخيّل أنّ عمله منتج، كما يتصوّر الإنسان الحجر الأملس الذي عليه تراب قليل أنّه صالح للنبات، فعندما أصابه مطر غزير شديد الوقع ونفض التراب عن وجه الحجر تبيّن أنّه حجر أملس لا يصلح للزراعة، فهكذا عمل المرائي إذا انكشفت الوقائع ورفعت الأستار تبيّن أنّ عمله رديء عقيم غير ناتج.

ثمّ إنّ عمل المانّ والمؤذي بعد الإنفاق أشبه بعمل المرائي.

البقرة٩التمثيل التاسع(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغاءَ مَرضَاتِ اللّه وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنة....) (البقرة:٢٦٥.)

قال سبحانه:(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغاءَ مَرضَاتِ اللّه وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنة بِرَبْوَة أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَين فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).(البقرة:٢٦٥.)

وقبل الدخول في تفسير الآية وبيان ما فيها من تمثيل، نوضح معاني عدد من مفرداتها:

«الربوة» : هي التل المرتفع .

و«الطلّ»: المطر الخفيف، يقال: أطلت السماء فهي مطلة. وروضة طلّة: ندية.

شبّه سبحانه في التمثيل السابق عمل المانّ والمؤذي بعد الإنفاق، والمرائي بعمله، بالأرض الصلبة التي عليها تراب يصيبها مطر غزير يكتسح التراب فلا يظهر إلاّ سطح الحجر لخشونته وصلابته، على عكس التمثيل في هذه الآية حيث إنّها تشبّه عمل المنفق لمرضاة اللّه تبارك وتعالى بجنة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل النسيم الطلق و المطر الكثير النافع، وقيد المشبّه به ببستان مرتفع عن الأرض، لأنّ تأثير الشمس والهواء فيه أكمل فيكون أحسن منظراً وأذكى ثمراً، أمّا الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلاّ قليلاً فلا تكون كذلك .

وعلى كلّ حال فهذا النوع من الأرض إن أصابها وابل أتت أُكلها ضعفين فكان ثمرها مثلي ما كانت تثمر في العادة، وإن لم يصبها وابل بل أصابها الطل تعطي أُكلها حسب مايترقّب منها.

فالذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه أشبه بتلك الجنة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

ثمّ إنّ قوله سبحانه: (ابْتِغاءَ مَرضَاتِ اللّه وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ) بيان لدوافع الإنفاق وحواجزه وهو ابتغاء مرضاة اللّه أولاً، وتقوية روح الإيمان في القلب ثانياً، ولعلّ السرّ في دخول (مِنْ) على (أَنفُسِهِمْ)

مع كونه مفعولاً لقوله (تَثْبِيتاً) لبيان أنّ هذا المنفق ينفق من نفس قد روّضها وثبّتها في الجملة على الطاعة حتى سمحت للّه بالمال الغزير فهو يجعل من مقاصده في الإنفاق، تثبيتها على طاعة اللّه وابتغاء مرضاته في المستقبل.

البقرة١٠التمثيل العاشر(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ....) (البقرة:٢٦٦.)

قال سبحانه:(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون).(البقرة:٢٦٦.)

التمثيل مركّب من مشبّه ومشبّه به.

أمّا المشبّه فهو عبارة عمّن يعمل عملاً صالحاً ثم يردفه بالسيئة، ولعلّ المراد إتباع عمله بالمنّ والأذى.

وأمّا المشبّه به فهو عبارة عن رجل طاعن في السن لحقته الشيخوخة وله أولاد صغار غير قادرين على العمل وله جنّة محفوفة بالنخيل والأعناب تجري من تحتها الأنهار وله من كلّ الثمرات، وقد عقد على تلك الجنّة آمالاً كبيرة، وفجأة هبّت عاصفة محرقة

فأحرقتها وأبادتها عن بكرة أبيها، فكيف يكون حال هذا الرجل في الحزن والحسرة والخيبة والحرمان بعد ما تلاشت آماله؟! فالمنفق في سبيل الله الذي هيّأ لنفسه أجراً وثواباً أُخروياً عقد به آماله، فإذا تبع عمله بالمعاصي، فيكون قد سلّط على أعماله الحسنة تلك الأعاصير المحرقة التي تبيد كلّ ما عقد عليه من آمال.

البقرة١١التمثيل الحادي عشر(الّذينَ يَأْكُلونَ الرّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطان. .) (البقرة:٢٧٥.)

قال سبحانه:(الّذينَ يَأْكُلونَ الرّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسّ ذلِكَ بأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبوا وَأَحَلَّ اللّه البيعَ وَحَرَّمَ الرِّبوا فَمَنْ جاءَهُ مَوعِظَةٌ مِنْ رَبّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّه وَمَنْ عَادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ).(البقرة:٢٧٥.)

حاصل الآية: أنّ آكل الربا لا يقوم إلاّ كقيام مَن يتخبّطه الشيطان فيصرعه، فكما أنّ قيامه على غير استواء فهكذا آكل الربا.

فالتشبيه وقع بين قيام آكل الربا وقيام المصروع من خبط الشيطان، فيطرح هنا سؤالان:

١. ما هو المراد من أنّ آكل الربا لا يقوم إلاّ كقيام المصروع؟

٢. ما هو المراد من كون الصرع من مسّ الشيطان؟

أمّا الأوّل: فقد اختلفت فيه كلمة المفسّرين، والذي ورد في الرواية أنّ المراد قيامه يوم القيامة قيام المتخبّطين، فكأنّ آكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً، وذلك كالعلامة المخصوصة بآكلي الربا، فيعرفه أهل الموقف أنّه آكل الربا في الدنيا.

وربّما يقال: إنّ الناس إذا بعثوا من قبورهم خرجوا مسرعين لقوله سبحانه: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا)(المعارج:٤٣.) إلاّ أكلة الربا فإنّهم يقومون ويسقطون. والله العالم.

وأمّا الثاني: وهو كون الجنون معلولاً لوطأة الشيطان مع أنّ العلم الحديث لا يصدّقه.

فنقول: إنّ العلم له حقّ الإثبات وليس له حقّ السلب، فالعلم وإن كشف أنّ الصرع نتيجة وجود اختلالات في الجهاز العصبي، وأمّا أنّه ليس بعد ذلك من علّة أُخرى، فليس للعلم سلب ذلك؛ لأنّ أدواته قاصرة عن إفادة ذلك، فهو يعتمد على التجربة، والتجربة لا تنتج إلاّ في الأُمور المحسوسة أو ما هو قريب منها، وأمّا عوالم المجرّدات كالأرواح والشياطين، فهي لم تنكشف أسرارها لنا حتى تؤكّد على عدم تأثيرها في الصرع وغيره.

***

تمّت الأمثال الأحد عشر الواردة في سورة البقرة.

آل عمران ١التمثيل الثاني عشر(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ ...) (آل عمران:٥٩ـ٦٠.)

قال سبحانه:(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الحقّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).(آل عمران:٥٩ـ٦٠.)

كانت النصارى تتبنّى أُلوهية المسيح وأنّه يؤلّف أحد أضلاع مثلث الإلهية: الرب، والابن، وروح القدس. وكانوا يحتجّون بذلك بأنّه ولد من مريم بلا أب، فهو ابن الله.

ولمّا احتجّوا بهذا الدليل أمام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وافاه الوحي مجيباً عن استدلالهم بأنّ كيفية خلق المسيح تضاهي كيفية خلق آدم، حيث إنّ آدم خلق من تراب بلا أب وأُمّ، فإذا كان هذا أمراً ممكناً، فمثله المسيح حيث ولد من أُمّ بلا أب فهو أهون بالإمكان.

آل عمران ٢ التمثيل الثالث عشر (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ...) (آل عمران:١١٦ـ ١١٧.)

قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).(آل عمران:١١٦ـ ١١٧.)

الصرّ: الريح الباردة. والمراد من (حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) الذين زرعوا في غير موضع الزراعة أو في غير وقتها، فهبّت عليه العواصف فذهب أدراج الرياح، إذ لا شكّ أنّ للزمان والمكان تأثيراً بالغاً في نمو الزرع، فالنسيم الهادئ الذي يهبّ على الزرع ويلامسه، والأرض الخصبة كلّها عوامل تزيد من طراوة الزرع ونضارته.

هذا هو المشبّه به، فالكافر إذا أنفق ماله في هذه الحياة الدنيا بغية الانتفاع به، فهو كمن زرع في غير موضعه أو زمانه، فلا ينتفع من إنفاقه شيئاً، فإنّ الكفر وما يتبعه من الهوى يبيد إنفاقه، ولذلك قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا).

الأنعام ١ التمثيل الرابع عشر (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ...) (الأنعام:١٢٢.)

قال سبحانه: (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).(الأنعام:١٢٢.)

الآية تشتمل على تشبيهين:

الأوّل: تشبيه المؤمن بالميّت المحيا الذي معه نور.

الثاني: تشبيه الكافر الفاقد للنور بالباقي في الظلمات.

والغرض أنّ المؤمن من قبيل التشبيه الأوّل دون الثاني.

أمّا التشبيه الأوّل فأُشير إليه بقوله: (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ).

وأمّا التشبيه الثاني: (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

وحاصل الآية: أنّ مثل مَن هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميّز به بين المحقّ والمبطل والمهتدي والضال، مثل مَن كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به، فيميز بعضه من بعض.

هذا هو مثل المؤمن، ولا يصحّ قياس المؤمن بالكافر، المتخبّط في ظلمات الكفر كالمتحيّر الذي لا يهتدي إلى سبيل الرشاد.

الأعراف ١ التمثيل الخامس عشر (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى....) (الأعراف:٥٧ـ٥٨.)

قال سبحانه: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ).(الأعراف:٥٧ـ٥٨.)

«أقلّت» من الإقلال وهو حمل الشيء بأسره. «النكد» العسر الممتنع من إعطاء الخير. «البلد الطيّب»: ما يخرج زرعها نامياً زاكياً، و«البلد الخبيث» هي الأرض السبخة التي خبث ترابها.

وحاصل التشبيه: أنّه سبحانه ذكر في الآية الأُولى بأنّه يرسل الرياح مبشرة برحمته، فإذا حملت سحاباً ثقالاً بالماء ساقه سبحانه إلى بلد ميّت فتحيا به الأرض وتؤتي ثمراتها.

وعاد سبحانه في الآية الثانية إلى القول بأنّ هطول المطر وسقي الأرض جزء ممّا يتوقّف عليه خروج النبات، وهناك شرط آخر وهو

أن تكون الأرض خصبة صالحة للزراعة دونما إذا كانت خبيثة، هذا هو حال المشبّه به.

وأمّا المشبّه فهو أنّه سبحانه يشبّه المؤمن بأرض طيبة تلين بالمطر ويحسن نباتها ويكثر ريعها، كما يشبه قلب الكافر بالأرض السبخة لا تنبت شيئاً، فقلب المؤمن كالأرض الطيبة وقلب الكافر كالأرض السبخة.

الأعراف٢التمثيل السادس عشر(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطان.) (الأعراف:١٧٥ـ١٧٧.)

قال سبحانه:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوِين* وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذلِكَ مَثَلُ الْقَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ* ساءَ مَثَلاً الْقَومُ الّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُون).(الأعراف:١٧٥ـ١٧٧.)

«النبأ»: الخبر عن الأمر العظيم. «السلخ»: النزع. (أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ): لصق بها. «اللهث»: أن يدلع الكلب لسانه من العطش.

المعروف أنّ مورد الآية الأُولى هو بلعم بن باعور الذي كان عالماً من علماء بني إسرائيل، والرجل بلغ مكاناً شامخاً في العلم والدراية ولكن سقط في الهاوية.

إلى هنا تمّ تفسير الآية الأُولى وأمّا الآية الثانية ـ أعني قوله: (وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها...) ـ يراد أنّه سبحانه لو شاء لرفعه بتلك الآيات ولكنّه ما شاء، لفقدان الأرضية الصالحة، لأنّه أخلد إلى الأرض ولصق بها، وكأنّها كناية عن الميل والنزوع إلى التمتع بالملاذ الدنيوية، ومعه كيف تشمله العناية الربّانية. فكأنّ الضلالة والغواية صارت سجية وطبيعة له كما أنّ اللهث أثر طبيعي للكلب فلا يمكن أن يخلّص نفسه منها كما قال: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث).

إلى هنا تمّ حال المشبّه به وأمّا المشبه فقد اختلفت كلمة المفسّرين في شخصه فقيل المراد: أُمية بن أبي الصلت الثقفي، وربّما قيل: المراد أبو عامر الراهب، والظاهر أنّ المشبه ليس خصوص هذين الرجلين؛ بل كما قال الإمام الباقر(عليه السلام):«الأصل في ذلك بلعم، ثم ضربه الله مثلاً لكلّ مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة».(مجمع البيان:٢/٥٠٠.)

التوبة١التمثيل السابع عشر(وَالّذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنينَ و...) (التوبة:١٠٧ـ ١٠٩.)

قال سبحانه:(وَالّذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنينَ وإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاّ الحُسْنى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقوى مِنْ أَوّلِ يوم أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرين* أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوى مِنَ اللّهِ وَرِضْوان خَيرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفَا جُرُف هار فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لا يَهْدي القَومَ الظّالِمِين).(التوبة:١٠٧ـ ١٠٩.)

«الضرار»: إيجاد الضرر عن عناد.

«البنيان»: مصدر بنى.

«شفا»: شفا البئر وغيره، ويضرب به المثل في القُرب من الهلاك.

«الجرف»: جرف الوادي: جانبه. قال الراغب: يقال للمكان الذي يأخذه السيل فيجرفه، أي يذهب به.

«هار»: هار البناء: سقط.

الآية وردت في المسجد الذي بناه المنافقون قرب مسجد «قبا» ليكون مركزاً لأبي عامر الذي كفر بعد أن أسلم وهرب إلى مكة.

فالآية تأمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ألاّ يقوم في هذا المسجد الذي بناه المخالفون، بل يقوم في المسجد الذي بني على التقوى.

إلى هنا تمّ تفسير الآيتين بقي تفسير الآية الثالثة التي هي مصبّ التمثيل فنقول: إنّ الآية تشير إلى الفرق الشاسع بين مَن بنى بنياناً على أساس محكم ومَن بناه على شفا جرف، فالأوّل يبقى عبر العصور ويحتفظ بكيانه في الحوادث المدمرة، بخلاف الثاني فإنه

سوف ينهار لا محالة بأدنى ضربة.

فالمؤمن هو الذي يعقد إيمانه على قاعدة محكمة وهو الحقّ الذي هو تقوى الله ورضوانه، بخلاف المنافق فإنّه يبني إيمانه على أضعف القواعد وأرخاها وأقلّها بناء وهو الباطل، فإيمان المؤمن ودينه من مصاديق قوله:(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوان) ولكن دين المنافق كمن (أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفَا جُرُف هار) فلا محالة ينهار به في نار جهنم.

يونس١التمثيل الثامن عشر(إِنَّما مَثَلُ الحَياة الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ....) (يونس:٢٤ـ ٢٥.)

قال سبحانه: (إِنَّما مَثَلُ الحَياة الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ والأَنْعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوم يَتَفَكَّرُون* واللّهُ يَدعُو إِلى دارِالسَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراط مُسْتَقِيم).(يونس:٢٤ـ ٢٥.)

الله سبحانه يشبّه الدنيا بالأمر التالي: مثلاً نفترض أرضاً خصبة رابية صالحة لغرس الأشجار وزرع النبات وقد قام صاحبها باستثمارها من خلال غرس كلّ ما ينبت فيها، فلم يزل يتعاهدها بالماء والرعاية، فغدت روضة غنّاء مكتظة بأشجار ونباتات متنوّعة، وصارت الأرض كأنّها عروس تزيّنت وتبرّجت، وأهلها مزهوّون بها يظنّون أنّها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزيّنت، وأنّهم أصحاب الأمر لا ينازعهم فيها منازع. فيعقدون عليها آمالاً طويلة، ولكن في خضمّ هذه المراودات يباغتهم أمره سبحانه ليلاً أو نهاراً فيجعل الطري يابساً، كأنّه لم تكن هناك أي جنة ولا روضة.

هذا هو المشبّه به والله سبحانه يمثل الدنيا بهذا المثل، وهو أنّ الإنسان ربّما يغتر بالدنيا ويعوّل على الكثير من الآمال والأماني مع سرعة زوالها وفنائها، وعدم ثباتها واستقرارها.

يقول مؤيد الدين الاصفهاني المعروف بالطغرائي في لاميّته المعروفة بلاميّة العجم:

ترجو البقاء بدار لاثبات لها *** فهل سمعتَ بظلِّ غير منتقل

هود١التمثيل التاسع عشر(إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبّهِمْ أُولئِكَ......) (هود:٢٣ـ ٢٤.)

قال سبحانه:(إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُون* مَثَلُ الفَرِيقَينِ كَالأَعْمى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُون).(هود:٢٣ـ ٢٤.)

إنّه سبحانه وصف الكافر والمؤمن بالتمثيل الآتي، وقال:

(مَثَلُ الفَرِيقَين كَالأَعْمى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُون).

أي مثل فريق المسلمين كالبصير والسميع، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأنّ المؤمن ينتفع بحواسّه بإعمالها في معرفة المنعم وصفاته وأفعاله، والكافر لا ينتفع بها فصارت بمنزلة المعدومة.

ثمّ إنّه قارن بين الأعمى والأصم كما قارن بين البصير والسميع، وذلك لإفادة تعدّد التشبيه بمعنى:

إن حال الكافر كحال الأعمى.

وحال الكافر أيضاً كحال الأصم.

كما أنّ حال المؤمن كالبصير.

وحاله أيضاً كالسميع.

وحاصل الكلام: أنّه لا يستوي البصير والسميع مع الأعمى والأصم، والمؤمن والكافر أيضاً لا يستويان.

الرعد١التمثيل العشرون(لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء.....) (الرعد:١٤.)
قال سبحانه: (لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء إِلاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَمَا دُعاءُ الكافِرينَ إِلاّ فِي ضَلال).(الرعد:١٤.) المثل يبيّن حال المشركين الذين يدعون الأصنام والأوثان لغاية قضاء حوائجهم، فالله سبحانه يشبّه دعوتهم برجل بسط كفّيه إلى الماء من مكان بعيد ليتناوله ويسكّن به غلّته، وذلك الماء لا يبلغ فاه لبعد المسافة بينهما، فكذلك ما كان يعبده المشركون من الأصنام لا يصل نفعه إليهم ولا يستجيب دعاءهم.(مجمع البيان:٣/٢٨٤.)
الرعد٢التمثيل الحادي والعشرون(أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً.....) (الرعد:١٧.)
قال سبحانه: (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النارِ ابْتِغاءَ حِلْيَة أَوْ مَتاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحقَ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا مَا يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثالَ).(الرعد:١٧.) الآية من غرر الآيات القرآنية التي تبحث عن طبيعة الحقّ والباطل وتكونهما وكيفية ظهورهما والآثار المترتّبة عليهما، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا:«الأمثال في القرآن الكريم». إنّ الآية تمثّل للحقّ والباطل مثلاً واحداً تستبطن منه تمثيلات متعدّدة: الأوّل: أنّ السيل المتدفّق من أعالي الجبال الجاري في الوديان يحمل معه في سيره زبداً رابياً عليه، فالحقّ كماء السيل، والباطل الزبد الطافح عليه. الثاني: أنّ المعادن والفلزات المذابة في القدر إذا أوقدت عليها النار، تذوب ويبقى الخبث، فالغاية من الإذابة هو فصل المعادن والفلزات النفيسة عن خبثها وزبدها. وعندئذ فالحقّ كالذهب والفضة والمعادن النفيسة، والباطل كخبثها وزبدها الطافح. الثالث: أنّ ما له دوام وبقاء ومكث وينتفع به الناس كالماء وما يتّخذ للحلية أو المتاع، يمثّل الحق، وما ليس كذلك كزبد السيل، وخبث القدر الذي يذهب جفاءً، يمثّل الباطل.
إبراهيم١التمثيل الثاني والعشرون(مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في.....) (إبراهيم:١٨.)
قال سبحانه: (مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْم عَاصِف لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلَى شَيْء ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ).(إبراهيم:١٨.) إنّه سبحانه يشبّه عمل الكافرين في عدم الانتفاع به برماد في مهبّ الريح العاصف، فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرّق، فكذلك هؤلاء الكفّار لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء فلا ينتفعون بأعمالهم ألبتة. وقال سبحانه في آية أُخرى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَل فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)(الفرقان:٢٣.). والمراد من أعمالهم ما يعد صالحاً في نظر العرف كصلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأُسارى وإغاثة الملهوفين، لأنّهم بنوا أعمالهم على غير معرفة الله والإيمان به فلا يستحقون شيئاً عليه.
إبراهيم٢التمثيل الثالث والعشرون(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة...) (إبراهيم:٢٤ـ ٢٥.)
قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).(إبراهيم:٢٤ـ ٢٥.)

إنّه سبحانه مثّل للحقّ والباطل أو الإيمان والكفر بتمثيلات مختلفة، وشبّه الإيمان في هذا التمثيل بشجرة طيّبة أصلها وجذورها راسخة في أعماق الأرض وفروعها وأغصانها مرتفعة إلى السماء (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ): أي في كلّ فصل وزمان فهي دائمة الإثمار في كلّ وقت وقّته الله لإثمارها.

هذا حال المشبه به وأمّا المشبّه فالمراد: الاعتقاد الحقّ الثابت، فهي عقيدة ثابتة طيّبة لها ثمارها في الحياتين.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلّ عقيدة صحيحة لها جذور في القلوب، ولها فروع وأغصان في حياة الإنسان ولهذه الفروع ثمار، فالاعتقاد بالواجب العادل الحكيم المعيد للإنسان بعد الموت يورث التثبّت في الحياة والاجتناب عن الظلم والعبث والفساد إلى غير ذلك من العقائد الصالحة التي لها فروع.

إبراهيم٣التمثيل الرابع والعشرون(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ...).(إبراهيم:٢٦.)

قال سبحانه: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ).(إبراهيم:٢٦.)

مثّل الله سبحانه وتعالى للعقيدة الصالحة بالمثل السابق، ومقتضى الحال أن يمثّل للعقيدة الباطلة بضد المثل السابق، فهي على طرف النقيض ممّا ذكر في الآية السابقة، وإليك البيان:

فالكفر كشجرة لها الأوصاف التالية:

أ. أنّها خبيثة مقابل الطيّبة، أي لا تطيب ثمارها، كشجرة الحنظل.

ب. (اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ) في مقابل قوله: (أَصْلُهَا ثَابِتٌ)، أي ليس لتلك الشجرة من ثبات فالريح تنسفها وتذهب بها، وبالتالي ليس لها فروع وأغصان وثمار.

هذا هو المشبّه به، وأمّا المشبّه فهو عبارة عن العقيدة الضالّة الكافرة التي لا تعتمد على برهان ولا دليل، تزعزعها أدنى شبهة وشكّ.

إبراهيم٤التمثيل الخامس والعشرون(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا....) (إبراهيم:٤٤ـ ٤٦.)

قال سبحانه: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ).(إبراهيم:٤٤ـ ٤٦.)

المشبّه هو الأُمم اللاحقة الذين رأوا العذاب فاستمهلوا الأجل وندموا ولم ينفعهم الندم.

والمشبّه به هو حال الأُمم الهالكة بأفعالهم الظالمة.

وحاصل مفاد الآية: حلفتم قبل نزول العذاب بأنّه ليس لكم زوال من الراحة إلى العذاب، وظننتم أنّكم بما تمتلكون من القوّة والسطوة أُمّة خالدة مالكة لزمام الأُمور، فلماذا تستمهلون حالة نزول العذاب؟! ثم يخاطبهم بجواب آخر وهو قوله: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ): أي سكنتم ديار مَن كذّب الرسل فأهلكهم الله وعرفتم ما نزل بهم من البلاء والهلاك والعذاب كقوم عاد وثمود، وضربنا لكم الأمثال وأخبرناكم بأحوال الماضين لتعتبروا فلم تتّعظوا.

النحل١التمثيل السادس والعشرون(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ....).(النحل:٥٦ـ٦٠.)

قال سبحانه: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).(النحل:٥٦ـ٦٠.)

الآية الأخيرة تدلّ على أمرين:

الأوّل: (لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ): أي يصفون الله سبحانه بما هو أرفع منه.

الثاني: (وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى): أي الوصف الحاكي عن الكمال.

أمّا الأوّل ـ أي وصفه سبحانه بما هو أرفع منه ـ فقد جاء في الآية التالية: (وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ).(الأنعام:١٣٦.) فكأنّه سبحانه فقير يجعلون له نصيباً ممّا يحرثون وممّا يربّون من أنعامهم.

وأيضاً أنّهم كانوا يبغضون البنات ويجعلونها لله ويحبون البنين ويجعلونهم لأنفسهم ويشير إليه بقوله: (وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)(النحل:٥٧.).

إلى هنا تبيّن أنّ المشركين يصفون الله بالمثل السوء.

وأمّا الثاني أنّ لله سبحانه المثل الأعلى فقد جاء في الآية التالية: (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).(الحشر:٢٣ـ ٢٤.)

النحل٢التمثيل السابع والعشرون(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..) (النحل:٧٣ـ٧٥.)

قال سبحانه: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).(النحل:٧٣ـ٧٥.)

الآيات تصف معبود المشركين ومعبود المؤمنين بالتمثيل التالي:

افرض مملوكاً لا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً حتى نفسه، فهو بتمام معنى الكلمة مظهر الفقر والحاجة، ومالكاً يملك الرزق ويقدر على التصرّف فيه، فيتصرّف في ماله كيف شاء وينعم كيف شاء. فهل هذان متساويان؟! كلاّ. فمثل معبودات المشركين مثل العبد الرق المملوك غير المالك لشيء، وأمّا مثل معبود المؤمنين فهو المالك للخلق والرزق والرحمة والمغفرة والإحسان والإنعام.

النحل٣التمثيل الثامن والعشرون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَهُوَ كَلٌّ...) (النحل:٧٦.)

قال سبحانه: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَ مَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْر هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم).(النحل:٧٦.)

كان التمثيل السابق يبيّن موقف الآلهة الكاذبة بالنسبة إلى العبادة والخضوع وموقفه سبحانه تبارك وتعالى حيالها، ولكن هذا التمثيل جاء لبيان موقف عبدة الأصنام والمشركين وموقف المؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، ويشبّه الآخر بإنسان حرّ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وما ذكرنا من التمثيل مبنيّ على أنّ التمثيل بصدد بيان موقف الكافر والمؤمن، غير أنّ هناك احتمالاً آخر، وهو أنّ التمثيل تأكيد للتمثيل السابق وهو تبيين موقف الآلهة الكاذبة والإله الحقّ.

النحل٤التمثيل التاسع والعشرون(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ.....) (النحل:٩١ـ ٩٢.)

قال سبحانه: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّة أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّة إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).(النحل:٩١ـ ٩٢.)

الأنكاث: «الإنقاض». «الدخل»: ما أُدخل في الشيء على فساد، وربّما يطلق على الخديعة.

إنّ لزوم العمل بالميثاق من الأُمور الفطرية التي جبل عليها الإنسان، ولذلك نرى أنّ الوالد إذا وعد ولده شيئاً، ولم يف به فسوف يعترض عليه الولد، وهذا كاشف أنّ لزوم العمل بالمواثيق والعهود أمر فطر عليه الإنسان.

فالله سبحانه يشبّه مَن نقض عهده بامرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار، ثم تأمرهنّ أن ينقضن ما غزلن ولا يزال ذلك دأبها، واسمها: ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة، وكانت تُسمّى فرقاء مكة.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٣٥.)

النحل٥التمثيل الثلاثون(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا...) (النحل:١١٢ـ ١١٣.)

قال سبحانه: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ).(النحل:١١٢ـ ١١٣.)

يصف سبحانه قرية عامرة بصفات ثلاثة:

١. آمنة: أي ذات أمن يأمن فيها أهلها لا يغار عليهم، ولا يُشنّ عليهم بقتل النفوس وسبي الذراري ونهب الأموال، وكانت آمنة من الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول.

٢. مطمئنة: أي قارّة ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق، فإنّ ظاهرة الاغتراب إنّما هي نتيجة عدم الاستقرار، فترك الأوطان وقطع الفيافي وركوب البحار وتحمّل المشاق رهن عدم الثقة بالعيش الرغيد فيه، فالاطمئنان رهن الأمن.

٣. (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان) الضمير في (يَأْتِيهَا) يرجع إلى القرية، والمراد منها حاضرة ما حولها من القرى.

إنّه سبحانه يصف قرية تغمرها النعم المادية والمعنوية.

أمّا الأُولى فبالنحو التالي:

١. (كَانَتْ آمِنَةً) من تسلّط العدو وغاراته.

٢. (مُطْمَئِنَّةً): أي ساكنة ومستقرة.

٣. (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا): أي أقواتها (رَغَدًا): أي وافراً من كلّ مكان.

هذا كلّه حول النعم المادية وأمّا النعمة المعنوية فأشار إليها بقوله: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ).

هذا هو حال القرية والمترقّب من أهلها أن يشكروا الله سبحانه ويعبدوه لكنّهم كفروا بأنعم الله، وأمّا كيفية كفرهم بأنعم الله فلم يرد في الآية، وأمّا الروايات فقد جاء في بعضها ما لا يصدقه العقل الحصيف.

وأمّا النعمة المعنوية ـ أعني: الرسول ـ فقد كفروا بها كما يقول:(فَكَذَّبُوهُ).

وأمّا رد فعله سبحانه على التكفيرَيْن: أمّا في مقابل تكفير النعم المادية فيقول سبحانه: (فَأَذَاقَها اللّهُ لِباسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِما كانُوا يَصنَعونَ)فسلّط الجوع والخوف عليهم فصارا كاللباس يحيط عامّة جوانبهم ولذلك استخدم كلمة اللباس.

وهنا سؤال مطروح وهو: إنّه سبحانه يعبّر عن ردّة فعله بالإذاقة وقال:(فَأَذَاقَها اللّهُ لِباسَ الجُوعِ) مع أنّ اللباس لا يذاق؟

أقول: أجاب عنه الشريف الرضي بقوله: بأنّه قد عرف في لسان العرب أن يقولوا لمن عوقب على جريمة، أو أُخذ بجريرة: «ذق غِبَّ فِعلك، واجنِ ثمرة جهلك»، وإن كانت عقوبته ليست مما يُحسُّ بالطّعم ويُدرك بالذوق، فكأنّه تعالى لمّا شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حَسُن أن يقول: فأذاقهم الله ذلك، أي أوجدهم مرارته، كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير، ووخامة الطعم الكريه.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٥.)

هذا كلّه حال المشبّه به وأمّا المشبه وهو حال مكة؛ لأنّهم كانوا في أمن وطمأنينة، بشهادة قوله سبحانه: (أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا

(يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ)(القصص:٥٧).

ثمّ أنعم الله عليهم بنعمة عظيمة وهي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فكفروا به وبالغوا في إيذائه، فلا جرم أن سلّط عليهم البلاء.

وأمّا تسلّط الجوع فقد روى المفسّرون بأنّ الله عذّبهم بالجوع في تفسير قوله سبحانه:(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)(الدخان:١٢).

وأمّا الخوف، فهو أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم.

هذا كلّه حول الجانب المادّي وأمّا الجوانب المعنوية فقد كذّبوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

الإسراء١التمثيل الحادي والثلاثون (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .....) (الإسراء:٢٩ـ ٣٠.)

قال سبحانه: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).(الإسراء:٢٩ـ ٣٠.)

«الغل»: ما يقيّد به وتجعل الأعضاء وسطه. ومعنى قوله: (مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ): أي مقيّدة به.

تتضمّن الآيتان تمثيلاً لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، والأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير، فشبّه منع الشحيح بمن تكون يده مغلولة إلى عنقه لا يقدر على الإعطاء والبذل، فيكون التشبيه لغاية المبالغة في النهي عن الشح والإمساك، كما شبّه إعطاء المسرف جميع ما عنده بمن بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء، وهذا كناية عن الإسراف، فيبقى الثالث وهو المفهوم من الآية وإن لم يكن منطوقاً، وهو الاقتصاد في البذل والعطاء، وقد تضمّنته آية أُخرى في سورة الفرقان، وهي: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا).(الفرقان:٦٧.)

الكهف١التمثيل الثاني والثلاثون(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِاَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب....) (الكهف:٣٢ـ ٤٣.)

قال سبحانه: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِاَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْل وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا).(الكهف:٣٢ـ ٤٣.)

«الحفّ» من حفّ القوم بالشيء إذا أطافوا به، وحفاف الشيء جانباه كأنّهما أطافا به، فقوله في الآية (وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْل): أي جعلنا النخل مطيفاً بهما، وقوله: (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ) فهو من باد الشيء، يبيد بياداً إذا تفرّق وتوزّع في البيداء أي المفازة.

«حسباناً»: الحسبان ما يحاسب عليه، فيجازى بحسبه فتكون النار والريح من مصاديقه، وفي الحديث أنّه قال(صلى الله عليه وآله وسلم) في الريح:«اللّهمّ لا تجعلها عذاباً ولا حسباناً».(المفردات للراغب:١١٦، مادة «حسب».)

«الصعيد»: يقال لوجه الأرض.

«زلق»: أي ملساء لا نبات فيه، ويرادفه الصلد، كما في قوله سبحانه: (فَتَرَكَهُ صَلْدًا).(البقرة:٢٦٤.)

وحقيقة هذا التمثيل أنّ أخوين مات أبوهما وترك مالاً وافراً فأخذ أحدهما حقّه منه و هو المؤمن منهما فتقرّب إلى الله بالإحسان

والصدقة، وأخذ الآخر حقّه فتملك به ضياعاً بين الجنتين، فافتخر الأخ الغني على الفقير، وقال: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا)، وما هذا إلاّ لأنّه كان يملك جنتين من أعناب ونخل مطيفاً بهما و بين الجنتين زرع وافر، وقد تعلّقت مشيئته سبحانه بأن تأتي الجنتان أُكلها ولم تنقص شيئاً وقد تخلّلها نهر غزير الماء و راح صاحب الجنتين المثمرتين يفتخر على صاحبه بكثرة المال والخدمة. وكان كلّما يدخل جنته يقول: ما أظن أن تفنى هذه الجنة و هذه الثمار ـ أي تبقى أبداًـ وأخذ يكذّب بالساعة، ويقول: ما أحسب القيامة آتية، ولو افترض صحة ما يقوله الموحّدون من وجود القيامة، فلئن بعثت يومذاك، لآتاني ربي خيراً من هذه الجنة، بشهادة إعطائي الجنة في هذه الدنيا دونكم، و هذا دليل على كرامتي عليه.

هذا ما كان يتفوّه به وهو يمشي في جنته مختالاً، و عند ذاك يواجهه أخوه بالحكمة والموعظة الحسنة.

و يقول: كيف كفرت بالله سبحانه مع أنّك كنت تراباً فصرت نطفة، ثمّ رجلاً سويّاً، فمَن نقلك من حال إلى حال وجعلك سويّاً معتدل الخلقة؟

وبما أنّه ليس في عبارته إنكار للصانع صراحة، بل إنكار للمعاد، فكأنّه يلازم إنكار الربّ.

فإن افتخرت أنت بالمال، فأنا أفتخر بأنّي عبد من عباد الله لا أُشرك به أحداً.

ثمّ ذكّره بسوء العاقبة، وانّك لماذا لم تقل حين دخولك البستان ما شاء الله، فإنّ الجنتين نعمة من نعم الله سبحانه، فلو بذلت جهداً في عمارتها فإنّما هو بقدرة الله تبارك و تعالى.

ثمّ أشار إلى نفسه، وقال: أنا وإن كنت أقلّ منك مالاً وولداً ، ولكن أرجو أن يجزيني ربي في الآخرة خيراً من جنتك، كما أترقّب أن يرسل عذاباً من السماء على جنتك فتصبح أرضاً صلبة لا ينبت فيها شيء، أو يجعل ماءها غائراً ذاهباً في باطن الأرض على وجه لا تستطيع أن تستحصله.

قالها أخوه و هو يندّد به ويحذّره من مغبّة تماديه في كفره وغيّه ويتكهن له بمستقبل مظلم.

فعندما جاء العذاب وأحاط بثمره، ففي ذلك الوقت استيقظ الأخ الكافر من رقدته، فأخذ يقلّب كفّيه تأسّفاً وتحسّراً على ما أنفق من الأموال في عمارة جنتيه، وأخذ يندم على شركه، ويقول: يا ليتني لم أكن مشركاً بربي، ولكن لم ينفعه ندمه ولم يكن هناك مَن يدفع عنه عذاب الله ولم يكن منتصراً من جانب ناصر.

الكهف٢التمثيل الثالث والثلاثون (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ .....).(الكهف:٤٥.)

قال سبحانه: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرّياحُ وَكانَ اللّهُ عَلى كُلّ شَيء مُقتدراً).(الكهف:٤٥.)

«الهشيم»: ما يكسر و يحطم في يبس النبات.

«الذر»: تطيير الريح الأشياء الخفيفة في كلّ جهة.

وحقيقة التمثيل أنّه سبحانه يشبّه المال والبنين بالورود والأزهار التي تظهر على النباتات، ووجه الشبه هو طروء الزوال بسرعة عليها، وهكذا الأموال والبنون.

الحج١التمثيل الرابع والثلاثون (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ ...) (الحج:٧٣ـ٧٤.)

قال سبحانه: (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالمَطْلُوبُ* ما قَدَرُوا اللّه حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز).(الحج:٧٣ـ٧٤.)

كان العرب في العصر الجاهلي موحّدين في الخالقية ومشركين في التوحيد في الربوبية، فالله سبحانه كما يدّعون خلق السماوات

والأرض وفوّض تدبيرهما إلى الآلهة المزعومة.

فقد روي أنّ العرب كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله، يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه): أي يعبدونه والدعاء هنا بمعنى العبادة. (لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) مع صغره (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه) كما عرفت من أنّ الذباب ربّما يأكل العسل الموجود على رؤوس الأصنام.

وفي نهاية الآية يقول سبحانه: (ضَعُفَ الطّالِبُ): أي العابد (وَالمَطْلُوبُ): أي المعبود.

النور١التمثيل الخامس والثلاثون (اللّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكوة....).(النور:٣٥.)

قال سبحانه: (اللّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكوة فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ فِي زُجاجَة الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرة مُبارَكَة زَيْتُونَة لا شَرْقِيَّة وَلا غَرْبِيّة يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نور يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْء عَلِيم).(النور:٣٥.)

«المشكاة»: كوّة غير نافذة تتّخذ في جدار البيت لوضع بعض الأثاث ومنها المصباح.

«المصباح»: السراج وهو يتألّف من أُمور أربعة:

أ. وعاء للزيت.

ب. فتيل يشتعل بالزيت.

ج. زجاجة منصوبة عليه.

د. آلة التحكّم بالفتيل.

ثمّ إنّ أفخر أنواع الزيوت هو المأخوذ من شجرة الزيتون المغروسة في مكان تشرق عليه الشمس من كلّ الجوانب حيث يكون في غاية الصفاء وسريع الاشتعال، بخلاف المغروسة في جانب الشرق أو جانب الغرب، فإنّها لا تتعرّض للشمس إلاّ في أوقات معيّنة.

فالمشبّه به هو النور المشرق من زجاجة مصباح، موقد من زيت جيّد صاف موضوع على مشكاة.

وأمّا قوله في آخر الآية: (نُورٌ عَلى نُور)بمعنى تضاعف النور وأنّ نور الزجاجة مستمد من نور المصباح في إنارتها.

هذا حال المشبّه به، وأمّا المشبه فقد طبّقت كلّ طائفة حال ذلك التمثيل على ما ترومه فقد ناهز عدد الأقوال العشرة نذكر واحداً منها:

المشبّه هداية اللّه، إذ قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء.(لاحظ بقية الأقوال والتطبيقات في كتابنا «الأمثال في القرآن الكريم»:٢٠٧ـ٢١٠.)

النور٢التمثيل السادس والثلاثون(وَالّذينَ كَفَرُوا أَعمالُهُمْ كَسَراب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَمآنُ....).(النور:٣٩.)

قال سبحانه: (وَالّذينَ كَفَرُوا أَعمالُهُمْ كَسَراب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَمآنُ ماءً حَتّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوفّاهُ حِسابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الحِسابِ).(النور:٣٩.)

«السّراب» ما يُرى في الفلاة من ضوء الشمس في وقت الظهيرة.

«القيعة» جمع «القاع» وهو المنبسط المستوي من الأرض.

(الظَمآنُ) هو العطشان.

الآية تشبّه أعمال الكافرين بالسراب، وحاصل التمثيل: هو أنّ الطاعة والعبادة والقربات كلّها للّه تبارك وتعالى، فمن قدّمها إليه

وقام بها لأجله فقد بذر بذرة في أرض خصبة سوف ينتفع بها في لقائه سبحانه.

وأمّا من عبد غيره وقدّم إليه القربات راجياً الانتفاع بها، فهو كرجاء الظمآن الذي يتصوّر السراب ماءً فيجيئه لينتفع به ولكنّه سرعان ما يرجع خائباً.

هذا حال الكافر وأمّا المؤمن فهو عند مجيئه إلى الانتفاع بأعماله يجد الله هو المجازي لا غيره، وأنّه سبحانه يجزيه بأعماله، فيوفيه حسابه، وما ذلك إلاّ لأنّ الله سريع الحساب.

النور٣التمثيل السابع والثلاثون(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ...) (النور:٤٠.)

قال سبحانه: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).(النور:٤٠.)

«اللجّي» منسوب إلى «اللُجّة» وهو في اللغة: البحر الواسع العميق، وكُنّي في لازم معناه، وهو تردّد أمواجه، فإنّ البحر كلّما كان عميقاً تزداد أمواجه، فيكون المراد من قوله: (بَحْرٍ لُجِّيٍّ): أي بحر متلاطم.

إنّه سبحانه شبّه في الآية السابقة أعمال الكافرين ـ بسبب عدم الانتفاع بها ـ بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء، ولكنّه تعالى شبّه أعمالهم في هذه الآية ببحر لجيّ فوقه سحابة سوداء ممطرة، ويعلو ماءه موج فوق موج، فراكب هذا البحر تغمره ظلمة دامسة لا يرى أمامه شيئاً حتى لو أخرج يده فإنّه لا يراها مع قربها منه.

هذا هو المشبّه به، وأمّا المشبّه فالأعمال التي يقوم بها الكافر باطلة محضة ليس فيها من الحقّ شيء مثل هذا البحر اللجيّ المحيطة به عتمة الظلام الذي ليس فيه نور.

ثمّ إنّ الآية تشير إلى ظلمات ثلاث:

الأُولى: ظلمة البحر المحجوب من النور.

الثانية: ظلمة الأمواج المتلاطمة.

الثالثة: ظلمة السحاب الأسود الممطر.

فتراكم هذه الظلمات يحجب كلّ نور من الوصول، وهكذا الحال في الكافر، ففي أعماله ظلمات ثلاث يمكن بيانها بأنحاء مختلفة:

النحو الأوّل: ظلمة الاعتقاد، ظلمة القول، ظلمة العمل.

النحو الثاني: ظلمة القلب، ظلمة البصر، ظلمة السمع.

النحو الثالث: ظلمة الجهل، ظلمة الجهل بالجهل، ظلمة تصوّر الجهل علماً.(تفسير الرازي:٢٤/٩٨.)

العنكبوت ١التمثيل الثامن والثلاثون (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ....).(العنكبوت:٤١ـ ٤٣.)

قال سبحانه: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ).(العنكبوت:٤١ـ ٤٣.)

ضرب سبحانه لآلهة المشركين مثلاً بالذباب تارة، وببيت العنكبوت أُخرى، أمّا الأوّل فقد مضى البحث عنه، وأمّا الثاني فهو ما تتضمّنه الآية من تشبيه آلهة المشركين ومعبوداتهم بأوهن البيوت وهو بيت العنكبوت.

إنّ العنكبوت حشرة معروفة ذكورها أصغر أجساداً من إناثها، وهي تتغذّى على الحشرات التي تصطادها بالشبكة التي تمدّها على جدران البيوت، فتصنع تلك الشبكة من مادة تفرزها لها غدد في باطنها محتوية على سائل لزج تخرجه من فتحة صغيرة، فيتجمّد

بمجرد ملامسته للهواء و يصير خيطاً في غاية الدقّة، وما أن تقع الفريسة في تلك الشبكة حتى تنقض عليها وتنفث فيها سمّاً يوقف حركاتها، فلا تستطيع الدفاع عن نفسها.(انظر: دائرة معارف القرن العشرين:٦/٧٧٢.)

ومع ذلك فما نسجته بيتاً لنفسها من أوهن البيوت، بل لا يليق أن يصدق عليه عنوان البيت، الذي يتألّف من حائط حائل، وسقف مظل، وباب ونوافذ، وبيتها يفقد أبسط تلك المقوّمات، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ بيتها يفتقد لأدنى مقاومة أمام الظواهر الجوية والطبيعية، فلو هبّ عليه نسيم هادئ لمزّق النسيج، ولو سقطت عليه قطرة من ماء لتلاشى، ولو وقع على مقربة من نار لاحترق، ولو تراكم عليه الغبار لتمزّق.

هذا هو حال المشبّه به، والقرآن يمثل حال الآلهة المزيّفة بهذا المثل الرائع، وهو أنّها لا تنفع ولا تضرّ، لا تخلق ولاترزق، ولا تقدر على الإستجابة لأي طلب.

بل حال الآلهة المزيّفة الكاذبة أسوأ حالاً من بيت العنكبوت، وهو أنّ العنكبوت تنسج بيتها لتصطاد به الحشرات ولولاه لماتت جوعاً، ولـكن الأصنام والأوثان لا توفر شيئاً للكافر.

الروم١التمثيل التاسع والثلاثون(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ...) (الروم: ٢٨.)

قال سبحانه: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ في ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوم يعْقِلُون).(الروم: ٢٨.)

ألقى سبحانه المثل بصورة الاستفهام الإنكاري، وحاصله: هل ترضون لأنفسكم أن يكون عبيدكم وإماؤكم شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم إيّاها على وجه تخشون التصرّف فيها بغير إذن هؤلاء العبيد والإماء ورضاً منهم، كما تخشون الشركاء الأحرار.

والجواب: لا، أي لا يكون ذلك أبداً ولا يصير المملوك شريكاً لمولاه في ماله، فعندئذ يقال لكم: كيف تجوّزون ذلك على الله، وأن يكون بعض عبيده المملوكين ـ كالملائكة والجن ـ شركاء له، إمّا في الخالقية أو في التدبير أو في العبادة.

والحاصل: أنّ العبد المملوك وضعاً، لا يصحّ أن يكون في رتبة مولاه على نحو يشاركه في الأموال، فهكذا العبد المملوك تكويناً، لا يمكن أن يكون على درجة الخالق المدبّر فيشاركه في الفعل، كأن يكون خالقاً أو مدبّراً، أو يشاركه في الصفة كأن يكون معبوداً. فالشيء الذي لا ترضون لأنفسكم، كيف ترضونه لله سبحانه، وهو ربّ العالمين.

فاطر١التمثيل الأربعون(وَما يَسْتَوي البَحْران هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ....).(فاطر:١٢.)

قال سبحانه: (وَما يَسْتَوي البَحْران هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمن كُلّ تَأْكُلُون لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِليةً تَلْبَسُونَها وَتَرى الفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون).(فاطر:١٢.)

«الفرات»: الماء العذب. «الأُجاج» شديد الملوحة والحرارة. «مواخر» من مخر بمعنى شقّ، فالسفن تشق الماء بجؤجئها.

والآية بصدد ضرب المثل في حقّ الكفر والإيمان، أو الكافر والمؤمن.

وحاصل التمثيل: أنّ الإيمان والكفر متمايزان لا يختلط أحدهما بالآخر، كما أنّ الماء العذب الفرات لا يختلط بالملح الأُجاج.

وفي الوقت نفسه لا يتساويان في الحسن والنفع، قال سبحانه: (وَما يَسْتَوي البَحْران هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ) بل أنّ الكافر أسوأ حالاً من البحر الأُجاج الذي يشاطر البحر الفرات في أمرين:

أ. يستخرج من كلّ منهما لحماً طريّاً يأكله الإنسان كما قال سبحانه: (وَمن كُلّ تَأْكُلُون لَحْماً طَرِيّاً).

ب. يستخرج من كلّ منهما اللآلئ بالغوص في البحر فتلبسونها وتتزينون بها.

فاطر٢التمثيل الحادي والأربعون(وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ*....(فاطر:١٩ـ ٢٢.)

قال سبحانه: (وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ* وَلاَ الظِلُّ وَلاَ الْحَرُورُ* وَما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَلاَ الأَمْواتُ إِنَّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمع مَنْ فِي الْقُبُور).(فاطر:١٩ـ ٢٢.)

«الحرور»: الريح الحارّة.(المفردات للراغب:١١١، مادة «حر».)

في الآيات تمثيل للكافر والمؤمن، أمّا الكافر فقد شبهته بالصفات التالية:

١. الأعمى. ٢. الظلمات. ٣. الحرور. ٤. الأموات.

كما شبّهت المؤمن بأضدادها التالية:

١. البصير. ٢. النور. ٣. الظل. ٤. الأحياء.

وما ذلك إلاّ لأنّ الكافر لأجل عدم إيمانه بالله سبحانه وصفاته وأفعاله، فهو أعمى البصر تغمره ظلمة دامسة لا يرى ممّا وراء الدنيا شيئاً، وتحيط به نار، قال سبحانه:(انّ جَهَنّم لَمُحيطَةٌ بِالكافِرين)(التوبة:٤٩.)، وظاهر الآية أنّ النار محيطة بهم في هذه الدنيا، وإن لم يشعروا بها، كما أنّه ميّت لا يسمع نداء الأنبياء وإن كان حيّاً يمشي، هذا بخلاف المؤمن فإنّه يبصر بنور الله يغمره نور زاهر، يرى دوام الحياة إلى ما بعد الموت، فهو في ظل ظليل من رحمته، وإنّه يسمع نداء الأنبياء ويؤمن به.

وبعبارة واضحة: الكافر مجادل مكابر، والمؤمن واع متدبّر.

يس١التمثيل الثاني والأربعون (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ....).(يس: ٧٨ ـ ٧٩ .)

قال سبحانه: (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَميمٌ * قُلْ يُحْيِيها الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَليمٌ).(يس: ٧٨ ـ ٧٩ .)

روى المفسّرون أنّ أُبي بن خلف أو العاص بن وائل جاء بعظم بال متفتت، وقال: يا محمد أتزعم أنّ الله يبعث هذا؟ فقال: نعم، فنزل قوله سبحانه: (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسانُ...)(يس:٧٧.)، فضرب الكافر مثلاً وقال: كيف يحي الله هذه العظام البالية؟

وضرب سبحانه مثالاً آخر وهو أنّه يحييها من أنشأها أوّلاً، فمَن قدرعلى إنشائها ابتداءً يقدر على الإعادة، وهي أسهل من الإنشاء والابتداء، ومن المعلوم أنّ إطلاق لفظ الأسهلية إنّما هو من منظار الإنسان، وأمّا الحقّ جلّ وعلا فكلّ الأشياء أمامه سواء.

قال سبحانه: (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً): أي ضرب مثلاً في إنكار البعث بالعظام البالية، واستغرب ممّن يقول إنّ الله يحي هذه العظام ونسي خلقه: (قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَميمٌ)ومثّل سبحانه بالردّ عليه بمثال آخر، وقال: (قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَليمٌ)من الابتداء والإعادة، وقد مرّ هذا المثل بعبارة أُخرى في قوله: (وَهُوَ الَّذي يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ).(الروم:٢٧.)

الزمر١التمثيل الثالث والأربعون (ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ و.... .(الزمر:٢٩.)

قال سبحانه: (ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُركاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُل هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ).(الزمر:٢٩.)

«الشكس» السيِّئ الخلق. «سَلَماً»: خالصاً لا يملكه إلاّ شخص واحد....

هذه الآية تمثّل حالة الكافر والمؤمن، فهناك مشبّه ومشبّه به.

أمّا المشبّه به، فهو عبارة عن عبد مملوك له شركاء سيّئي الخُلق متنازعون فيه، فواحد يأمره وآخر ينهاه، وكلّ يُريد أن يتفرّد بخدمته، في مقابل عبد مملوك لرجل واحد يطيعه ويخدمه ولا يشرك في خدمته شخصاً آخر، فهذان المملوكان لا يستويان.

وأمّا المشبّه فحال الكافر نفس حال المملوك الذي فيه شركاء متشاكسون، فهو يعبد آلهة مختلفة لكلّ أمره ونهيه وخدمته، ولا يمكن الجمع بين الآراء والأهواء المختلفة، بخلاف المؤمن فإنّه يأتمر بأمر الخالق الحكيم القادر الكريم.

وهذا المثل وإن كان مثلاً واضحاً ساذجاً مفهوماً لعامّة الناس، ولكن له باطن لا يقف عليه إلاّ أهل التدبّر في القرآن، فهو سبحانه بصدد البرهنة على توحيده التي أشار إليه في قوله:(لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُون).(الأنبياء:٢٢.)، وقال سبحانه: (ءَأَربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الواحِدُ القَهّار).(يوسف:٣٩.)

الزخرف ١التمثيل الرابع والأربعون (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوّلِينَ* وما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبيّ إِلاّ...) .(الزخرف:٦ـ٨.)

قال سبحانه: (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوّلِينَ* وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبيّ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون* فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمضى مَثَلُ الأَوّلِين) (الزخرف:٦ـ٨.)

«البطش»: تناول الشيء بصولة.

الآيات تشتمل على مشبّه به ومشبّه، أمّا الأوّل فهو الأُمم الماضية التي بعث اللّه سبحانه رسله إليهم، فكفروا بأنبيائه، فأهلكهم اللّه بأنواع العذاب.

وأمّا المشبّه فهو عبارة عن مشركي عصر الرسالة الذين كانوا يستهزئون بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيوعدهم سبحانه بما مضى على الأوّلين، بأنّه سبحانه أهلك مَن هو أشدّ قوّة ومنعة من قريش وأتباعهم فيعتبروا بحالهم، يقول سبحانه: (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوّلِينَ): أي الأُمم الماضية (وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبيّ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون)، فكانت هذه سيرة الأُمم الماضية، ولكنّه سبحانه لم يضرب عنهم صفحاً فأهلكهم، كما قال: (فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمضى مَثَلُ الأَوّلِين): أي مضى في القرآن ـ في غير موضع منه ـ ذكر قصّتهم وحالهم العجيبة التي من حقّها أن تصير مثلاً.

الزخرف٢التمثيل الخامس والأربعون (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِين*...).(الزخرف:٥٤ـ٥٦.)

قال سبحانه: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِين* فَلَمّا آسفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقناهُمْ أَجْمَعِين* فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً للآخِرِينَ).(الزخرف:٥٤ـ٥٦.)

«آسفونا» مأخوذ من أسف أسفاً، إذا اشتدّ غضبه. وقال الراغب:الأسف: الحزن والغضب معاً.

إنّه سبحانه يخبر عن انتقامه من فرعون وقومه ويقول:(فَلَمّا آسفُونا): أي أغضبونا (انْتَقَمْنا مِنْهُمْ)بالغرق، كما يقول: (فَأَغْرَقناهُمْ أَجْمَعِين) وهذا هو المشبّه به، وأمّا المشبّه فيُشير إليه بقوله: (فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً للآخِرِينَ) منهم مشركو أهل مكّة. فمصير فرعون وقومه عبرة لهؤلاء.

الزخرف٣التمثيل السادس والأربعون (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * و...).(الزخرف:٥٧ـ٦١.)

قال سبحانه: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ).(الزخرف:٥٧ـ٦١.)

«الصد»: الانصراف عن الشيء، قال سبحانه: (يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)(النساء:٦١.)، ولكن المراد به في الآية هو ضجّة المجادل إذا أحسّ بالإنتصار.

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآيات أنّ رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا قرأ: (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ)(الأنبياء:٩٨ـ ١٠٠.)، امتعضت

قريش من ذلك امتعاضاً شديداً، فقال عبد الله بن الزبعرى: يا محمد أخاصّة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأُمم؟ فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأُمم». فقال: خصمتك وربّ الكعبة، ألست تزعم أنّ عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيراً، وعلى أُمّه، وقد علمتَ أنّ النصارى يعبدونهما، وعُزير يُعبد، والملائكة يُعبدون، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا.(تفسير الكشّاف:٢/١٠٠، السيرة النبوية لابن هشام:١/٣٨٥.)

أمّا حقيقة التمثيل فقد شبّهوا آلهتهم بالمسيح ورضوا بأن يكونوا مع المسيح في مكان واحد، وبما أنّ المسيح في الجنة وليس في النار، فهكذا آلهتهم. والله سبحانه يردّ على تمثيلهم قائلاً بأنّهم ما تمسّكوا بهذا المثل إلاّ جدلاً، كما يقول: (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً) وهم يعلمون بطلان دليلهم، إذ ليس كلّ معبود حصب جهنم، بل المعبود الذي دعا الناس إلى عبادته كفرعون لا كالمسيح الذي كان عابداً لله رافضاً الشرك، فاستدلالهم كان مبنيّاً على الجدل وإنكار الحقيقة، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ).

محمد١التمثيل السابع والأربعون (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِنٍ...).(محمد:١٥.)

قال سبحانه: (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَن لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْر لَذَّة لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَل مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الَّثمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).(محمد:١٥.)

«آسن»: يقال: أسن الماء يأسن، إذا تغيّرت ريحه، تغيّراً منكراً.

«الحميم»: الماء الشديد الحرارة.

المشبّه به: في هذه الآية هو الجنّة، ولها صفات منها:

أنّ فيها أنهار أربعة، وهي عبارة عن:

أ. (أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِن): أي الماء الذي لا يتغيّر طعمه ورائحته ولونه لطول بقائه.

ب. (وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَن لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ): أي يعتريه الفساد بمرور الزمان.

ج. (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْر لَذَّة لِلشَّارِبِينَ)، فتقييد الخمر بكونه لذة للشاربين احتراز عن خمر الدنيا.

د. (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَل مُصَفًّى): أي خالص من الشمع.

وأمّا المشبّه فهو مكان أهل الجحيم، وقد أُشير إليه بقوله: (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) وإنّما يسقون بماء حميم، كما يقول: (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) فلو أردنا أن نجعل الآية من قبيل الأمثال فهو من قبيل التمثيل الإنكاري، وإلاّ فالتمثيل الحقيقي غير موجود.

الفتح١التمثيل الثامن والأربعون (هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى..).(الفتح:٢٨ـ ٢٩.)

قال سبحانه: (هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْع أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً).(الفتح:٢٨ـ ٢٩.)

«السيما»: العلامة، فقوله: (سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ): أي علامة إيمانهم في وجوههم.

«شطأه»: الشطأ: البراعم، وهي فروخ الزرع.

«الأزر»: القوّة الشديدة.

«الغلظة»: ضد الرقّة.

«سوق»: جمع ساق.

شبّه سبحانه أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفّار، هذا حاصل المثل، وأمّا التفصيل فقد وصف المشبّه بأوصاف:

١. (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ).

٢. (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).

٣. (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا).

٤. (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا).

وأمّا المشبّه به فهو كزرع قويَ وغلظ وقام على سوقه، يعجب الزارعين بجودة رُشده.

وجه الشبه: أنّ المجتمع الإسلامي بإيمانه وعمله وجهاده وحركته الدؤوبة نحو التكامل يثير إعجاب الأخلاّء ويغضب الألدّاء.

غير أنّ هذا الوصف ليس لكلّ صحابي، وذلك بشهادة قوله سبحانه: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً)

فقوله: «من» في قوله: (مِنْهُمْ)تبعيضية، لا بيانية، لأنّ البيانية منها لا تدخل على الضمير.

الحديد١التمثيل التاسع والأربعون (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ....).(الحديد:٢٠.)

قال سبحانه: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْث أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ).(الحديد:٢٠.)

«الكفّار»: جمع الكافر بمعنى الساتر، والمراد الزارع ويطلق على الكافر بالله لستر الحقّ، كما أنّ الزارع يستر الحبّ تحت التراب.

«يهيج»: أي ييبس.

«مصفراً»: إذا قارب اليبس.

«الحطام»: كسر الشيء، قال سبحانه: (لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)(النمل:١٨.).

الآية ترسم المراحل المختلفة التي تمرّ على الإنسان بالنحوالتالي:

أ. اللعب، ب. اللهو، ج. الزينة، د. التفاخر، هـ . التكاثر في الأموال والأولاد.

هذا هو المشبّه، والمشبّه به هو النبات الذي تعجب الزرّاع طراوته ونظارته ثم يتحوّل إلى عُشب يابس تذروه الرياح، يقول تعالى:

(كَمَثَلِ غَيْث أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا).

وحاصل التمثيل: تشبيه الدنيا وحياة الإنسان فيها بداية ونهاية بالنبات الذي تعجب الزرّاع طروات‍ه ونضارته، ثم سرعان ما يتحوّل إلى عشب يابس، فمتاع الحياة الدنيا متاع الغرور.

الحشر١التمثيل الخمسون (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاءِ...).(الحشر:١٤ـ ١٥.)

قال سبحانه: (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُر بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).(الحشر:١٤ـ ١٥.)

الحصن: جمعه حصون، والقرى المحصّنة التي تحيطها القلاع المنيعة التي تمنع من دخول الأعداء.

البأس والبأساء: الشدّة.

الوبال: الأمر الذي يُخاف ضرره.

تشبّه الآيتان حال بني النضير من اليهود الذين أجلاهم الرسول وقد تآمروا على قتله، بمشركي قريش الذين قُتلوا ببدر قبل جلاء بني النضير بستة أشهر، فأُشير إلى المشبّه بقوله: (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُر بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ).

وأُشير إلى المشبّه به بقوله: (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ).

الحشر٢التمثيل الحادي والخمسون (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ...).(الحشر:١٦.)

قال سبحانه: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).(الحشر:١٦.)

تشير هذه الآية إلى قصّة بني النضير، فإنّهم لمّا تآمروا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)أمرهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بالجلاء، ولكنّ المنافقين وعدوهم بالنصرة، فقالوا لهم: (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ)(الحشر:١٢.) ولكنّهم لم يفوا بوعدهم، فما ظهر منهم أي نصر ومؤازرة، هذا هو المشبّه.

وأمّا المشبّه به فهو أنّ وعدهم كان كوعد الشيطان، إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال: إنّي بريء منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين، بمعنى أنّه أمره بالكفر ولكنّه تبرّأ منه في النهاية، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ).

الجمعة١التمثيل الثاني والخمسون (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ...).(الجمعة:٥.)

قال سبحانه: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).(الجمعة:٥.)

«الأسفار»: جمع السِفر وهو الكتاب.

قد جاءت البشارة بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأوصافه في التوراة، ولكن اليهود لم ينتفعوا بكتابهم، فصاروا يبثّون الشكوك في طريق رسالته، فالله سبحانه يشبّههم ـ في عدم الانتفاع بالتوراة ـ بالحمار الذي يحمل أسفاراً ـ أي كتباً ـ لكنّه لا ينتفع بها.

التحريم١التمثيل الثالث والخمسون (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط....).(التحريم:١٠.)

قال سبحانه: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ).(التحريم:١٠.)

يذكر سبحانه في هذه السورة قصة إفشاء سر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بواسطة اثنتين من أزواجه، يقول سبحانه: (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْض فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ).(التحريم:٣.)

وبما أنّ مستمع السرّ كمفشيه، عاص، يعود سبحانه يندّد بهما ويأمرهما بالتوبة لأجل ما كسبت قلوبهما من الآثام.

وبما أنّ السورة تكفّلت ببيان تلك القصّة ناسب أن يمثّل سبحانه حالهما بزوجتين لنبيّين من أنبياء الله تعالى أذاعتا سرّهما وخانتاهما. إذ لم تكن خيانتاهما خيانة فجور لما ورد: «ما بغت امرأة نبيّ قط» وإنما كانت خيانتهما في الدين، فقط.

التحريم٢التمثيل الرابع والخمسون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ..).(التحريم:١١ـ ١٢.)

قال سبحانه: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ).(التحريم:١١ـ ١٢)

«الحصن»: جمع حصون وهي القلاع، ويطلق على المرأة العفيفة، لأنّها تحصّن نفسها بالعفاف تارة وبالتزويج أُخرى.

«القنوت»: لزوم الطاعة مع الخضوع.

هذا التمثيل في مقابل التمثيل المتقدّم، حيث يشبّه النساء المحصّنات العفيفات المتّقيات بامرأتين:

الأُولى: آسية بنت مزاحم

وهي امرأة فرعون، فقد بلغت من الإيمان والتقوى بمكان أنّها طلبت من الله سبحانه أن يبني لها بيتاً في الجنّة، فقد آمنت بموسى(عليه السلام) لمّا رأت معاجزه الباهرة ودلائله الساطعة، فأظهرت إيمانها غير خائفة من بطش فرعون، وقد نُقل أنّه وتدها بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس.

الثانية: مريم بنت عمران

والله سبحانه يصفها بالصفات التالية:

أ. (أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) فصارت عفيفة كريمة.

ب. (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) أجرى روح المسيح فيها، فهي امرأة لا زوج لها انجبت ولداً صار نبيّاً.

ج. (صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ): أي آمنت بالكتب النازلة.

د. (وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ): أي مطيعة لله تعالى.

***

تمّ ذكر الأمثال الواردة في القرآن الكريم واقتصرنا على الآيات التي ورد فيها تشبيه قوم بقوم، أو شيء بشيء، وأمّا الآيات التي ورد فيها الوصف من دون إشارة إلى مشبّه، أو ورد فيها رفض المقايسة بين شيء وشيء. فقد تركنا ذكرها ـ إلاّ القليل ـ لأنّها ليست من التمثيل المصطلح.

المبحث الحادي والعشرون في أسباب النزول

لا شكّ أنّ القرآن الكريم نزل نجوماً، وهذا ما يصرّح به الذكر الحكيم في قوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)(الفرقان:٣٢).

كما لا شكّ أنّ القرآن الكريم نزل ليعالج الأعراف الباطلة الرائجة بين العرب قبل البعثة النبوية، فهذان الأمران يؤكّدان على أنّ لقسم من الآيات أسباباً خاصّة لنزولها على وجه لولاها لما تعرّض لها الذكر الحكيم، وهذا ما يبعث المفسّر إلى الفحص عن هذه الأُمور التي سببت نزول الآيات في شأنها وعلاجها.

مثلاً: إنّه سبحانه يأمر بإتيان البيوت من أبوابها دون ظهورها، والإنسان عندما يتفكّر في مضمون هذه الآية يتحيّر فيما هو المراد من دخول البيوت من الأبواب، وهل تُدخل البيوت من غير أبوابها، ولكن المفسّر إذا رجع إلى أسباب نزول الآية يتجلّى له مفاد الآية بأجلى مظاهره، وهي كما روى السيوطي وقال: إنّ الناس كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها، وكان الحُمس لا يدخلون البيوت من أبوابها، فدخل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه داراً، وكان رجل من الأنصار يقال له (رفاعة بن تابوت) فجاء فتسوّر الحائط، ثم دخل على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما خرج(صلى الله عليه وآله وسلم) من

باب الدار خرج معه رفاعة، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ما حملك على ذلك»؟ قال: يا رسول الله لأنّك خرجت منه فخرجت منه. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): إنّي رجل أحمس، فقال: إن تكن رجلاً أحمس فإنّ ديننا واحد، فانزل الله: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(البقرة:١٨٩؛ تفسير الدر المنثور:٢/٤٩٢).

ونظير ذلك قوله سبحانه: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)(البقرة:١٥٨.) فلا شكّ أنّ السعي بين الجبلين جزء من العمرة والحج، فهو أمر واجب، فكيف يقول سبحانه: (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا): أي لا إثم عليه؟

ولكن الرجوع إلى أسباب النزول يرفع الإجمال عن وجه الآية.

روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه سُئل عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سُنّة؟ فقال: «فريضة»، قلت: أو ليس قال الله عزّ وجلّ: (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا)؟ قال: «كان ذلك في عمرة القضاء. إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل وترك السعي حتى انقضت الأيام، وأُعيدت الأصنام فجاءوا إليه، فقالوا: يا رسول الله، إنّ فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة، وقد أُعيدت الأصنام، فأنزل الله عزّوجلّ: (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا): أي وعليهما الأصنام».(الكافي:٤/٤٣٥، برقم ٨؛ البرهان في تفسير القرآن:٢/٤٢، برقم ٧٢٨.)

فأسباب النزول في هذين الموردين ترفع تعجب الإنسان من مضمون الآية ومفادها.

وربّما يكون مفهوم الآية أمراً غير مثير للعجب، ولكن تحوطه هالة من الإجمال، يقول سبحانه: (وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).(التوبة:١١٨.)

فقبل الرجوع إلى أسباب النزول يسأل الإنسان نفسه عن الأُمور التالية:

١. مَن هم هؤلاء الثلاثة؟

٢. كيف كان تخلّفهم؟

٣. كيف ضاقت الأرض وأنفسهم عليهم؟

٤. لماذا تاب الله عليهم ليتوبوا؟

فهذه الأسئلة الأربعة تحتاج إلى الإجابة، وبالرجوع إلى أسباب النزول يقف الإنسان على مفاد الآية.

قيل: لمّا أعلن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) النفير العام إلى الجهاد، وذلك في فصل الصيف الملتهب والمتقارن مع نضج الفواكه وحصاد المنتجات الزراعية، لبّى المسلمون نداء الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) غير أنّه قد تخلّف ثلاثة منهم، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيع، وهلال بن أُميّة، فقد تخلّفوا عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا، فلمّا قدم(صلى الله عليه وآله وسلم)المدينة، جاءوا إليه واعتذروا، فلم يكلّمهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتقدّم إلى المسلمين بألاّ يكلّمهم أحدٌ منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقلن له: يا رسول الله نعتزلهم؟ فقال: لا، ولكن لا يقربوكن، فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلّموهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلّمنا أحد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً، فتفرّقوا ولم يجتمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه، فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه

الآية.(مجمع البيان:٥/١٤٩.)

فالإمعان فيما نقلناه من أسباب النزول يؤدّي إلى وضوح الآية بتمام معناها والإجابة عن الأسئلة التي طرحناها.

وربّما يُتّخذ ظهور الآية ذريعة لتحليل الحرام، نحو قوله سبحانه:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِي مَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(المائدة:٩٣.).

فربّما تتّخذ الآية دليلاً على جواز شرب المسكر قليلاً، إذا قوي إيمان الرجل وصلح عمله، غفلة عن أنّ الآية ناظرة إلى ما قبل نزول التحريم، ولذلك نرى أنّ قُدامة بن مظعون شرب الخمر في أيام عمر بن الخطاب فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فقال: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِي مَا طَعِمُوا)الآية، فأراد عمر أن يدرأ عنه الحدّ، فقال عليّ(عليه السلام): «أديروه على الصحابة، فإن لم يسمع أحداً منهم قرأ عليه آية التحريم فادرؤا عنه الحدّ، وإن كان قد سمع فاستتيبوه وأقيموا عليه الحدّ، فإن لم يتب وجب عليه القتل».(مجمع البيان:٣/٤٨٤.)

يقول السيوطي: وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدي كرب أنّهما كانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتّجان بقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِي مَا طَعِمُوا). ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك، وهو: أنّ ناساً قالوا لمّا حُرّمت الخمر: كيف بمن قتل في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت. أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما.(الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٩٣.)

أقول: إن إجتهاد الرجلين لم يكن على أساس صحيح، فاستنباط الحكم الشرعي من آية واحدة، مع غض النظر عن سائر الآيات، اجتهاد خاطئ يُعدّ من عمل أنصاف المتعلّمين، إذ كيف تكون الخمر مباحة مع أنّه سبحانه يعدّها من عمل الشيطان ويصفها بأنّها رجس ويأمر بالاجتناب عنها ويقول: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).(المائدة: ٩٠.)

ونظير هذا الاجتهاد ما روي عن بعضهم من حصر المحرّمات فيما جاء في هذه الآية: (قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .(الأنعام: ١٤٥.)

وكأنّه لأجل هذا الحصر حكي عنه بأنّه أحلّ لحم الكلب لعدم ذكره في الآية، ولكن الاجتهاد في غير محلّه، نابع عن الغفلة في سياق الآية، وما جاء في سورة أُخرى، وذلك لأن العرب قبل البعثة حرّموا كثيراً من الأنعام واللحوم كما يدلّ عليه قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ).(المائدة: ١٠٣.)

وفي نفس السورة الّتي فيها آيتنا هذه ورد قوله سبحانه: (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(الأنعام: ١٣٨ ـ ١٣٩.). ثم إنّه سبحانه يردّ عليهم بقوله: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).(الأنعام: ١٤٣ ـ ١٤٤.)

ثم إنّ الذكر الحكيم في ردّ هذه البدع والتشكيكات الشيطانية، يقول: (مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا)أُمور أربعة:

١. الميتة. ٢. الدم المسفوح. ٣. لحم الخنزير. ٤. ما أهل لغير الله به .

لا ما تدّعون من المحرّمات الّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وأمّا أنّه ليس هنا محرّم آخر فالآية غير ناظرة إلى جانب النفي وإنّما تؤكّد على جانب الإثبات، يعني هذه هي المحرّمات لا ما تدّعون من السائبة والوصيلة وغيرها، وعند ذلك كيف يستدلّ بها على حصر المحرّمات في الأربعة؟

القرآن كتاب الأجيال والقرون

الإسلام دين عالمي وكتابه كتاب للعالمين عبر القرون، يقول سبحانه:

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)(ص: ٨٧ .) وقال سبحانه: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا).(يس: ٦٩ ـ ٧٠ .) إلى غير ذلك من الآيات الّتي تدلّ على كون الذكر الحكيم لعامّة الناس منذ نزوله إلى يوم لقاء الله تعالى، ولو أردنا أن نذكر ما يدلّ على سعة رقعة الذكر الحكيم لطال بنا الكلام، وعلى ذلك فالعبرة في الأخذ بمفاد الآية هو عموم الدليل وإطلاقه لا السبب، إذ لو كانت العبرة بالسبب لزم كون التشريع بالقرآن الكريم مختصّاً بفئة دون فئة، وأين هذا من قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)(الأعراف: ١٥٨ .) وبذلك يُعلم أنّه ربّما يُعد من ثمرات أسباب النزول تخصيص الحكم بخصوص السبب، ليس بشيء ومعنى ذلك تخصيص التشريعات برجل وامرأة صارا سبباً لنزول الآية، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر، وآية اللعان في شأن هلال بن أُمية، وآية حدّ القذف في مَن رمى إحدى زوجات النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلى غير ذلك من الآيات، وهذا النوع من التفكير غفلة عن موقف القرآن الكريم حيث حاولوا تخصيص تشريعاته بمورد خاص. وقد روي عن الإمام الباقر(عليه السلام)ما يصرّح بما ذكرنا من أن العبرة بعموم اللفظ وإطلاقه، حيث قال: لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية، مات الكتاب، ولكنّه يجري فيمَن بقي كما جرى فيمَن مضى.(الكافي:١/١٩٢ برقم ٣.)

التأكّد من صحّة سبب النزول

قد تقدّم أن الرجوع إلى سبب النزول لا يخلو من فائدة وهي رفع الإبهام عن وجه الآية، غير أنّ ما روي من أسباب النزول لا يخلو من هَن وهنّ، فالسائد على الأكثر هو الإرسال فضلاً عن الوضع والدّس في قسم منها، وهذا ما يصرّح به الإمامان في علوم القرآن الكريم(الزركشي والسيوطي).

قال بدر الدين الزركشي: يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنّه كثير .

وقال الميموني: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: ثلاث ليس لها أُصول أو لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير.

قال المحقّقون من أصحابه: يعني أنّ الغالب، أنّها ليس لها أسانيد صحاح متّصلة الإسناد. وإلاّ فقد صحّ من ذلك كثير.(البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٧٣ .)

وقال جلال الدين السيوطي: الّذي صحّ من ذلك قليل جدّاً، بل أصل المرفوع منه (أي المتّصل الإسناد) في (غاية) غالب القلّة... ثم ذكر في نهاية كتابه ما لا يبلغ على الثلاثمائة حديث مرفوع، ما بين ضعيف وسقيم، وموصل، والباقي مرسل لا حجيّة فيه أصلاً.(الإتقان في علوم القرآن: ٤ / ١٨١ و ٢١٤ ـ ٢٥٧. وفي طبعة أُخرى: ٢ / ٤٧٣ .)

وها نحن نذكر نماذج من الروايات الّتي ذكرت أسباب النزول والّتي لا تصدقها الدلائل القطعية:

١. أُسطورة الغرانيق

وهي أنّ النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)قرأ: (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرى)(النجم: ١٩ ـ ٢٠ .) ألقى الشيطان على

لسانه، بِما كان يحدّث به نفسه ويتمنّى أن يأتي به قومه: «تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهن ترتَجى» .

وهذه الأُسطورة رواها الطبري في تفسيره وتاريخه، ويجترّها المستشرقون، وهي باطلة تماماً، وقد شرحنا حال القصة في تفسيرنا لسورة النجم .(لاحظ : منية الطالبين في تفسير القرآن المبين: ٢٧ / ١٢٩ ـ ١٣٢ .)

٢. تأخير نزول الوحي لجرو ميّت تحت السرير

قد جمع أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري أسباب النزول في كتاب واحد رتّبها على حسب السور، فنقل عن حفص بن سعيد القرشي قال: حدّثتني أُمّي عن أُمّها خولة ـ وكانت خادمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ماحدث في بيتي؟ جبرئيل (عليه السلام) لا يأتيني، قالت خولة: لو هيّأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل، فلم أزل حتّى أخرجته فإذا جرو ميّت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبيّ الله ترعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة، فقال: يا خولة دثّريني، فأنزل الله تعالى: (وَالضُّحى * وَاللَيلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى).(أسباب النزول: ٢٥٦ .)

يلاحظ عليه:ـ مضافاً إلى غرابة المضمون جدّاً ـ أنّ السورة مكيّة وهذه الآية كذلك، وأمّا السيّدة خولة فقد كانت خادمة للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)في المدينة المنوّرة، فكيف الجمع بين الأمرين؟!

ثم إنّ ابن الأثير نقل الخبر بسنده عن حفص بن سعيد القرشي... إلى آخره، ثم قال(صلى الله عليه وآله وسلم) كذا قيل: والصحيح أنّ هذه السورة نزلت من أوّل ما نزل من القرآن، لمّا انقطع عنه الوحي، فقال المشركون: إنّ محمداً قد ودّعه ربُّه، فأنزل الله هذه السورة .(أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ٥ / ٢٧١ .)

٣.امتناع أبي طالب عن التكلّم بالتوحيد

روى النيسابوري أيضاً بسنده عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه، قال: لمّا حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية فقال: أي عمّ قل معي: (لا إله إلاّ الله) أحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أُميّة: يا أباطالب أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلّمانه حتّى قال آخر شيء كلمهم به «على ملّة عبدالمطلب»، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لأستغفرن لك ما لم أُنه عنه، فنزلت: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)(التوبة:١١٣.).(أسباب النزول: ١٥٠.)

يلاحظ عليه بوجهين:

الأوّل: أن أبا طالب مات في السنة العاشرة من البعثة وسورة التوبة نزلت في السنة التاسعة من الهجرة النبوية أي بعد وفاة أبي طالب باثنتي عشرة سنة، فكيف يكون امتناع أبي طالب ووعد النبي سبباً لنزول هذه الآية.

ثم إنّ السيوطي لمّا وقف على ما ذكرنا حاول حلّ المشكلة بالحمل على تعدّد النزول وتكرّره خصوصاً أنّ القصّة نقلها الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهو جمع بلا دليل.

الثاني:أنّ الدلائل القاطعة التي لا يشكُّ في صحّتها مَنْ له أدنى درجة من الإنصاف، أنّ أبا طالب آمن برسول الله، منذ بعث إلى أن لبّى دعوة ربه، وتشهد على ذلك أشعاره وأقواله، وتفانيه في الدفاع عن نبي الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم)، وحياته في شعب أبي طالب ثلاث سنين لا يجد فيها شيخ البطحاء ما يسدّ به جوعه وعطشه، ومن أراد أن يقف على آثاره الأدبية فليرجع إلى ديوان شعره، وقد فصّلنا الكلام في هذا الموضوع في محاضراتنا المطبوعة باسم «سيد المرسلين».(لاحظ: سيد المرسلين:١/٥٢٤ـ٥٣٣.)

٤. صلاة رسول الله على المنافق

روى البخاري عن نافع عن ابن عمر قال: لمّا توفّي عبد الله بن أُبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يُصلّي عليه، فقام رسول الله ليصلّي، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله تصلّي عليه وقد نهاك ربّك أن تصلّي عليه. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّما خيّرني الله فقال:(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)وسأزيده على السبعين. قال: إنّه منافق. قال: فصلّى عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فأنزل الله تعالى: (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ).(صحيح البخاري:١١٥٣، برقم ٤٦٧٠، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة.)

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ في نفس الحديث دليلاً واضحاً على كذبه ووضعه حيث يشتمل على التناقض؛ وذلك لأنّ عمر بن الخطاب يقول: تصلّي عليه وقد نهاك ربك أن تصلّي عليه، مع أنّ النهي نزل بعد حواره مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث جاء في آخر الرواية: فصلى عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم انصرف فلم يمكث إلاّ يسيراً حتّى نزلت الآيتان من براءة (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا).

وثانياً: أنّ كلّ عربي صميم يفهم من قوله سبحانه: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(التوبة:٨٠.) يفهم من هذه الآية أنّ عدد السبعين جاء للمبالغة، وأنّ الآية بصدد عدم الفائدة من الاستغفار لهم، لأنّ الاستغفار إنّما يفيد إذا كان المحل قابلاً للغفران وهؤلاء (كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) فلا يفيدهم الاستغفار أبداً.

هذا ما فهمه عمر بن الخطاب، ولا يختصّ به؛ بل كلّ عربي صميم يفهم هذا المعنى من الآية، ولكن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فهم منه التخيير، ولذا قال: «إنّما خيّرني الله... وسأزيد على السبعين».

ومعنى ذلك أنّ عمر أفهم بمفاد الوحي ممّن نزل عليه الوحي!! مع أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) هو المعلم دون غيره، كما قال سبحانه: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَل مُبِين)(الجمعة:٢.).

ثمّ إنّ شرّاح الصحيحين وعلى رأسهم ابن حجر في فتح الباري مالوا يميناً ويساراً ليجعلوا للقصّة معنى صحيحاً.(لاحظ: فتح الباري:٨/٢٥٢ـ٢٥٣.) مع أنّه كلّما حاولوا الإصلاح لم يأتوا بشيء يسكن إليه القلب، وإلى الله المشتكى.

٥. تصميم النبي على التمثيل بسبعين من المشركين

روى الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم قتل حمزة ومُثِّل به: لئن ظفرت بقريش لأمثلنّ بسبعين رجلاً منهم، فأنزل الله عزّ وجلّ:(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)(النحل:١٢٦.) فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): بل نصبر يا ربّ.(أسباب النزول للواقدي:١٦٣.)

يلاحظ عليه: أنّ سورة النحل مكّية، كما تشهد على ذلك مضامين آياتها، فكيف تكون الآية نازلة بعد استشهاد حمزة في غزوة أُحد؟! مع أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) هو المنادي بالعدالة، فكيف يقول: لأُمثلنّ بسبعين رجلاً منهم، في مقابل رجل واحد؟! فنزل جبرئيل بهذه الآيات.

ولو قيل بإمكان تعدّد النزول فلابد أن يكون منزّهاً عمّا نسب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من التجاوز عن العدل.

والصحيح ما رواه العيّاشي عن الحسن بن حمزة قال:سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول:«لمّا رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ما صُنع بحمزة بن عبد المطلب قال: اللّهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما أرى، ثم قال: لئن ظفرت لأُمثلنّ ولأُمثلنّ،

قال: فأنزل الله:(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أصبر أصبر».(الميزان في تفسير القرآن:١٧/٣٧٧، عن تفسير العيّاشي٢/٢٧٤ برقم ٨٥.)

القصص القرآنية

القصص القرآنية أحد المواضيع التي اهتم بها الذكر الحكيم وربّما تُعدّ أحد ثلاثة محاور رئيسية تدور عليها آياته، وهذه المحاور هي:

أ. العقائد والمعارف والقيم الإيمانية.

ب. القوانين والأحكام.

ج. قصص الأنبياء وحواراتهم.

إنّ القرآن الكريم لم يذكر إلاّ القليل من الأنبياء، إذ بلغ عدد من تعرّض لذكر حياتهم ودورهم في أُممهم التي بعثوا لهدايتها نحو (٢٥)نبيّاً، وإلى هذه الحقيقة أشار سبحانه بقوله:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)(غافر:٧٨.)، ومع ذلك فإنّ فيما ورد في قصصهم غنى وكفاية لما فيها من عبر وعظات ودروس تُستجلى من مواقفهم، وأهمّ محطات حياتهم، ومآل أقوامهم وما أصابها من بأساء وضراء، جزاءً لما اقترفوا من أعمال.

الأنبياء الذين ذُكرت قصصهم فهم:

أمّا الأنبياء الذين ذُكرت قصصهم فهم:

١. آدم أبو البشر.

٢، النبي إدريس معلّم الخط.

٣. نوح شيخ الأنبياء.

٤. هود المبعوث إلى قوم عاد.

٥. النبي صالح المبعوث إلى قوم ثمود.

٦. إبراهيم بطل التوحيد.

٧. إسماعيل الذبيح.

٨. إسحاق بن إبراهيم.

٩. النبي لوط في أرض المؤتفكات.

١٠. النبي شعيب في مدين

١١. يعقوب بن إسحاق.

١٢. يوسف بن يعقوب.

١٣. النبي أيوب الصابر.

١٤. موسى كليم الله.

١٥.هارون أخو موسى

١٦.النبي داود.

١٧. سليمان بن داود.

١٨. النبي إلياس.

١٩. النبي ذو الكفل.

٢٠.النبي اليسع.

٢١. يونس بن متى.

٢٢. النبي زكريا.

٢٣. النبي يحي بن زكريا.

٢٤. النبي عيسى بن مريم.

٢٥. محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين.

هذا كلّه في قصص الأنبياء.

القصص القرآنية في غير الأنبياء

ذكر سبحانه من قصص هؤلاء أربع عشرة قصّة تتعلّق بما يلي:

١. أصحاب الأخدود.

٢. أصحاب الأيكة.

٣. أصحاب الجنة.

٤ . أصحاب الرسّ.

٥. أصحاب السبت.

٦. أصحاب الفيل.

٧. أصحاب القرية.

٨. أصحاب الكهف.

٩. الخارجون من ديارهم حذر الموت.

١٠. ذو القرنين.

١١. القرية الخاوية على عروشها.

١٢. لقمان الحكيم.

١٣. المنسلخ من آيات الله.

١٤. هاروت و ماروت.

***

إنّ التحدّث عن هؤلاء الأنبياء والعظام من غير الأنبياء وتلكم الأقوام من دون أن يكون بيد المحدّث مصدر يستند إليه، أقوى دليل على أنّ الجميع وحي من الله سبحانه.

حيث إنّ المحدّث رجل أُمّي عاش بين أُمّة أُمّية جاهلة، ومع ذلك يقصّ تاريخ حياة هؤلاء بوجه دقيق، وكأنّه عاش معهم وفي زمانهم.

إنّ القصص القرآنية دائرة معارف تحتاج إلى تفسير وتفصيل لما جاء في ثنايا الآيات من عظات وحكم، والغرض إيقاف الإنسان

على حياة الأُمم السابقة وعلائم عزّها ومنعتها، أو هبوطها وسقوطها، وبالتالي الوقوف على سنن الله سبحانه في تاريخ الأُمم.

إنّما المهمّ الوقوف على خصائص هذه القصص، ويمكن الإشارة إلى ميزاتها على نحو الإجمال:

أ. الموضوعية والواقعية

تمتاز القصص القرآنية بالموضوعية والواقعية، خلافاً لأكثر ما يكتب باسم القصّة، فإنّها وليدة خيال الكاتب الذي يُحلّق في سماء الوهم فيأتي بحوادث يصوّرها من عنده بما ينسجم والجو الذي يريد أن يدخله في قصّته.

وعندما يحسّ القارئ أن لا واقعية للقصّة يقلُّ تأثّره بها في مجال العبرة والاتّعاظ، وهذا بخلاف ما لو كانت القصّة حاكية لظاهرة واقعية برزت على سطح الحياة وظهرت آثارها الإيجابية والسلبية، فعندئذ يتّخذ القارئ منها دروساً وعظات وافرة ويتأثّر بمعطياتها.

إنّ الذكر الحكيم يشير إلى هذه الميزة في غير واحدة من آياته ويقول:(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)(آل عمران:٦٢).

فهذه الآية ـ كما نرى ـ تشير إلى أنّ ما في هذه القصص، هو أُمور واقعية وليست خيالية.

ب. تصحيح التحريف

ما يقصّه القرآن الكريم من أنباء الرسل والأنبياء مع أُممهم، ممّا لم ينفرد بذكره القرآن الكريم، بل سجّلته أيضاً الكتب السماوية السالفة، ولكن المائز بينهما أنّ القرآن الكريم حينما يذكر هذه القصص يسردها على ما هي عليه منزهةً عن الترّهات والأباطيل والخرافات، في حين نرى الكتب السماوية الأُخرى المتداولة مشحونة بها.

ومن هنا أصبح القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السماوية، أي ميزاناً لتمييز الحقّ عن الباطل الوارد في الكتب المعروفة بالسماوية.

قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)(المائدة:٤٨).

فالكتاب العزيز بما أنّه مصدّق لما ورد فيما سبقه من الكتب ومسيطرعليها، فهو يقصّ ما ورد فيها على نهج صحيح، ويبيّن ما هو الحقّ من القصّة مجرّداً عمّا ألصق بها من زيادات أو وقع فيها من تحريف.

فلو رغب كتابيٌّ في الوقوف على التوراة أو الإنجيل الصحيحين فعليه أن يرجع إلى القرآن الكريم وبخاصّة في المواضع المشتركة، فإنّه سوف يجد الحقّ الّذي لا مرية فيه.

ج. الإيجاز في سرد القصّة

يهتمّ أغلب القصّاص في كتاباتهم وكلماتهم بالتسلية والفكاهة والإثارة وإبراز قدراتهم في الوصف والبيان، وهذا ما يدعوهم إلى الإطناب، والإشارة إلى كلّ جوانب القصّة سواء أكان مهمّاً أم لا، مؤثّراً كان أم غير مؤثّر، لأنّ الهدف عنده هو التفكّه والإلهاء، والإثارة، ولكن القرآن الكريم لا يستهدف سوى الإشارة إلى الآثار الإيجابية في قصصه، ولذا يوردُ شيئاً ويُعرض عن شيء، وما هذا إلاّ لأنّه يذكر المؤثّر في كلامه وبيت القصيد في بيانه.

وقلّما يتّفق أن يذكر القصّة من أوّلها إلى آخرها وفي عامّة خصوصياتها، إلاّ في مورد واحد وهي قصّة يوسف، لأنّ الإيفاء بالغرض فيها رهن ذكرها جميعاً في موضع واحد، بخلاف سائر القصص فربّما يذكر شيئاً ويترك الباقي.

ولهذا نجد أنّ قصة أبينا آدم وغيره قد توزّعت على أكثر من سورة واحدة، لأنّ الغرض الّذي يرمي إليه القرآن، هو تجلية الأبعاد التربوية والخلقية من القصة، وإبراز مواضع العبرة منها، فيذكر منها ما يكون مؤثّراً في الغاية الّتي سبق لأجلها الكلام.

د. المحافظة على كرامة الأنبياء

يمتاز القرآن الكريم في قصصه بالحفاظ على كرامة الأنبياء، بينما نرى أنّ التوراة تحطّ من كرامتهم. فلم يأت ذكر نبيّ من الأنبياء في القرآن إلاّ وقد أحاطت به هالة من التقديس والتبجيل والتكريم، كما ونزّههم عن الأدناس على وجه الإطلاق. وإليك نماذج من

هذا التكريم:

١. بعد ما يذكر قصّة نوح يقول:(سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)(الصافات:٧٩ـ٨١).

٢. ويصف إبراهيم بقوله:(سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)(الصافات:١٠٩ـ١١١).

٣. ويذكر موسى وهارون ويصفهما بقوله: (سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)(الصافات:١٢٠ـ ١٢٢).

٤. ويذكر النبي الياسين ويصفه بقوله:(سَلاَمٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)(الصافات:١٣٠ـ ١٣٢) .

٥. ويذكر النبي يحي ويصفه بقوله: (أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَة مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)(آل عمران:٣٩).

٦. ويذكر يوسف(عليه السلام) ويقول:(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(يوسف:٢٤).

إلى غير ذلك من كلمات كريمة جُلّل بها الأنبياء الكرام، وتجعلهم مجاري للمُثل العُليا، هذا إذا نظرنا إلى مواصفاتهم، وأمّا لو درسنا قصصهم نرى فيها أنّ القصّة جاءت على كمال الاتزان موافقة لمقتضى العقل الحصيف، بعيدة عن الغلو والخرافة وعمّا لا يليق بأوسط الناس فضلاً عن الأنبياء العظام، وإن كنت في شكّ فقارن بين قصّة نوح في الذكر الحكيم مع ما ورد عنه في التوراة.

وقارن ـ أيضاً ـ قصّة آدم وإبراهيم ولوط في الكتاب الكريم مع ما ورد عنهم في التوراة... إلى غير ذلك من المواضع التي يختلف فيها القرآن الكريم عمّا جاء في التوراة، ولذلك فالقرآن الكريم جاء (مُهَيْمِناً)على عامّة الكتب السماوية، قال سبحانه:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)(المائدة:٤٨).

ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من هذا النوع من الاختلاف، نأتي بموجز القول من كلا الكتابين في مورد هؤلاء الأنبياء العظام.

١. قصّة آدم في التوراة والذكر الحكيم

القرآن الكريم يذكر إغراء الشيطان لآدم بعيداً عن كلّ اسطورة، ويقول: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْك لاَ يَبْلَى)(طه:١٢٠)، فصار هذا سبباً لإصغاء آدم لكلام الشيطان والذي لم يكتف بذلك؛ بل عزّز ذلك بكلام آخر: (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)(الأعراف:٢٠).

وإليك ما ورد في التوراة: وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات الحقول الّتي صنعها الربّ الإله. فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكلا من جميع أشجار الجنة؟ فقالت: المرأة للحيّة: من ثمر أشجار الجنة نأكل، وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها ولا تمسّاها كي لا تموتا». فقالت الحيّة للمرأة: موتاً لا تموتان، فالله عالم أنّكما في يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة تعرفان الخير والشر.(التوراة، سفر التكوين، الإصحاح٣، الفقرات:١ـ ١٦.) أين هذا من ذاك؟!

٢. قصّة نوح(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم قد عرض في قصّة نوح (كما هو الشأن في سائر القصص) ما هو موضع العبرة والعظة والفائدة مع مراعاة مقام النبي وسمّوه وعظمته انسجاماً مع دعوة القرآن إلى إعلاء شأن القيم والفضائل وأصحابها، على خلاف التوراة المتداولة التي أساءت لساحته المقدّسة، استجابة لنزعة الحقد لدى اليهود وسعيهم إلى تحقير الإنسان وإهدار كرامته ونشر الفساد في الأرض.

وممّا جاء في التوراة على سبيل المثال: وابتدأ نوح فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر، وتعرّى في خبائه، فأبصر حام...».(التوراة: سفر التكوين، الإصحاح التاسع).

٣. قصة لوط(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم

الغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكلّ إنسان ليصون بها نسله، لكن إعمالها في الجنس الموافق انحراف عن الفطرة وصرف

للنعمة في غير محلّها.

غير أنّ قوم لوط كانوا متوغّلين في إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، وقد عارضهم النبي لوط إلى حدّ قالوا ـ مهدّدين له ولمن آمنوا معه ـ: (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)(الأعراف:٨٢.)، وفي آية أُخرى: (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)(الشعراء:١٦٧.)، فالله سبحانه نجّاه ومن آمن معه.

ما تقدّم هو وصف القرآن الكريم لنبي الله لوط(عليه السلام). وأمّا التوراة (المحرّفة) فهي تصف هذا الرجل المثالي بالنحو التالي:

وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنّه خاف أن يسكن صُوغَر، فسكن في المغارة هو وابنتاه.

وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلّ الأرض.

هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها... إلى آخر ما جاء في القصّة(التوراة: سفر التكوين: الإصحاح التاسع عشر.)، مع شديد الاعتذار لمقام هذا النبي الجليل.

٤. قصّة يعقوب(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم

يصف الذكر الحكيم النبي يعقوب(عليه السلام) بقوله: (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)(يوسف:٦٨.)، وفي آية أُخرى: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(البقرة:١٣٣.).

وأمّا التوراة، فتصفه بالإنسان الماكر الذي انتهب النبوّة من أخيه «عيسو»، وإن كنت في شكّ من ذلك فاقرأ النص التالي:

أنّ «إسحق» أراد أن يعطي ابنه «عيسو» بركة النبوّة فخادعه «يعقوب» وأوهمه أنّه «عيسو»، وقدّم له طعاماً وخمراً فأكل وشرب، وبهذه الحيلة والكذب المتكرّر توسّل إلى أن باركه الله... ولمّا جاء عيسو علم أنّ أخاه يعقوب قد انتهب بركة النبوة فقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي. فقال: جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. ثم قال عيسو: أما أبقيت لي بركة؟ فقال إسحق: إنّي قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر فما أصنع إليك يا ابني؟ ورفع عيسو صوته وبكى».(التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السابع والعشرون.)

وكأنّ اليهود لم يتوانوا في الحطّ من كرامة الأنبياء حتى لقد مدّوا يد التلبيس إلى حياة أبيهم يعقوب، وجعلوه مزوراً لبّس الأمر على أبيه إسحاق لينتهب النبوّة من عيسو حيث كان مرشحاً لها من قبل أبيه، على ما عرفت.(التمهيد في علوم القرآن:٧/٧٥.)

يقول السيد الخوئي(قدس سره): أفهل يعقل انتهاب النبوّة؟ وهل يعطي الله نبوته لمخادع كاذب، ويحرم منها أهلها؟ وهل أنّ يعقوب بعمله هذا خادع الله أيضاً كما خادع إسحاق، ولم يقدر الله بعد ذلك على إرجاعها إلى أهلها؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.(البيان في تفسير القرآن:٥٢.)

النبي يعقوب يصارع الرب!!

ظهر يعقوب في القصة السابقة بأنّه بطل التدليس، وأمّا في هذه القصة فسيظهر بأنّه بطل المصارعة، حتى أنّه كان يصارع الرب، وإن كنت في شكّ فاقرأ الإصحاح الثاني والعشرين، الفقرات ٢٢ـ ٢٩: ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق. أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتّى طلوع الفجر. ولمّا رأى أنّه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه. فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته عنه معه، وقال: أطلقني لأنّه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله

والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك؟ فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك.(التوراة (العهد القديم): ٥٤، سفر التكوين، الإصحاح٣٢.)

قد اشتهر أنّ التجسيم والتشبيه، ظهر في الديانة اليهودية وهذا ليس بأمر بعيد، ومن صوّر ربّه نازلاً من عرشه، مصارعاً مع عبده، إلى حدٍّ لم يقتدر على غلبته حتى ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حقّ فخذ يعقوب، في مصارعته معه.

أين هذا الكتاب المحرّف الذي يُعرّف أفضل الخلائق بأسوأ الأوصاف، من الكتاب العزيز الذي يعدّهم من المخلصين الذين أخلصوا أنفسهم ودينهم لله تبارك وتعالى.

٥. هارون في التوراة والقرآن الكريم

إنّ الذكر الحكيم يعدّ (هارون) في عداد الأنبياء العظام، قال تعالى:(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) يعني إبراهيم(عليه السلام)(دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ)(الأنعام:٨٤.)، كما يصفه بأنّه كان خليفة موسى(عليه السلام) عند ذهابه إلى الميقات كما يقول: (وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)(الأعراف:١٤٢.).

ويظهر من القرآن المجيد أنّ الاخوين كانا كالفرقدين في كثير من الصفات لا يفترقان، قال سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ)(الأنبياء:٤٨.)، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تدلّ على أنّه من الأنبياء العظام لم يفترق عن سبيل أخيه قيد شعرة.

غير أنّ الظاهر من التوراة أنّه أيضاً عبد العجل كسائر بني إسرائيل، وإن كنت في شك فاقرأ سفر الخروج الإصحاح ٣٢، فقد جاء فيه: ولمّا رأى الشعب أنّ موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأنّ هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم فأتوني بها، فنزع كلّ الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه إلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.(التوراة، سفر الخروج، الإصحاح٣٢، الفقرات ١ـ٦.)

المبحث الثالث والعشرون التفسير و حاجة القرآن إليه

التفسير مأخوذ من «فسّر» بمعنى: أبان و كشف.

قال الراغب: الفَسْر، والسَفْر متقاربا المعنى كتقارب لفظيهما، والفرق بينهما أنّ الأوّل يستعمل في إظهار المعنى المعقول، كقوله سبحانه: (وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرا)(الفرقان: ٣٣.) أي أحسن تبييناً.

والثاني يُستعمل في إبراز الأعيان للأبصار، يقال: أسفر الصبحُ، أو سفرتْ المرأة عن وجهها.(مقدّمة جامع التفاسير للراغب:٣٣.)

وأمّا في الاصطلاح فبما أنّ التفسير علم كسائر العلوم فلا محيص من تعريفه وبيان موضوعه ومسائله وغايته.

أمّا التعريف فقد عرّف بوجوه، منها:

١. هو العلم الباحث عن تبيين دلالات الآيات القرآنية على مراد الله سبحانه.

وبعبارة أُخرى: إزالة الخفاء عن دلالة الآية على المعنى المقصود.

وعرّفه الزركشي بقوله: علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على نبيّه محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم)وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.(البرهان في علوم القرآن:١/٣٣.)

وأمّا موضوعه فهو كلام الله سبحانه المُسمّى بالقرآن الكريم.

وأمّا مسائله فهي ما يستظهر من الآيات بما أنّه مراده سبحانه.

وأمّا الغرض منه فهو الوقوف على مراده سبحانه في مجالي المعارف والمغازي والقصص واستنباط الأحكام الشرعية منه.

ثمّ إنّ الرأي السائد بين المسلمين أنّ القرآن غير غني عن التفسير، إمّا من جانب نفسه كتبيين معنى آية بأُختها، أو تبيينه بكلام مَن نزل على قلبه.

يقول سبحانه:(وَأَنزَلْنَا إِلَيكَ الذّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون)(النحل: ٤٤.) ولم يقل«لتقرأ» بل قال: (لتُبيّن)إشارة إلى أنّ القرآن يحتاج وراء قراءة النبي، إلى تبيين، فلو لم نقل أنّ جميع الآيات بحاجة إليه، فلا أقل أنّ هناك قسماً منها يحتاج إليه بأحد الطريقين: تفسير الآية بالآية، أو تفسيرها بكلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والذي يكشف عن حاجة القرآن إلى التبيين أُمور، نذكر منها ما يلي:

١ . أنّ أسباب النزول للآيات القرآنية، كقرائن حالية اعتمد المتكلّم عليها في إلقاء كلامه بحيث لو قُطع النظر عنها، وقُصِر إلى نفس الآية، لصارت الآية مجملة غير مفهومة، ولو ضمّت إليها تكون واضحة شأن كلّ قرينة منفصلة عن الكلام، وإن شئت لاحظ قوله سبحانه: (وَعَلَى الثّلاثَةِ الّذِينَ خُلِّفُوا حَتّى إذا ضاقَتْ عَلَيهِمُ الأرْضُ بِما رَحُبَتْ وضاقَتْ عَلَيهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلجَأَ مِنَ اللّهِ إلاّ إليهِ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتُوبوا إنّ اللّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحيم)(التوبة: ١١٨.).

ترى أنّ الآية تحكي عن أشخاص ثلاثة تخلّفوا عن الجهاد حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فعند ذلك يسأل الإنسان نفسه، مَن هم هؤلاء الثلاثة؟ ولماذا تخلّفوا؟ ولأيّ سبب ضاقت الأرض والأنفس عليهم؟ وما هو المراد من هذا الضيق؟ ثم ماذا حدث حتى انقلبوا وظنّوا أنّه لا ملجأ من الله إلاّ إليه؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المتراكمة حول الآية، لكن بالرجوع إلى أسباب النزول تتّخذ الآية لنفسها معنى واضحاً لا إبهام فيه.(سيوافيك الكلام في الآية أيضاً عند البحث عن مؤهّلات المفسّر.)

وهذا هو دور أسباب النزول في جميع الآيات، فإنّه يُلقي ضوءاً على الآية ويوضح إبهامها، فلا غنىً للمفسّر من الرجوع إلى أسباب النزول قبل تفسير الآية، وقد مرّ الكلام فيه في مبحث أسباب النزول، المتقدّم.

٢ . أنّ القرآن مشتمل على مجملات كالصلاة والصوم والحجّ لايفهم منها إلاّ معاني مجملة، غير أنّ السنّة كافلة لشرحها، فلاغنىً للمفسّر عن الرجوع إليها في تفسير المجملات.

٣ . أنّ القرآن يشتمل على آيات متشابهة غير واضحة المراد في بدء النظر، وربّما يكون المتبادر منها في بدء الأمر، غير ما أراد الله سبحانه، وإنّما يعلم المراد بإرجاعها إلى المحكمات حتى تفسّر بها، غير أنّ الذين في قلوبهم زيغ، يتبعون ما يتبادر إلى الذهن من الظهور البدائي للآية ويجعلونه تأويل الآية، وأمّا الراسخون في العلم فيتّبعون مراده سبحانه بعدما يظهر من سائر الآيات التي هي أُم الكتاب.

قال سبحانه: (مِنهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فأمّا الّذِينَ في قُلوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنهُ ابتِغاءَ الفِتنَةِ وابتِغاءَ تأويلِه)(آل عمران: ٧.).

وعلى هذا لا غنى من تفسير المتشابهات بفضل المحكمات، وهذا يرجع إلى تفسير القرآن نفسه بنفسه، والآية بأُختها.

٤ . أنّ القرآن المجيد نزل نجوماً، لغاية تثبيت قلب النبي طيلة عهد الرسالة.

قال سبحانه: (وقالَ الّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملَةً واحِدةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلناهُ تَرتيلا)(الفرقان: ٣٢.)، فمقتضى النزول التدريجي تفرّق الآيات الباحثة عن موضوع واحد في سور مختلفة، ومن المعلوم أنّ القضاء في موضوع واحد يتوقّف على

جمع الآيات المربوطة به في مكان واحد حتى يستنطق بعضها ببعض، ويستوضح بعضها ببعض آخر، وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي المعروف: «القرآن يفسّر بعضه بعضاً»(حديث معروف مذكور في التفاسير ولم نقف على مصدره.و لكن يوجد مضمونه في كلام الإمام علي (عليه السلام) التالي.).

وقال الإمام علي (عليه السلام): «كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْض، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْض، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ»(نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣).

وفي كلامه(عليه السلام)ما يعرب عن كون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)هو المفسّر الأوّل للقرآن الكريم يقول:«وَخَلَّفَ فِيكُمْ (أي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)) مَا خَلَّفَتِ الاْنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً، بِغَيْرِ طَرِيق وَاضِح، وَلاَ عَلَم قَائِم. كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ، وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ (متسابقة)، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ (جمله)، وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ» (نهج البلاغة: الخطبة١. والظاهر أنّ قوله: مبيِّناً، بيان لوصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والضمائر ترجع إلى القرآن الكريم لا إلى الله سبحانه.).

وهذه الوجوه ونظائرها تثبت أنّ القرآن لايستغني عن التفسير.

سؤال وإجابة

أمّا السؤال: فربّما يتصوّر أنّ حاجة القرآن إلى التفسير ينافي قوله سبحانه: (وَلَقَد يَسَّرنا القرآنَ لِلذِّكرِ فَهَل مِنْ مُدَّكِر)(القمر: ١٧.) .

ونظيره قوله سبحانه في موارد مختلفة: (بِلسان عَرَبِيّ مُبين)(الشعراء: ١٩٥. وفي سورة النحل: ١٠٣: (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِي مُبِينٌ) .)، فإنَّ تَوصيف القرآن باليسر وَكَونِه بِلسان عَرَبِي مُبين، يهدفان إلى غناه عن أيّ إيضاح وتبيين؟

وأمّا الإجابة: فإنّ وصفه باليسر، أو بأنّه نزل بلغة عربية واضحة يهدفان إلى أمر آخر، وهو أنّ القرآن ليس ككلمات الكهنة المركّبة من الأسجاع والكلمات الغريبة، ولامن قبيل الأحاجي والألغاز، وإنّما هو كتاب سهل واضح، من أراد فهمه، فالطريق مفتوح أمامه؛ وهذا نظير ما إذا أراد رجل وصف كتاب أُلّف في علم الرياضيات أو في الفيزياء أو الكيمياء فيقول: أُلّف الكتاب بلغة واضحة وتعابير سهلة، فلا يهدف قوله هذا إلى استغناء الطالب عن المعلّم ليوضح له المطالب ويفسر له القواعد.

ولأجل ذلك قام المسلمون بعد عهد الرسالة بتدوين ما أُثر عن النبي أو الصحابة والتابعين أو أئمة أهل البيت(عليهم السلام)في مجال كشف المراد وتبيين الآيات، ولم تكن الآيات المتقدّمة رادعة لهم عن القيام بهذا الجهد الكبير.

نعم إنّ المفسّرين في الأجيال المتلاحقة ارتووا من ذلك المنهل العذب (القرآن) ولكلّ طائفة منهم منهاج في الاستفادة من القرآن والاستضاءة بأنواره، فالمنهل واحد والمنهاج مختلف: (لِكُلّ جَعَلنا مِنُكم شِرعةً وَمِنهاجاً)(المائدة: ٤٨.).

القرآن وآفاقه اللامتناهية

يتميّز القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية بآفاقه اللامتناهية كما عبّر عن ذلك خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)وقال: «ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم، وعلى تخومه تخوم، لاتحصى عجائبه، ولاتبلى غرائبه»(الكافي: ٢٣٨/٢.وفي بعض النسخ: له نجوم، وعلى نجومه نجوم.).

وقد عبّر عنه سيد الأوصياء(عليه السلام)، بقوله:

«وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ (تنهدم)أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الاْيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الاْسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنْضِبُهَا

الْمَاتِحُونَ(الماتح: المستقي، وكذلك المتوح. تقول: متح الماء يمتحه متحاً إذا نزعه. صحاح الجوهري: ١ / ٤٠٣، مادة «متح».)، وَ مَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ» (نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨.).

ولأجل ذلك صار القرآن الكريم، النسخة الثانية لعالم الطبيعة الذي لايزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه إلاّ معرفة أنّ الإنسان لايزال في الخطوات الأُولى من التوصّل إلى مكامنه الخفية وأغواره البعيدة.

والمترقّب من الكتاب العزيز النازل من عند الله الجليل، هو ذاك وهو كلام من لاتتصوّر لوجوده وصفاته نهاية، فيناسب أن يكون فعله مشابهاً لوصفه، ووصفه حاكياً عن ذاته، وبالتالي يكون القرآن مرجع الأجيال وملجأ البشرية في جميع العصور.

ولمّا ارتحل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، والتحق بالرفيق الأعلى، وقف المسلمون على أنّ فهم القرآن وإفهامه يتوقّف على تدوين علوم تسهّل التعرّف على القرآن الكريم، ولأجل ذلك قاموا بعملين ضخمين في مجال القرآن:

الأوّل: تأسيس علوم الصرف والنحو واللغة والاشتقاق وما شابهها، لتسهيل التعرّف على مفاهيم ومعاني القرآن الكريم أوّلاً، والسنّة النبوية ثانياً، وإن كانت تقع في طريق أهداف أُخرى أيضاً لكن الغاية القصوى من القيام بتأسيسها وتدوينها، هو فهم القرآن وإفهامه.

الثاني: وضع تفاسير لمختلف الأجيال حسب الأذواق المختلفة لاستجلاء مداليله، ومن هنا لانجد في التاريخ مثيلاً للقرآن الكريم من حيث شدّة اهتمام أتباعه به، وحرصهم على ضبطه، وقراءته، وتجويده، وتفسيره، وتبيينه.

وقد ضبط تاريخ التفسير أسماء ماينوف على ألفين ومائتي تفسير، وعند المقايسة يختصّ ربع هذا العدد بالشيعة الإمامية(لاحظ معجم المفسّرين لـ «عادل نويهض» وطبقات المفسّرين لـ «الحافظ شمس الدين الداودي» المتوفّى عام ٩٤٥ هـ، وما ذكرنا من الإحصاء مأخوذ من« معجم المفسّرين»، كما أنّ ما ذكرنا من أنّ ربع هذا العدد يختصّ بالشيعة مأخوذمن ملاحظة ما جاء في كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» من ذكر ٤٥٠ تفسيراً للشيعة.

ولكن الحقيقة فوق ذلك، فإنّ كلّ ما قام به علماء الشيعة في مجال التفسير باللغات المختلفة في العصر الحاضر لم يذكر في الذريعة، ولأجل ذلك يصحّ أن يقال: إنّ ثلث هذا العدد يختصّ بالشيعة، كما أنّه فات صاحب «معجم المفسّرين» ذكر عدّة من كتب التفسير للشيعة الإمامية وإن كان تتّبعه جديراً بالتقدير. ولقد أتينا بذكر أُمّة كبيرة من المفسّرين الشيعة من عصر الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا، من الذين قاموا بتفسير القرآن بألوان مختلفة، في تقديمنا لكتاب «التبيان» لشيخ الطائفة الطوسي(قدس سره) وقد طبع مع الجزء الأوّل. كما طُبع أيضاً في نهاية الجزء العاشر من موسوعاتنا التفسيرية«مفاهيم القرآن».).

هذا ماتوصّل إلى إحصائه المحقّقون من طريق الفهارس ومراجعة المكتبات عدا ما فاتهم ذكره ممّا ضاع في الحوادث المؤسفة كالحرق والغرق والغارة.

وعلى ضوء هذا تصعب جدّاً الإحاطة بعدد التفاسير وأسمائها وخصوصياتها طيلة أربعة عشر قرناً حسب اختلاف بيئاتهم وقابلياتهم وأذواقهم.

المبحث الرابع والعشرون مؤهلات المفسّرأوشروط المفسّر وآدابه

فتح المفسّرون باباً باسم «معرفة شروط المفسّر وآدابه» وذكروا كلّ ما يحتاج إليه المفسّر في تفسير كلام الله العزيز، فمنهم من اختصر كالراغب الإصفهاني في «مقدّمة جامع التفاسير»، ومنهم من أسهب كالزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن » و السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن»، ونحن نسلك طريقاً وسطاً في هذا المضمار. وبما أنّ ما ذكره الراغب صار أساساً لكلّ من جاء بعده، نأتي هنا بملخّص ما ذكره، ثمّ ندخل في صلب الموضوع ، فنقول:

ذكر الراغب الإصفهاني في «مقدّمة جامع التفاسير» الشروط التالية:

الأوّل: معرفة الألفاظ، وهو علم اللغة.

الثاني: مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض، وهو علم الاشتقاق.

الثالث: معرفة أحكام ما يعرض الألفاظ من الأبنية والتعاريف والإعراب، وهو الصرف والنحو.

الرابع: ما يتعلّق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات.

الخامس: ما يتعلّق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات، وشرح الأقاصيص التي تنطوي عليها السور من ذكر الأنبياء (عليهم السلام) والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

السادس: ذكر السنن المنقولة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وعمّن شهد الوحي ممّن اتّفقوا عليه وما اختلفوا فيه ممّا هو بيان لمجمل أو تفسير لمبهم، المنبأ عنه بقوله تعالى: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكر لِتُبَيِّنَ لِلنّاس ما نزل إليهم)(النحل:٤٤.)، وبقوله تعالى: (أُولئِكَ الَّذِينَ هَدى اللّه فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه)(الأنعام:٩٠.)، وذلك علم السنن.

السابع: معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف، والمجمل والمفصّل، والقياسات الشرعية، والمواضع التي يصحّ فيها القياس والتي لا يصحّ، وهو علم أُصول الفقه.

الثامن: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث الّتي هي سياسة النفس والأقارب والرعية مع التمسّك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد.

التاسع: معرفة الأدلّة العقلية والبراهين الحقيقية والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونات، وغير ذلك، وهو علم الكلام.

العاشر: علم الموهبة، وذلك علم يورثه اللّه مَنْ عَمِلَ بما علم، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «قالت الحكمة: مَن أرادني فليعمل بأحسن ما علم» ثمّ تلا: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه) (الزمر:١٨.).

وما روي عنه حين سئل: هل عندك علم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يقع إلى غيرك؟ قال: لا، إلاّ كتاب اللّه و ما في صحيفتي (الثابت عندنا غير هذا، بل الثابت كتاب علي(عليه السلام) بإملاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المخزون عند الأئمة الطاهرين(عليهم السلام).)، وفهم يؤتيه اللّه مَن يشاء وهذا هو التذكّر الذي رجّانا تعالى إدراكه بفعل الصالحات، حيث قال: (إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذي القُربى) (النحل:٩٠.) إلى قوله: (لعلّكُمْ تَذَكَّرُون) ، وهو الهداية المزيدة للمهتدي في قوله: (وَالّذِينَ اهتَدَوْا زادَهُمْ هُدى)(محمد:١٧.)، وهو الطيب من القول المذكور في قوله: (وَهُدُوا إِلى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَولِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الحَمِيد).(الحج:٢٤.)

فجملة العلوم التي هي كالآلة للمفسّر، ولا تتمّ صناعة إلاّ بها، هي هذه العشرة: علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات، والسير، والحديث، وأُصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة. فمَن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها خرج عن كونه مفسّراً للقرآن برأيه.(مقدّمة جامع التفاسير: ٩٤ ـ ٩٦، نشر دار الدعوة.)

هذا نصّ كلام الراغب الإصفهاني، وقد ذكر أُمّهات الشرائط التي ينبغي على المفسّر التحلّي بها، وبيت القصيد في كلامه هو ما ذكره في الشرط العاشر وهو علم الموهبة.

والحقّ أنّ تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى ذوق خاص على حدّ يخالط القرآن روحه وقلبه ويتجرّد في تفسيره عن كلّ نزعة وتحيّز، وهو عزيز المنال والوجود بين المفسّرين.

ولكن الذي يؤخذ على الراغب الإصفهاني هو أنّ بعض ما عدّه من شروط التفسير يعدّ من كمال علم التفسير، كالعلم بأُصول

الفقه وعلم الكلام، فإنّ تفسير الكتاب العزيز لا يتوقّف على ذينك العلمين على ما فيهما من المباحث التي لاتمتُّ إلى الكتاب بصلة.نعم معرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد وكيفية العلاج، أو معرفة العموم والخصوص وكيفية التخصيص، والإجماع والاختلاف وأُسلوب الجمع بينهما، والمجمل والمبيّن ـ التي هي من مباحث علم الأُصول ـ ممّا يتوقّف عليه تفسير الكتاب، كما أنّ الآيات التي تتضمّن المعارف الغيبية كالاستدلال على توحيد ذاته وفعله وعبادته لا تفسّر إلاّ من خلال الوقوف على ما فيها من المباحث العقلية التي حقّقها علماء الكلام والعقائد، وهذا واضح لمن له أدنى إلمام بالقرآن.

وما ربّما يقال من أنّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا مفسّرين للقرآن على الرغم من عدم اطّلاعهم على أغلب هذه المباحث، غير تام؛ فإنّ المعلّم الأوّل ـ بعد النبيّ ـ للتفسير و المصدر الأوّل للعلوم الإسلامية هو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقد روي عنه في علم الكلام ما جعله مرجعاً في ذينك العلمين حتّى فيما يرجع إلى أُصول الفقه من معرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص، قال (عليه السلام): «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلا، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً. وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

إلى أن قال بعد تقسيم الناس إلى أربعة أقسام:

«وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ، وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْء مَوْضِعَهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٢١٠.)

هذا بعض كلامه (عليه السلام)حول ما يمتّ إلى أُصول الفقه، وأمّا كلامه فيما له صلة بالعقائد والمباحث الكلامية فحدّث عنه ولا حرج، فهذه خُطَبه (عليه السلام)فيها، وقد أخذ عنه علماء الكلام ما أخذوا.(لاحظ: بحوث في الملل والنحل:٣/١٨٧ـ١٩٢.)

وأمّا مَن لا خبرة له بهذين العلمين من الأقدمين فقد اقتصروا بالتفسير بالمأثور وتركوا البحث فيما لم يرد فيه نص، ولذا عاد تفسيرهم تفسيراً نقلياً محضاً، وسيوافيك البحث في هذا النوع من التفسير.

إلى هنا تمّ ما أردنا نقله من كلام الراغب،وبما أنّ لجلال الدين السيوطي كلاماً في شروط التفسير نذكره لما فيه من اللطافة وإن كان ذيله لا يخلو من الشذوذ، قال:

قال العلماء: مَن أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أوّلاً من القرآن، فما أُجملَ منه في مكان، فقد فُسّر في موضع آخر؛ وما اختصر في مكان، فقد بُسط في موضع آخر منه.

وقد ألّف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسّر في موضع آخر منه، وأشار إلى أمثلة منه في نوع المجمل.

فإن أعياه ذلك طلبه من السنّة، فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الشافعي: كلّ ما حكم به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو ممّا فهمه من القرآن، قال تعالى: (إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّه)(النساء:١٠٥.) في آيات أُخر وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «ألا إنّي أُوتيت القرآن ومثله معه»، يعني السنّة.

فإن لم يجده في السنّة رجع إلى أقوال الصحابة، فإنّهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصّوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح.(الإتقان في علوم القرآن:٢/١١٩٧.)

فما ألطف كلامه في المقطعين الأوّلين دون المقطع الثالث فقد بخس فيه حقوق أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، فإنّ السنّة النبوية ليست منحصرة بما رواه الصحابة والتابعون، فإنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)عيبة علم النبي ووعاة سننه، فقد رووا عن آبائهم

عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) روايات في تفسير القرآن الكريم، كيف وهم أحد الثقلين اللّذين تركهما رسول الله وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي». ولعمر الله إنّ الإعراض عن أحاديث أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) لخسارة فادحة على الإسلام والمسلمين . ثمّ إنّ الرجوع إلى أقوال الصحابة لا ينجع مالم ترفع أقوالهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فمجرّد أنّهم شاهدوا الوحي والتنزيل لا يثبت حجّية أقوالهم ما لم يسند إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، والقول بحجّية قول الصحابي بمجرّد نقله وإن لم يسند قوله إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قول فارغ عن الدليل، فإنّه سبحانه لم يبعث إلاّ نبيّاً واحداً لا أنبياء حسب عدد الصحابة إلاّ أن يرجع قولهم إلى قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). إذا عرفت كلام هذين العلمين فلنذكر شروط التفسير حسب ما نراها.
شروط التفسير ومؤهّلات المفسّر
لا محيص للمفسّر من تبنّي علوم يتوقّف عليها فهم الآية وتبيينها، وهذه الشروط تأتي تحت عناوين خاصّة، مع تفاصيلها:
١. معرفة قواعد اللغة العربية
إنّ القرآن الكريم نزل باللغة العربية، قال سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِين * بِلسان عَرَبيّ مُبِين)(الشعراء:١٩٣ـ١٩٥.)، ومعرفة اللغة العربية فرع معرفة علم النحو والاشتقاق والصرف. فبعلم النحو يميّز الفاعل عن المفعول، والمفعول عن التمييز، إلى غير ذلك من القواعد التي يتوقّف عليها فهم معرفة اللغة. وأمّا الاشتقاق فهو الذي يُبيّن لنا مادة الكلمة وأصلها حتى نرجع في تبيين معناها إلى جذورها، وهذا أمر مهم زلّت فيه أقدام كثير من الباحثين، هذا هو المستشرق «فوجل» مؤلّف «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» الذي جعله كالمعجم لألفاظ القرآن الكريم وطبع لأوّل مرة عام ١٨٤٢م، قد التبست عليه جذور الكلمات في موارد كثيرة، ذكر فهرسها محمد فؤاد عبدالباقي مؤلّف «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» في أوّل معجمه. حيث زعم أنّ قوله: «وقرن» في قوله سبحانه مخاطباً لنساء النبيّ: (وَقرن في بُيوتِكُنَّ)(الأحزاب:٣٣.) مأخوذ من قَرَن مع أنّه مأخوذ من «قرّ» فأين القَرْن من القرّ والاستقرار؟! كما زعم أنّ المرضى في قوله سبحانه: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لاَ عَلَى الْمَرْضَى) (التوبة:٩١.) مأخوذ من رضي مع أنّه مأخوذ من مرض، فأين الرضا من المرض؟! و قس على ذلك غيره. وأمّا علم الصرف فبه يعرف الماضي عن المضارع وكلاهما عن الأمروالنهي إلى غير ذلك، وما ذكرناه من الشرط ليس تفسيراً لخصوص القرآن الكريم، بل هو شرط لتفسير كلّ أثر عربي وصل إلينا.
٢. معاني المفردات
إنّ الجملة تتركّب من مفردات عديدة يحصل من اجتماعها جملة مفيدة للمخاطب، فالعلم بالمفردات شرط لازم للتفسير، فلولا العلم بمعنى «الصعيد» كيف يمكن أن يفسّر قوله سبحانه: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)(المائدة:٦.). وقد قام ثلّة من الباحثين بتفسير مفردات القرآن، و في طليعتهم أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (المتوفّى عام ٥٠٢هـ) فألّف كتابه المعروف بـ «المفردات» و هو كتاب قيّم،وأعقبه في التأليف مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) فألّف كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» وهو و إن كان يفسّر غريب الحديث لكن ربّما يستفيد منه المفسّر في بعض الموارد. نعم ما ألّفه المحقّق فخر الدين بن محمد بن علي الطريحي (المتوفّى عام ١٠٨٥هـ) باسم «مجمع البحرين ومطلع النيرين» يعمّ غريب

القرآن والحديث معاً، و هذا لا يعني عدم الحاجة إلى الرجوع إلى سائر المعاجم، كالصحاح للجوهري (المتوفّى ٣٩٣هـ)، ولسان العرب لابن منظور الافريقي (المتوفّى ٧٠٧هـ)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (المتوفّى ٨٣٤هـ) .

وفي المقام أمر مهمّ، وهو أن يهتمّ المفسِّر بأُصول المعاني التي تشتقّ منها معان أُخرى، فإنّ كلام العرب مشحون بالمجاز والكنايات، فربّما يستعمل اللفظ لمناسبة خاصة في معنى قريب من المعنى الأوّل فيبدو للمبتدئ أنّ المعنى الثاني هو المعنى الأصلي للكلمة يفسّر بها الآية مع أنّها معنى فرعيّ اشتقّ منه لمناسبة من المناسبات.

وأفضل كتاب أُلّف في هذا الموضوع ـ أي إرجاع المعاني المتفرّعة إلى أُصولها ـ كتابان:

أ: «المقاييس» لأحمد بن فارس بن زكريا (المتوفّى ٣٩٥هـ) و قد طبع في ستة أجزاء.

ب: «أساس البلاغة» لمحمود الزمخشري (المتوفّى عام ٥٣٨هـ). فبالمراجعة إلى ذينك المرجعين يعرف المفسِّر المعنى الأصلي الذي يجب أن تُفسر به الكلمة في القرآن الكريم مالم تقم القرينة على خلافه، ولنأت بمثال:

قال سبحانه في قصة آدم: (وَعَصى آدمُ رَبَّهُ فَغَوى) (طه:١٢١)، فإنّ بعض المتعاطين لعلم التفسير يتّخذون الكلمتين ذريعة لعدم عصمة آدم بذريعة أنّ لفظة «عصى» عبارة عن المعصية المصطلحة، و«الغواية» ترادف الضلالة، لكن الرجوع إلى أُصول المعاني يعطي انطباعاً غير ذلك، فلا لفظة «عصى» ترادف العصيان المصطلح، ولا الغواية ترادف الضلالة.

أمّا العصيان فهو بمعنى خلاف الطاعة.

يقول ابن منظور: العصيان خلاف الطاعة، والعاصي الفصيل، إذا لم يتّبع أُمّه. (لسان العرب:١٤/٦٧).

فمَن خالف أمر مولاه، أو نصح الناصح، يقال: عصى، وعلى ذلك فليس كلمة «عصى» إلاّ موضوعة لمطلق المخالفة، سواء أكانت معصية كما إذا خالف أمر مولاه، أم لم تكن كما إذا خالف نصح الناصح.

ولا يمكن أن يستدلّ بإطلاق اللفظ على أنّ المورد من قبيل مخالفة الأمر المولوي مع احتمال كونه أمراً إرشادياً أو نصيحة، لما في المخالفة من التعب والوصب .

وأمّا الغيّ فهو ـ كما في لسان العرب ـ يستعمل في الخيبة والفساد والضلال (لسان العرب:١٤/١٤٠)، ومن الواضح أنّ هذه المعاني أعمّ من المعصية الاصطلاحية، ومن مخالفة نصح الناصح.

٣. تفسير القرآن بالقرآن

إنّ القرآن الكريم يصف نفسه بأنّه تبيان لكلّ شيء و يقول: (وَنَزّلنا عَلَيْكَ الكِتاب تِبْياناً لِكُلِّ شَيْء) (النحل:٨٩) فهل يصحّ أن يكون مبيّناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه إذا كان فيه إجمال؟

هذا من جانب ، ومن جانب آخر أنّ القرآن تناول موضوعات مهمّة في سور متعدّدة لغايات مختلفة، فربّما يذكر الموضوع على وجه الإجمال في موضع ويفصّله في موضع آخر، فما أجمله في مكان فقد فصّله في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنّه قد بسطه في مكان آخر، و بذلك يمكن رفع إجمال الآية الأُولى بالآية الثانية، كيف وقد وصفه سبحانه بقوله: (اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتشابِهاً مَثَانِيَ) (الزمر:٢٣)، فإنّ المراد من المتشابه هو تشابه معاني الآيات بعضها مع بعض وتسانخها وتكرّر مضامينها بقرينة قوله:(مَثَانِيَ) ، و بذلك يظهر أنّ رفع إجمال الآية بنظيرتها شيء دعا إليه القرآن الكريم لكن بعد الإمعان والدقة فيه. ولنضرب لذلك مثالاً:

يقول سبحانه في وصف تعذيب قوم لوط: (وَأَمْطرنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِين) (الشعراء:١٧٣). ربّما يتصوّر القارئ أنّهم عُذّبوا بالمطر الغزير الذي يستعقب السيل الجارف فغرقوا فيه، ولكن في آية أُخرى أتى سبحانه ما يرفع إبهام الآية فقال:

(وَأَمطرنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيل)(الحجر:٧٤.) فصرّح بأنّهم أُمطروا مطر الحجارة فهلكوا بها، كما أهلك أصحاب الفيل بها كما قال سبحانه: (تَرْمِيهِمْ بِحِجارَة مِنْ سِجّيل)(الفيل:٤.) . ولنأت بمثال آخر:

يقول سبحانه في حقّ اليهود: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَل مِنَ الْغَمامِ وَالمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُور)(البقرة:٢١٠.) فظاهر الآية أنّهم كانوا ينتظرون مجيء اللّه تبارك وتعالى في ظلل من الغمام ولكن الآية الأُخرى ترفع الإبهام وانّ المراد مجيء أمره سبحانه يقول:(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون).(النحل:٣٣.)

٤. الحفاظ على سياق الآيات

إنّ من أهمّ وظائف المفسّر الحفاظ على سياق الآيات الواردة في موضوع واحد؛ فتقطيع الآية بعضها عن بعض، والنظر إلى الجزء دون الكل لا يعطي للآية حقّها في التفسير، فالآيات الواردة في موضوع واحد على وجه التسلسل كباقة من الزهور تكمن نظارتها وجمالها في كونها مجموعة واحدة، وأمّا النظر التجزيئي إليها فيسلب ذلك الجمال والنظارة منها، حتى أنّ بعض الملاحدة دخل من ذلك الباب فحرّف الآية من مكانها وفسّرها بغير واقعها، ولنأت بمثال:

إنّه سبحانه تبارك و تعالى يخاطب بني آدم بخطابات أربعة في بدء الخلقة، أي بعد هبوط آدم إلى الأرض، فخاطب أولاده في تلك الفترة بالخطابات التالية، وقال:

١. (يَا بَني آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللّه لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ). (الأعراف:٢٦.)

٢. (يا بَني آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْءاتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنا الشّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ)(الأعراف:٢٧.).

٣. (يَا بَني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).(الأعراف:٣١.)

٤. (يا بَني آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(الأعراف:٣٥.).

فقد احتجّ مَن ينكر الخاتمية بالآية الأخيرة على أنّه سبحانه يرسل الرسول بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بشهادة هذه الآية التي نزلت على النبي، أعني: (يا بَني آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ...) .

والمسكين فسّر القرآن بالرأي وبرأي مسبق، حيث فَصَلَ هذه الآية عمّا تقدّمها من الآيات التي تحكي خطاب اللّه سبحانه في بدء الخليقة وأنّه سبحانه في تلك الفترة خاطب بني آدم بهذه الآية، فلو كان النبي يتلو هذه الآية، فإنّما يحكي خطاب اللّه سبحانه في ذلك الأوان لا في عصر رسالته وحياته، ويكفي في ذلك مراجعة المجموعة (التي هذه الآية جزء منها في سورة الأعراف) من الآية ١٩ إلى الآية ٣٥، فالجميع بسياق واحد ونظم فارد يحكي خطاب اللّه في بدء الخليقة لا خطابه سبحانه في عهد الرسول، وهذا ما دعانا إلى التركيز على أنّ حفظ السياق أصل من أُصول التفسير.

وما ذكرنا من لزوم الحفاظ على سياق الآيات لا يعني أنّ القرآن الكريم كتاب بشري يأخذ بالبحث في الموضوع فإذا فرغ عنه يبتدئ بموضوع آخر دائماً، وإنّما المراد أنّ الحفاظ على سياق الآيات إذا كان رافعاً للإبهام وكاشفاً عن المراد لا محيص للمفسّر من الرجوع إليه، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم ليس كتاباً بشرياً، فهو ربّما يطرح في ثنايا موضوع واحد موضوعاً آخر له صلة بالموضوع الأصلي ثمّ يرجع إلى الموضوع الأوّل، وإليك شاهدين:

الشاهد الأوّل:
الشاهد الأوّل:إنّ القرآن يبحث في سورة البقرة عن أحكام النساء، مثل المحيض والعدّة والإيلاء وأقسام الطلاق من الآية ٢٢٢ إلى ٢٤٠، ومع ذلك فقد طرح موضوع الصلاة في ثنايا هذه الآيات، وذلك في الآيتين ٢٣٧ و ٢٣٨، ثمّ استأنف البحث في الموضوع السابق، وإليك صورة إجمالية ممّا ذكرنا، يقول سبحانه: (وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالمَعْرُوف). (البقرة:٢٣٢.) ويستمر في البحث في الموضوع بشقوقه المختلفة ويقول: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْفَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَريضَة...) . وقبل أن يُنهي الكلام في الموضوع شرع بالأمر بالصلاة والحفاظ عليها وبالخصوص الصلاة الوسطى ويقول: (حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطى وَقُومُوا للّه قانِتين). (البقرة:٢٣٨.) (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَماعَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون). (البقرة:٢٣٩.) ترى أنّه انتقل من الموضوع الأوّل إلى موضوع آخر، وهو الحفاظ على الصلوات وتعليم كيفية صلاة الخوف، ثمّ بعد ذلك نرى أنّه رجع إلى الموضوع الأوّل وقال: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيةً لأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الحَوْل...) . وأمّا ما هو الحافز إلى بيان حكم الصلاة، قبل إنهاء أحكام المرأة فهو موكول إلى علم التفسير.
الشاهد الثاني
الشاهد الثاني:أخذ الوحي في تبيين مكانة نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمهمّات الثقيلة الملقاة على عاتقهن، وابتدأ به في سورة الأحزاب من الآية ٢٨ وختمها بالآية ٣٥ ، ومع ذلك طرح في ثنايا هذا الموضوع موضوعاً آخر باسم طهارة أهل البيت من الرجس. يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها...). (الأحزاب:٢٨.) ويقول: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيةِ الأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَه). (الأحزاب:٣٣.) وقبل أن يُنهي البحث حول أزواج النبي، حتى قبل أن يكمل تلك الآية، أخذ بالبحث حول أهل البيت على نحو يكون صريحاً أنّ المراد منهم غير أزواج النبي وقال: (إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطهِيراً) . ثمّ رجع إلى الموضوع الأوّل و قال: (واذْكُرْنَ ما يُتلى فِي بُيُوتِكُنَّ من آياتِ اللّه والحِكْمَة) . وأمّا الدليل على أنّه لا صلة لآية التطهير بنساء النبي هو لفظ الآية، أي تذكير ضمائرها «عنكم» ، «يطهركم» وغير ذلك من القرائن المتّصلة والمنفصلة التي تقرأها على وجه التفصيل في قسم التفسير. على أنّ لحن الآيات في نساء النبي هو لحن التنديد والتخويف بخلاف هذه الآية فإنّ لحنها لحن التمجيد والثناء. فأين قوله سبحانه: (يا نِساء النَّبيّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشة مُبيّنة) من قوله سبحانه: (إِنّما يُريدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيتِ)؟!

وأمّا الصلة بين الموضوعين فإليك بيانها:

إنّه سبحانه خاطب نساء النبي بالخطابات التالية، وقال:

١. (يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَة مُبَيِّنَة يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْن) .

٢. (يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ...) .

٣. (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الأُولى) .

فعند ذلك صحّ أن ينتقل إلى الكلام عن أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وذلك لوجهين:

١. تعريفهنّ على جماعة بلغوا في الورع والتقوى، الذروةَ العليا؛ وفي الطهارة عن الرذائل والمساوئ، القمّةَ. وبذلك استحقّوا أن يكونوا أُسوة في الحياة وقدوة في مجال العمل، فيلزم عليهن أن يقتدينّ بهم ويستضيئنّ بضوئهم.

٢. التنبيه على أنّ حياتهنّ مقرونة بحياة أُمّة طاهرة من الرجس ومطهّرة من الدنس، ولهنّ معهم لحمة القرابة ووصلة الحسب، واللازم عليهنّ الحفاظ على شؤون هذه القرابة بالابتعاد عن المعاصي والمساوئ، والتحلّي بما يرضيه سبحانه، ولأجل ذلك يقول سبحانه : (يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِنَ النِّساءِ)، وما هذا إلاّ لقرابتهنّ منه (صلى الله عليه وآله وسلم)وصلتهنّ بأهل بيته. وهي لا تنفك عن المسؤولية الخاصة، فالانتساب للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)ولبيته الرفيع، سبب المسؤولية ومنشؤها، وفي ضوء هذين الوجهين صحّ أن يطرح طهارة أهل البيت في أثناء المحاورة مع نساء النبي والكلام حول شؤونهن.

ولقد قام محقّقو الإمامية ببيان مناسبة العدول في الآية ، نأتي الواحد من تحقيقاتهم، قال السيد القاضي التستري: لا يبعد أن يكون اختلاف آية التطهير مع ما قبلها على طريق الالتفات من الأزواج إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وأهل بيته (عليهم السلام) على معنى أنّ تأديب الأزواج وترغيبهن إلى الصلاح والسداد، من توابع إذهاب الرجس والدنس عن أهل البيت(عليهم السلام).(إحقاق الحق:٢/٥٧٠.)

٥. الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين

إنّ كثيراً من الآيات المتعرّضة لأحكام الأفعال والموضوعات مجملة ورد تفسيرها في السنّة القطعية وإجماع المسلمين وأحاديث أئمّة أهل البيت كالصلاة والزكاة والحجّ وغير ذلك ممّا لا محيص للمفسِّر من الرجوع إليه في رفع الإجمال وتبيين المبهم، وهو أمر واضح.

وهناك سبب ثان للرجوع إليه، وهو أنّه ورد في القرآن مطلق، ولكن أُريد منه المقيّد، كما ورد عموم أُريد منه الخصوص؛ وذلك وفقاً لتشريع القوانين في المجالس التشريعية، فإنّهم يذكرون المطلقات والعمومات في فصل كما يذكرون قيودها ومخصصاتها في فصل آخر باسم الملحق، وقد حذا القرآن في تشريعه هذا الحذو فجاءت المطلقات والعمومات في القرآن الكريم والمقيّد والمخصّص في نفس السنّة، ولنأت بمثال:

يقول سبحانه: (وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا)(البقرة:٢٧٥.) وجاء في السنّة مخصصها، وأنّه لا ربا بين الزوج والزوجة والولد والوالد، فقد أجاز الإسلام الربا هنا.

قال الإمام الصادق(عليه السلام): قال أميرالمؤمنين(عليه السلام): «ليس بين الرجل وولده ربا، وليس بين السيد و عبده ربا».(الوسائل: ١٢، الباب ٧ من أبواب الربا، الحديث ١)

وروى زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام): «ليس بين الرجل وولده، وبينه و بين عبده، ولا بين أهله ربا، إنّما الربا فيما بينك و بين ما لا تملك».(الوسائل: ١٢، الباب ٧ من أبواب الربا، الحديث ٣. وقد ذكر الإمام(عليه السلام) نكتة التشريع في كلامه.)

ولعلّ قوله سبحانه: (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر:٧.) يوحي إلى هذا المعنى.

غير أنّ المهم إحراز صحّة الأحاديث الواردة في تفسير القرآن الكريم، أمّا ما يرجع إلى السنن وتبيين الحلال والحرام بالتخصيص والتقييد فقد وردت فيه روايات صحاح وحسان، إنّما الكلام فيما يرجع إلى المعارف والعقائد والقصص والتاريخ فالحديث الصحيح في ذلك المورد في كتب أهل السنّة قليل جدّاً، يقول الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ثلاث كتب ليس لها أُصول: المغازي، والملاحم، والتفسير. قال المحقّقون من أصحابه: مراده أنّ الغالب أنّها ليس لها أسانيد صحاح متّصلة.(البرهان في علوم القرآن:٢/١٥٦.)

ومن عجيب الأمر أنّه لم يرد عن طرق الصحابة والتابعين مسنداً إلى الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ما يرجع إلى تفسير ما ورد من الآيات حول العقائد والمعارف، وكأنّهم اكتفوا بقراءتها والمرور عليها كما عليه جملة من السلفيّين.

٦. الرجوع إلى العقل الحصيف أو أحد الثقلين

ثمّ إنّه من المعلوم أنّ الإحاطة بمعاني الألفاظ والجمل لا تكفي في تفسير قوله سبحانه: (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكنَّ اللّهَ رَمى)(الأنفال:١٧.)، حيث إنّه يثبت الرمي للرسول وفي الوقت نفسه ينفي عنه وهما متضادان.

كما أنّه لا تكفي الإحاطة بالأدب العربي ومعاني المفردات لفهم قوله سبحانه: (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيم)(آل عمران:١٨.) ، حيث اتّحد الشاهد والمشهود ومع ذلك كيف يشهد على وحدانيته؟!

ففي هذه الآيات لا محيص للمفسِّر من أن يرجع إلى أحد الثقلين، أي بما أُثر عن أئمة أهل البيت، أو إلى العقل الحصيف، وإلاّ تبقى الآية على إجمالها، وبالتالي تصبح قراءة الآية ـ نعوذ باللّه ـ لقلقة لسان.

النبيّ هو المفسّر الأوّل

إنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)حسب القرآن الكريم هو المفسِّر الأوّل، وأنّه لا تقتصر وظيفته في القراءة والتلاوة، بل يتعيّن عليه بعد القراءة تبيان ما أجمل وتفسير ما أُبهم يقول سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون)(النحل:٤٤.).

ترى أنّه سبحانه يجعل غاية النزول بيان الرسول حقائق القرآن للناس مضافاً إلى أنّه سبحانه يشير في بعض الآيات إلى أنّ عليه وراء البيان ، القراءة والجمع، يقول: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنّ عَلَينا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ * فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَينا بَيانَهُ) (القيامة:١٦ـ١٩.).

فالآية ترشد إلى الوظائف الثلاث: (القراءة، والجمع، والبيان) التي على عاتق النبي بأمر من اللّه سبحانه.

أمّا التلاوة يقول سبحانه: (هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ) .(الجمعة:٢.)

وأمّا الجمع فالحقّ أنّه قد جمع القرآن في حياته ولم يترك القرآن متشتّتاً هنا وهناك. وقد مرّ بيانه في مبحث جمع القرآن.

وأمّا البيان فقد كان يبيّن آيات الذكر الحكيم بالتدريج؛ قال أبوعبد الرحمن السلمي: حدّثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان، و عبد اللّه بن مسعود وغيرهما أنّهما كانوا إذا تعلّموا من النبي عشر

آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا:

فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة.(الإتقان في علوم القرآن:٤/١٧٥ـ ١٧٦، ط مصر.)

لكنَّ جميع ما ورد عن النبي من التفسير ـ غير ما ورد من أسباب النزول ـ لا يتجاوز المائتين وعشرين حديثاً تقريباً، وقد أتعب جلال الدين السيوطي نفسه فجمعها من مطاوي الكتب في آخر كتابه «الإتقان» فرتّبها على ترتيب السور من الفاتحة إلى الناس.(لاحظ: الإتقان في علوم القرآن:٤/١٧٠، ط مصر.)

ومن المعلوم أنّ هذا المقدار لا يفي بتفسير القرآن الكريم ولا يمكن لنا التقوّل بأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)تقاعس عن مهمته،

وليس الحل إلاّ أن نقول بأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)أودع علم الكتاب في أحد الثقلين الذين طهرهم الله من الرجس تطهيراً، فقاموا بتفسير القرآن بالمأثور عن النبي المودَع في مجاميع كثيرة يقف عليها المتتبّع في أحاديث الشيعة.(كتفسير البرهان للسيد البحراني، ونور الثقلين للحويزي، وقبلهما تفسير علي بن إبراهيم وغيرها.)

وبما ذكرنا عُلم أنّ الاقتصار في التفسير بالمأثور على ما روي في كتب القوم لا يرفع الحاجة، وليس للمفسّر الواعي محيص من الرجوع إلى ما روي عن علي وأولاده المعصومين (عليهم السلام)في مجال التفسير وهي كثيرة. ولعلّه إليهم يشير قوله سبحانه: (ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا)(فاطر:٣٢.) فالمصطفون من عباده هم الوارثون علم الكتاب.

ولنذكر نموذجاً من تفسير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)لمّا نزل قوله سبحانه: (وَكُلُوا وَاشرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيطُ الأَبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْر)(البقرة:١٨٧.)قال عدي بن حاتم: إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض وأسود، فكنت أنظر فيهما، فلا يتبيّن لي، فضحك رسول الله حتى رؤيت نواجذه، ثمّ قال: «ذلك بياض النهار، وسواد الليل».(مجمع البيان:١/٢٨١، ط صيدا.)

٧. معرفة أسباب النزول

إنّ لمعرفة أسباب النزول دوراً مهمّاً في رفع الإبهام عن الآيات التي وردت في شأن خاص؛ لأنّ القرآن الكريم نزل نجوماً عبر ثلاثة وعشرين عاماً: إجابة لسؤال، أو تنديداً بحادثة، أو تمجيداً لعمل جماعة، إلى غير ذلك من الأسباب التي دعت إلى نزول الآيات؛ فالوقوف على تلك الأسباب لها دور في فهم الآية بحدّها، ورفع الإبهام عنها، وقد مرّ الكلام فيه عند دراسة أسباب النزول فلا نعيد.

وفي الختام نضيف: أنّه لا يمكن الاعتماد على كلّ ما ورد في الكتب باسم أسباب النزول، بل لابدّ من التحقيق حول سنده والكتاب الذي ورد فيه، فإنّ أكثر المفسّرين في القرون الأُولى أخذوا علم التفسير من مستسلمة أهل الكتاب، خصوصاً فيما يرجع إلى قصص الأنبياء وسيرة أقوامهم، فلا يمكن الاعتماد على كلام هؤلاء.

يقول المحقّق الشيخ محمد جواد البلاغي: وأمّا الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء والضحّاك، كما ملئت كتب التفسير بأقوالهم المرسلة، فهو ممّا لا يعذر فيه المسلم في أمر دينه فيما بينه وبين الله ولا تقوم به الحجّة، لأنّ تلك الأقوال إن كانت روايات فهي مراسيل مقطوعة، ولا يكون حجّة من المسانيد إلاّ ما ابتنى على قواعد العلم الديني الرصينة، ولو لم يكن من الصوارف عنهم إلاّ ما ذكر في كتب الرجال لأهل السنّة لكفى.(آلاء الرحمن في تفسير القرآن:١/٤٥ـ٤٦.)

ثمّ ذكر (قدس سره)ما ذكره علماء الرجال في كتبهم في حقّ عكرمة ومجاهد وعطاء والضحّاك وقتادة ومقاتل، الذين هم المراجع في نقل كثير من الإسرائيليات والمسيحيات في تفسير الآيات.

٨. الإحاطة بتاريخ صدر الإسلام

بُعِث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)من بين أُمّة أُميّة لها ثقافتها الخاصّة وتقاليدها وعاداتها، فالقرآن الكريم يشير في كثير من الآيات إلى تلك العادات الجاهلية المتوارثة، إنّ الاطّلاع على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يوضح مفاد كثير من الآيات ويكشف النقاب عنها، فلنذكر نماذج لذلك:

أ: أنّه سبحانه يذكر في سورة الأنعام تقاليد العرب وعاداتهم ويقول:

(وَجعَلُوا للّه مِمّا ذَرأَ مِنَ الحَرْثِ والأَنعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا للّه بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُركائِنا فَما كانَ لِشُركائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلى اللّه وما كانَ للّه فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُون * وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِير مِنَ المُشْرِكينَ قَتْلَ أَولادِهِمْ شُركاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ * وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسمَ اللّه عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ).(الأنعام: ١٣٦ ـ ١٣٨.)

إنّ هذه الآيات يسودها كثير من الغموض والإبهام، ولكن إذا رجعنا إلى ما رواه المؤرّخون في ذلك المضمار عن تقاليد العرب الجاهلية حولها، يزاح الغموض الذي يكتنفها.

ولا يقتصر المفسِّر على هذا المقدار من التاريخ، بل يلزم عليه الرجوع إلى الكتب المؤلّفة في السيرة النبوية إذ لها دور عظيم في تفسير الآيات النازلة في الغزوات والحروب، وفي بعث السرايا حتى يرتفع الإبهام وتنكشف الحقيقة على ماهي عليه.

وفي وسع المفسِّر أن يرجع إلى الكتب المعدّة لبيان تاريخ الإسلام، وأخصّ بالذكر: «السيرة النبوية» لابن هشام (المتوفّى ٢١٨هـ)، وتاريخ اليعقوبي (المتوفّى ٢٩٠هـ)، وتاريخ الطبري (المتوفّى ٣١٠هـ) وتفسيره، و «مروج الذهب» للمسعودي (المتوفّى ٣٤٥هـ)، و«الإمتاع» للمقريزي (المتوفّى ٨٤٥هـ) إلى غير ذلك من الكتب المعتمدة.

قال الشيخ محمد عبده: أنا لا أعقل كيف يعقل لأحد أن يفسّر قوله تعالى: (كَانَ الناسُ أُمّةً واحدةً فَبَعَثَ اللهُ النّبيينَ مُبَشِّرِينَ ومُنذِرين) (البقرة:٢١٣) الآية، وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتّحدوا؟ وكيف تفرّقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أو ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة الأنبياء فيهم؟ (لاحظ:تفسير المنار:٢/٢٧٦ـ٢٨٣.)

والحقّ أنّ تفسير الآيات الواردة في الأُمم الغابرة ابتداءً من آدم(عليه السلام)وانتهاءً إلى نبيّنا خاتم الأنبياء والرسل(صلى الله عليه وآله وسلم) رهن الوقوف على تاريخهم وسيرتهم وأعرافهم.

٩. تمييز الآيات المكّية عن المدنية

عرّف المكّي بما نزل قبل الهجرة، والمدني بما نزل بعدها، سواء نزل بمكّة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجّة الوداع أو بسفر من الأسفار. (الإتقان في علوم القرآن: ١/٢٦.)

ثمّ إنّ الوقوف على الآيات المدنيّة وتمييزها عن المكّية يحصل من خلال أُسلوبين:

الأوّل: الأخذ بأقوال المفسِّرين ومؤلّفي علوم القرآن، فقد ميّزوا السور المكّيّة عن السور المدنية، كما ميّزوا الآيات المدنية التي جعلت في ثنايا السور المكّيّة وبالعكس.

الثاني: دراسة مضمون الآية وأنّها هل تناسب البيئة المكّيّة أو المدنية؟ حيث إنّ الطابعَ السائد على أكثر الآيات المكّيّة هو مكافحة الشرك والوثنية، ونقد العادات والتقاليد الجاهلية، والدعوة إلى الإيمان بالمعاد، والتنديد بالكافرين والمشركين؛ في حين أنّ الطابَع السائد على أكثر الآيات المدنية هو تشريع الأحكام في مختلف المجالات، والجدال مع أهل الكتاب في إخفاء الحقائق، والتنديد بالمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، إلى غير ذلك من العلائم والملامح التي يمكن أن يتميّز بها المكّيّ عن المدني.

وقد ذكر السيوطي بسند خاص عن ابن عباس أسماء السور المدنيّة بعدما أنهى ذكر السور المكّية.

وإليك أسماء السور المدنية، وبالوقوف عليها تعلم السور المكّية:

سورة البقرة، ثمّ الأنفال، ثمّ آل عمران، ثمّ الأحزاب، ثمّ الممتحنة، ثمّ النساء، ثمّ إذا زلزلت، ثمّ الحديد، ثمّ القتال، ثمّ الرعد، ثمّ الإنسان، ثمّ الطلاق، ثمّ لم يكن، ثمّ الحشر، ثمّ إذا جاء نصر الله، ثمّ النور، ثمّ الحج، ثمّ المنافقون، ثمّ المجادلة، ثمّ الحجرات، ثمّ التحريم، ثمّ الجمعة، ثمّ التغابن، ثمّ الصف، ثمّ الفتح، ثمّ المائدة، ثمّ براءة. (الإتقان في علوم القرآن:١/٣١.)

وأمّا الحاجة لتمييز المكّيّ عن المدني، فلأنّه يرفع الإبهام العالق ببعض الآيات، مثلاً: أنّ سورة الشورى التي ورد فيها قوله سبحانه: (قُلْ لا أَسأَلُكُمْ عَليه أَجراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُربى) (الشورى:٢٣) سورة مكّيّة مع أنّ هذه الآية حسب المأثور المتواتر نزلت في أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أعني: علياً و فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) ـ فربّما يستبعد نزولها في حقّ أهل البيت بحجّة أنّ السورة مكّيّة ولم يكن يومذاك في مكّة الحسن والحسين، ولكنّه لو وقف على أنّ مكّيّة السورة لا تلازم

مكّيّة عامّة آياتها، لما استبعد نزولها في حقّهم، فكم من سورة مكّيّة وقعت في ثناياها آيات مدنية وبالعكس، وهذه السورة من القسم الأوّل وإن كانت مكّيّة لكن بعض آياتها مدنية ومنها هذه الآية، وقد صرح به علماء التفسير في كتبهم(لاحظ كتاب «نظم الدرر و تناسق الآيات والسور»: تأليف إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي من علماء القرن التاسع، وقد ذكر في كتابه أنّ الآية مدنية.)، حتى أنّك تجد في المصاحف المصرية المطبوعة تحت إشراف مشيخة الأزهر، التصريح بأنّ سورة الشورى مكّيّة إلاّ الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧ فمدنية.

١٠. الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية

إنّ الآراء الموروثة من الصحابة والتابعين ثمّ علماء التفسير إلى يومنا هذا ثروة علمية ورثناها من الأقدمين، وهم قد بذلوا في تفسير الذكر الحكيم جهوداً كبيرة، فألّفوا مختصرات ومفصّلات وموسوعات حول القرآن الكريم، فالإحاطة بآرائهم والإمعان فيها وترجيح بعضها على بعض بالدليل والبرهان من أُصول التفسير شريطة أن يبحث فيها بحثاً موضوعياً بعيداً عن كلّ رأي مسبق.

١١. الاجتناب عن التفسير بالرأي

(وفي الحقيقة، التفسير بالرأي من موانع التفسير الصحيح لا من شرائطه. وقد شرحنا حقيقة التفسير بالرأي في مبحث مستقل. لاحظ: المبحث الخامس عشر، ولهذا أوجزنا الكلام في المقام.)

المراد من التفسير بالرأي هو أنّ المفسِّر يتّخذ رأياً خاصّاً في موضوع لسبب من الأسباب، ثمّ يعود فيرجع إلى القرآن حتى يجد له دليلاً من الذكر الحكيم يعضده، فهو في هذا المقام ليس بصدد فهم الآية وإنّما هو بصدد إخضاع الآية لرأيه وفكره، وبذلك يبتعد عن التفسير الصحيح للقرآن.

وقد حذّر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كافّة المسلمين من التفسير بالرأي أو التفسير بغير علم، فقال: «مَن قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار».(أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس كما في: البرهان في علوم القرآن:٢/١٦١.)

وقال: «مَن تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».(أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي على ما في البرهان.)

وليس النهي عن التفسير بالرأي منحصراً بالأحاديث النبوية، بل القرآن الكريم يندّد بالتقوّل على الله بما لا يعلم ويقول: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُون)(البقرة:١٦٩.)، ويقول:(ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم).(الإسراء:٣٦.)

فمَن يفسّر القرآن برأيه، فقد قضى بما ليس له به علم وتقوّل على الله بما لا يعلم .

وقد راج التفسير بالرأي بطابَع علمي في العصور المتأخّرة بعد الثورة الصناعية التي اجتاحت الغرب، لكنّ الفروض العلمية التي طرحت من قبل علماء الطبيعة والفلك هي فروض غير مستقرّة لا يمكن الركون إليها في تفسير الذكر الحكيم، ولذلك سرعان ماتتبدّل النظريات العلمية إلى أُخرى؛ فمن حاول أن يخضع القرآن الكريم للاكتشافات العلمية الحديثة، فقد فسّر القرآن برأيه، وإن صدق في نيّته وأراد إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني، ولنذكر نموذجاً:

نشر شارلز داروين كتابه «أصل الأنواع» عام ١٩٠٨م فأثبت فيه وفق تحقيقاته أنّ الإنسان هو النوع الأخير من سلسلة تطور الأنواع، وأنّ سلسلته تنتهي إلى حيوان شبيه بالقردة، فذكر آباءه وأجداده بصورة شجرة خاصة مترنماً مضمون قول الشاعر:

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم...

وكان لنشر هذه النظرية ردّة فعل سيّئة في الأوساط الدينية دون فرق بين الأوساط المسيحية والمسلمة واليهودية الذين اتّفقوا على أنّ الإنسان كائن إبداعي وأنّ سلسلته تنتهي إلى آدم أبي البشر الذي خُلق بهذه الصورة من دون أن تكون له صلة بسائر الحيوانات.

ثمّ إنّ بعض السُّذَّج من الناس اتّخذوا تلك الفرضية ذريعة لتعارض العلم والدين وفصله عن الآخر، فزعموا أنّ منهج الدين غير

منهج العلم، فربّما يجتمعان وربّما يفترقان.
وهناك مَن لم يؤمن بفصل العلم عن الدين فحاول إخضاع القرآن الكريم للفرضية، فأخذ يفسّر ما يرجع إلى خلقة الإنسان في سور مختلفة على وجه ينطبق على تلك الفرضية.
هذا و كان السجال حادّاً بين المتعبّدين بالنص والمتأوّلين له إلى أن أثبت الزمان زيف هذه الفرضية والفروض التي جاءت بعدها حول خلقة الإنسان.
وليست خلقة الإنسان موضوعاً فريداً في هذا الباب، بل لم يزل أصحاب البدع والنحل في دأب مستمر لإخضاع القرآن لآرائهم وعقائدهم، فأصحاب هذه النحل الكثيرة السائدة بين المسلمين اتّخذوا القرآن ذريعة لعقائدهم، فما من منتحل إلاّ ويستدلّ بالقرآن على صحّة عقيدته مع أنّ الحقّ واحد وهؤلاء متكثّرون.
وكلّ يدّعي وصلاً بليلى *** وليلى لا تقرّ لهم بذاكا
ولقد كان لتفسير القرآن بالرأي دور في ظهور النحل والبدع بين المسلمين، وكأنّ القرآن نزل لدعم آرائهم ومعتقداتهم!! أعاذنا الله وإيّاكم من التفسير بالرأي.
هذه شرائط أحد عشر ينبغي للمفسِّر أن يتحلّى بها، وهناك آداب أُخرى ذكرها العلماء في كتبهم لم نتعرّض إليها خشية الإطالة.
وثمّة كلمة قيمة للعلاّمة الشيخ المرحوم محمد جواد مغنية جاء فيها:
ولابدّ لهذا العلم من معدّات ومؤهّلات، منها العلوم العربية بشتّى أقسامها، وعلم الفقه وأُصوله، ومنها الحديث وعلم الكلام، ليكون المفسّر على بيّنة ممّا يجوز على الله وأنبيائه، وما يستحيل عليه وعليهم، ومنها كما يرى البعض علم التجويد والقراءات. وهنا شيء آخر يحتاج إليه المفسّر، وهو أهم وأعظم من كلّ ما ذكره المفسّرون في مقدّمة تفاسيرهم، لأنّه الأساس والركيزة الأُولى لتفهّم كلامه جلّ وعلا. ولم أر مَن أشار إليه، وقد اكتشفته بعد أن مضيت قليلاً في التفسير، وهو أنّ معاني القرآن لا يدركها، ولن يدركها على حقيقتها، ويعرف عظمتها إلاّ مَن يحسّها من أعماقه، وينسجم معها بقلبه وعقله، ويختلط إيمانه بها بدمه ولحمه، وهنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق».(التفسير الكاشف:١/٩ـ١٠.)

المبحث الخامس والعشرون المناهج التفسيرية

تمهيد

قبل الخوض في استعراض المناهج التي يغلب عليها الطابَع العقلي أو النقلي، نذكر نكتة في غاية الأهمية، وهي ضرورة التمييز بين موضوعين، هما:

١. المنهج التفسيري.

٢. الاهتمام التفسيري.

فنقول : إنّ هاهنا بحثين:
الأوّل: البحث عن المنهج التفسيري لكلّ مفسّر، وهو تبيين طريقة كلّ مفسّر في تفسير القرآن الكريم، والأداة والوسيلة التي يعتمد عليها لكشف الستر عن وجه الآية أو الآيات؟ فهل يأخذ العقلَ أداةً للتفسير أو النقل؟ وعلى الثاني فهل يعتمد في تفسير القرآن على نفس القرآن، أو على السنّة، أو على كليهما، أو غيرهما أيضاً؟
وبالجملة ما يتّخذه مفتاحاً لرفع إبهام الآيات، وهذا هو ما نسمّيه بالمنهج في تفسير القرآن.

الثاني: البحث عن الاهتمامات التفسيرية، والمراد منها المباحث التي يهتم بها المفسّر في تفسيره مهما كان منهجه وطريقته في تفسير الآيات، مثلاً تارة يتّجه إلى إيضاح المادة القرآنية من حيث اللغة، وأُخرى إلى صورتها العارضة عليها من حيث الإعراب والبناء، وثالثة يتّجه إلى الجانب البلاغي، ورابعة يعتني بآيات الأحكام، وخامسة يصبّ اهتمامه على الجانب التاريخي والقصصي، وسادسة يهتم بالأبحاث الأخلاقية، وسابعة يهتم بالأبحاث الاجتماعية، وثامنة يهتم بالآيات الباحثة عن الكون وعالم الطبيعة، وتاسعة يهتم بمعارف القرآن وآياته الاعتقادية الباحثة عن المبدأ والمعاد وغيرهما، وعاشرة بالجميع حسبما أُوتي من المقدرة.

ولا شك أنّ التفاسير مختلفة من حيث الاتجاه والاهتمام، إمّا لاختلاف أذواق المفسّرين وكفاءاتهم ومؤهّلاتهم، أو لاختلاف بيئاتهم وظروفهم، أو غير ذلك من العوامل التي تسوق المفسّر إلى صبِّ اهتمامه إلى جانب من الجوانب المذكورة أو غيرها، ولكن هذا النوع من البحث لايمتّ إلى البحث عن المنهج التفسيري للمفسّر بصلة، فمَن تصوّر أنّ البحث عن اختلاف الاهتمامات والاتجاهات راجع إلى البحث عن المنهج التفسيري فقد تسامح.

وإن شئت أن تفرّق بين البحثين فنأتي بكلمة موجزة، وهي أنّ البحث في المناهج بحث عن الطريق والأُسلوب، والبحث في الاهتمامات بحث عن الأغراض والأهداف التي يتوخّاها المفسّر، وتكون علّة غائية لقيامه بالتأليف في مجال القرآن. والكلام في المقام في الأوّل منهما.

أنواع المناهج التفسيرية

أنواع المناهج التفسيرية

إذا تبيّن الفرق بين البحثين فنقول: إنّ التقسيم الدارج في تبيين المناهج هو أنّ المفسّر إمّا يعتمد في رفع الستر عن وجه الآية على الدليل النقلي أو على الدليل العقلي أو كليهما، ونحن أيضاً نقتفي في هذا البحث أثر هذا التقسيم لكن بتبسيط في الكلام.

المنهج الأوّل: تفسير القرآن بالقرآن

إنّ هذا المنهج من أسمى المناهج الصحيحة الكافلة لتبيين المقصود من الآية، كيف وقد قال سبحانه: (وَنَزّلنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبياناً لِكُلِّ شَيء).(النحل:٨٩.)

فإذا كان القرآن موضحاً لكلّ شيء، فهو موضح لنفسه أيضاً، كيف والقرآن كلّه «هدى» و «بيّنة» و «فرقان» و «نور» كما في قوله سبحانه: (شَهرُ رَمضانَ الّذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنّاسِ وَبيِّنات مِنَ الهُدى والفُرقان)،(البقرة: ١٨٥.) وفي قوله سبحانه: (وأنزَلنا إلَيكُمْ نُوراً مُبيناً).(النساء:١٧٤.)

وعن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّ القرآن يصدّق بعضه بعضاً».(مجمع الزوائد:١/١٧١.)

وقال الإمام علي(عليه السلام)في كلام له يصف فيه القرآن: «كِتَابُ اللّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْض، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْض، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللّهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللّهِ»(نهج البلاغة: الخطبة١٢٩.).

ولنذكر مثالاً: تفسير المطر الوارد في قوله سبحانه: (وأمطَرنا عَلَيهِم مَطَراً فَساءَ مَطَرُ المُنذَرين)(الشعراء:١٧٣.) بالحجارة الواردة في آية أُخرى في هذا الشأن قال: (وأمطَرنا عَلَيهِم حِجارَةً مِن سِجّيل).(الحجر:٧٤.)

وفي الروايات المأثورة عن أهل البيت(عليهم السلام) نماذج كثيرة من هذا المنهج يقف عليها المتتبّع في الآثار الواردة عنهم عند الاستدلال بالآيات على كثير من الأحكام الشرعية الفرعية وغيرها، ومن ذلك:

١ . سأل زرارة ومحمد بن مسلم أبا جعفر(عليه السلام)عن وجوب القصر في الصلاة في السفر مع أنّه سبحانه يقول: (وَلَيْسَ عَلَيكُم جُناح)(الأحزاب: ٥.) ولم يقل: افعلوا؟

فأجاب الإمام(عليه السلام)بقوله: «أو ليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة: (فَمَن حَجَّ البَيتَ أَوِ اعتَمرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِما)(البقرة: ١٥٨.) ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض»(الوسائل: ٥، الباب٢٢ من أبواب صلاة المسافر، الحديث٢.).

٢. روى المفيد في إرشاده: أنّ عمر أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر فهمَّ برجمها فقال له أمير المؤمنين(عليه السلام): «إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إنّ الله تعالى يقول: (وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً)(الأحقاف: ١٥.). ويقول: (وَالوالِداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَولَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَن أراد أن يُتِمَّ الرّضاعَة).(البقرة: ٢٣٣.)

فإذا تم، أتمّت المرأة الرضاع لسنتين، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً كان الحمل منها ستة أشهر»، فخلّى عمر سبيل المرأة.(تفسير نور الثقلين: ٥/١٤؛ الدر المنثور للسيوطي: ٧/٤٤١، طبع دار الفكر بيروت.)

فالآية الثانية فسّرت مقدار زمن الحمل في الآية الأُولى.

٣. يقول سبحانه: (حم * والكِتابِ المُبينِ * إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَة مُبارَكة).(الدخان:١ـ٣.)

والآية الثالثة تدلّ على أنّ القرآن نزل في ليلة مباركة، وأمّا أيّة ليلة تلك، وفي أي شهر فيستفاد من ضم آيتين أُخريين، يقول سبحانه: (إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَة القَدْر)(القدر:١.)، وقوله سبحانه: (شَهْرُ رَمَضان الَّذي أُنْزِلَ فيهِ القُرآن)(البقرة:١٨٥.)، فمن ضمّ هذه الآيات الثلاث يستفاد أنّ القرآن نزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان.

٤. يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للّه وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْييكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) .(الأنفال:٢٤.)

غير أنّ حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه يعلوه إبهام يفسّره قوله سبحانه: (وَلا تَكُونُوا كَالّذينَ نَسُوا الله فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُون).(الحشر:١٩.)

فإنساء الذات الذي هو فعله تعالى عبارة عن حيلولته بين المرء وقلبه، ومَن نسي ذاته فقد أهلك نفسه.

٥. يقول سبحانه: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نَأْتِي الأَرْض نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللّه يَحْكُمُ لا مُعقّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَريعُ الحِساب)(الرعد:٤١.) ولا شكّ أنّ الأرض لا تنقص بل ربّما تزيد كالسماء في قوله سبحانه: (وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْد وَإِنّا لَمُوسِعُون)(الذاريات:٤٧.) ، ففي الآية إبهامان: إبهام في الأرض، وإبهام في النقص؛ أمّا الأوّل فيرتفع الإبهام فيه بآية أُخرى حيث أطلق وأُريد منها البلد العامر، يقول: (إِنّما جَزاءُ الّذينَ يُحارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقتَّلُوا أَو يُصلَّبوا أَو تُقطّعَ أَيديهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاف أَو ينفوا مِنَ الأَرضِ ذلكَ لَهُمْ خِزيٌ فِي الدُّنيا وَلَهُمْ فِي الآخرَةِ عَذابٌ عَظِيم)(المائدة:٣٣.)، فإنّ المراد من الأرض هو البلد العامر الذي يقطن فيها المحارب فينفى منها ليعيش بين البراري والقفار.

وأمّا النقص فتفسّره السنّة ، كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)حيث قال: «فقد العلماء ».(من لا يحضره الفقيه: ١ / ١٨٦ برقم ٥٦٠، باب النوادر: ليس شيء أحب إلى إبليس من موت فقيه.)

٦. يقول سبحانه: (وَالسّارِقُ وَالسّارِقَة فَاقْطَعُوا أَيديَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ).(المائدة:٣٨.)

فقد أطلق اليد وأبهم المراد منها، حيث إنّها تطلق على خصوص الأصابع، وعلى خصوص الكف، وعليه إلى المرافق، أو إلى الكتف، فيرفع الإبهام بقوله سبحانه: (وَأَنّ المساجِدَ للّه فَلا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحداً)(الجن:١٨.) حيث إنّ المستفاد منه على أنّ مواضع السجود للّه، وراحة الكف من مواضع السجود، وما كان للّه لا يُقطع.

٧. يقول سبحانه: (إِنّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإِنْسانُ إِنّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً)(الأحزاب: ٧٢.)، فالآية تدلّ على كرامة الإنسان، بحيث أُهّل لحمل الأمانة.

وأمّا ما هو المراد من تلك الأمانة فيفسّرها قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠.) ، فخلافة الإنسان عن الله سبحانه هي الأمانة التي وضعها الله سبحانه على عاتق الإنسان، فبما أنّه خليفة لله سبحانه يجب أن يكون بصفاته وأفعاله مظهراً لصفات الله وأسمائه وأفعاله.

إلى غير ذلك من الآيات التي يفسّر بعضها بعضاً من دون رأي مسبق.

أقول: هذا النمط من التفسير كما يتحقّق بالتفسير الموضوعي، أي تفسير القرآن حسب الموضوعات؛ يتحقّق بالتفسير التجزيئي ـ أيضاً ـ ، أي حسب السور، سورة بعد سورة؛ وهذا هو تفسير «الميزان» كتب على نمط تفسير القرآن بالقرآن، لكن على حسب السور، دون الموضوعات، فرفع إبهام آية بآية أُخرى.

ولكن الصورة الكاملة لهذا النمط من التفسير تستدعي الإحاطة بالقرآن الكريم، وجمع الآيات الواردة في موضوع واحد، حتى تتجلّى الحقيقة من ضمّ بعضها إلى بعض، واستنطاق بعضها ببعض، فيجب على القائم بهذا النمط، تفسير القرآن حسب الموضوعات، وهو نمط جليل يحتاج إلى عناء كثير، وقد قام العلاّمة المجلسي برفع بعض مشاكل هذا النمط فجمع الآيات الواردة في كلّ موضوع حسب الأبواب. وقد قامت اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام) باستخراج ما جاء من التفسير الموضوعي في بحار الأنوار وطبع بعنوان «المنتخب من التفسير الموضوعي في بحار الأنوار» في ستة أجزاء.

ولكن النمط الأوسط منه هو قراءة القرآن من أوّله إلى آخره، والتدقيق في مقاصد الآيات، ثم تصنيف الآيات حسب ما ورد فيها من الأبحاث والموضوعات، ففي هذا النوع من التفسير تستخرج الموضوعات من الآيات ثم تصنّف الآيات حسب الموضوعات المستخرجة، وهذا بخلاف ما قام به العلاّمة المجلسي، فهو صنّف الآيات حسب الموضوعات على ضوء ما جادت بها فكرته، أو جاءت في كتب الأحاديث والأخبار.

وهذا النمط من التفسير لايعني قول القائل: «حسبنا كتاب الله» المجمع على بطلانه عند عامّة المسلمين، لاهتمامهم بالسنّة مثل اهتمامهم بالقرآن، وإنّما يعني أنّ مشاكل القرآن ومبهماته ترتفع من ذلك الجانب.

وأمّا أنّه كاف لرفع جميع المبهمات حتى مجملات الآية ومطلقاتها فلا، إذ لاشكّ أنّ المجملات كالصلاة والزكاة تبيّن بالسنّة، والعمومات تخصّص بها، والمطلقات تقيّد بالأخبار، إلى غير ذلك من موارد الحاجة إلى السنّة.

هذا بعض الكلام في هذا المنهج، وقد وقع مورد العناية في هذا العصر، فقد آثرنا هذا النمط في تفسيرنا للذكر الحكيم، فخرج منه باللغة العربية عشرة أجزاء باسم «مفاهيم القرآن»، وباللغة الفارسية أربعة عشر جزءاً، طُبع باسم «منشور جاويد»، ولا ننكر أنّ هذا العبء الثقيل يحتاج إلى لجنة تحضيرية أوّلاً، وتحريرية ثانياً، وإشراف من الأساتذة ثالثاً، رزقنا الله تحقيق هذه الأُمنية.

إنّ تفسير ابن كثير يستمد من هذا النمط أي تفسير الآيات بالآيات بين الحين والآخر، كما أنّ الشيخ محمد عبده في تفسيره الذي حرّر بقلم تلميذه اتّبع هذا المنهج في بعض الأحايين.

والأكمل من التفسيرين في اتّباع هذا المنهج هو تفسير السيد العلاّمة الطباطبائي فقد بنى تفسيره«الميزان» على تفسير الآية بالآية.

غير أنّ هذه التفاسير الثلاثة كما عرفت كتبت على نحو التفسير التجزيئي، أي تفسير القرآن سورة بعد سورة لا على تفسيره حسب الموضوعات.

وعلى كلّ تقدير فتفسير القرآن بالقرآن يتحقّق على النمط الموضوعي كما يتحقّق على النمط التجزيئي غير أنّ الأكمل هو اقتفاء النمط الأوّل.

المنهج الثاني: التفسير البياني للقرآن

هذا المنهج الذي ابتكره ـ حسب ما تدّعيه الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ـ أُستاذها الأمين الخولي المصري، عبارة عن استقراء اللفظ القرآني في كلّ مواضع وروده للوصول إلى دلالته وعرض الظاهرة الأُسلوبية على كلّ نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في المصحف كلّه التماساً لسرّه البياني.

وحاصل هذا المنهج يدور على ضوابط، وهي:

ألف: التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن، ويُبدأ بجمع كلّ ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

ب: ترتّب الآيات فيه حسب نزولها، لمعرفة ظروف الزمان والمكان كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية دون أن يفوت المفسّر أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية.

ج: في فهم دلالات الألفاظ يُقدّر أنّ العربية هي لغة القرآن، فتلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادّة في مختلف استعمالاتها الحسيّة والمجازية.

ثم يخلص لِلَمح الدلالة القرآنية بجمع كلّ ما في القرآن من صيغ اللفظ وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كلّه.

د : وفي فهم أسرار التعبير يحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصّاً وروحاً، ويعرض عليه أقوال المفسّرين فيقبل منها ما يقبله النص.

هذه خلاصة هذا المنهج الذي ابتكره الأُستاذ الخولي المصري واقتفت أثره تلميذته بنت الشاطئ، فخرج من هذا المنهج كتاب باسم «التفسير البياني للقرآن الكريم» في جزأين تناول في الجزء الأوّل منه تفسير السور التالية: «الضحى، الشرح، الزلزلة، النازعات، العاديات، البلد، والتكاثر» كما تناول في الجزء الثاني تفسير السور التالية: «العلق، القلم، العصر، الليل، الفجر، الهمز، والماعون».

ولاشكّ أنّه نمط بديع بين التفاسير، إذ لايماثل شيئاً ممّا أُلّف في القرون الماضية من زمن الطبري إلى العصر الأخير الذي عرف فيه تفسير الإمام عبده وتفسير المراغي، فهذا النمط لايشابه التفاسير السابقة، غير أنّه لون من التفسير الموضوعي أوّلاً، وتفسير القرآن بالقرآن ثانياً، والنقطة البارزة في هذا النمط هو استقراء اللفظ القرآني في كلّ مواضع وروده في الكتاب.

وبعبارة أُخرى: يهتم المفسّر في فهم لغة القرآن بالتتبع في جميع صيغ هذا اللفظ الواردة في القرآن الكريم ثم يخرج من ضمّ بعض إلى بعض بحقيقة المعنى اللغوي الأصيل، وهو لا يترك هذا العمل حتى في أوضح الألفاظ. مثلاً تتبع في تفسير قوله سبحانه: (أَلَم نَشْرَح لَكَ صَدرَك) كلّ آية وردت فيها مادّة «الشرح» بصورها، أو كلّ آية ورد فيها مادّة «الصدر» بصيغها المختلفة، وهكذا في كلّ كلمة حتى وإن كان معناها واضحاً عندنا لكنّه لايعتني بهذا الوضوح، بل يرجع إلى نفس القرآن ثم يطبّق عليه سائر الضوابط من تدبّر سياق الآية وسياق السورة، وسياق الآية العام في القرآن كلّه.

والذي يؤاخذ على هذا النوع من التفسير أنّه أمر بديع قابل للاعتماد، غير أنّه لا يكفي في تفسير الآيات الفقهية بلا مراجعة السنّة، لأنّها عمومات فيها مخصّصها، أو مطلقات فيها مقيّدها، أو مجملات فيها مبيّنها.

نعم هذا النمط من التفسير يُغني عن كثير من الأبحاث اللغوية التي طرحها المفسّرون، لأنّ المفسّر في هذا النمط يريد أن يستخرج معنى اللفظ من التدبّر في النص القرآني، نعم معاجم العربية وكتب التفسير تعينه في بداية الأمر.

وربّما يوجد في روايات أهل البيت(عليهم السلام) في مواضع، هذا النوع من النمط، وهو الدقّة في خصوصيات الآية وجملها ومفرداتها.

١ ـ روى الصدوق بإسناده عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر(عليه السلام): ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك وقال: «يازرارة قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ونزل به الكتاب من الله عزّ وجلّ، لأنّ الله عزّ وجلّ قال: (فاغْسِلُوا وُجُوهَكُم)فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يُغسل، ثم قال: (وأيْدِيَكُمْ إلى المَرَافِق) فعرفنا أنّه ينبغي لهما أن يُغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلامين فقال: (وامسَحُوا بِرؤُوسِكُم) أنّ المسح ببعض الرأس لمكان «الباء» ثم وصل الرجلين بالرأس، فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما، ثم فسّر ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)للناس فضيّعوه»(الوسائل: ١، الباب ٢٣من أبواب الوضوء، الحديث١. والآية ٦ من سورة المائدة.).

٢. روى الكليني بسند صحيح عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله (عليه السلام)أنّه سئل عن التيمّم، فتلا هذه الآية: (والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقطَعُوا أيْدِيَهُما) وقال: (فاغسِلُوا وجُوهَكُمْ وأيْدِيَكُمْ إلى المَرَافِق)قال: «فامسح على كفّيك من حيث موضع القطع»(الوسائل: ٢، الباب ١٣ من أبواب التيمّم، الحديث٢.والآية ٣٨ و ٦من سورة المائدة .).

فقد استظهر الإمام(عليه السلام) في التيمّم كفاية المسح على الكفّين بحجّة أنّه أطلق الأيدي في آية السرقة والتيمّم ولم تقيّد بالمرافق وقال: (فَلَم تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيّباً فَامسَحُوا بِوجُوهِكُم وأيْدِيكُم مِنه)(المائدة: ٦.)، فعلم أنّ القطع والتيمّم ليس من المرفقين. وأمّا التعبير عن الزند بموضع القطع ـ مع أنّه ليس موضع القطع عند السرقة كما مرّ ـ فإنّما هو لأجل إفهام مبدأ المسح بالتعبير الرائج ذلك اليوم، أي موضع القطع عند القوم.

٣. سأل أبو بصير أحد الصادقين(عليهما السلام): هل كانت صلاة النبيّ إلى بيت المقدس بأمر الله سبحانه أو لا ؟ قال: «نعم، ألا ترى أنّ الله تعالى يقول: (وَما جَعَلنا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيها إلاّ لِنَعلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ)»(الوسائل: ٣، الباب ٢ من أبواب القبلة، الحديث٢.والآية ١٤٣من سورة البقرة.).

المنهج الثالث: تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية

في هذا المنهج يهتم المفسّر اهتماماً شديداً بالقراءة حتى يقف على الصحيح منها، لأنّه ينبعث عن تحريف القراءة، تحريف اللفظ القرآني المنزل، ومن ثمّ تحريف المعنى.

فالحرص على سلامة المنطق حرص على سلامة معنى النص القرآني، وصيانته من الشبهة أو التحريف.

والاهتمام بالقراءة يستدعي ـ منطقياً ـ الاهتمام بالصنعة النحوية، في النص القرآني إذ أنّ هذا الاهتمام بضبط أواخر الكلمات، إنّما يقصد أساساً إلى المعنى، فعلى المعنى يدور ضبط الكلمة وإعرابها، فالفاعل يُرفع والمفعول به يُنصب وما لحقه من الجر بسبب من أسبابه يُجر.

فالتفات النحويّين إلى إعراب القرآن كان التفاتاً طبيعياً، لأنّ الغاية من وضع النحو هو خدمة معنى القرآن وتحليته.

ففي ضوء ضبط القراءة ثم ضبط الإعراب القرآني، يتّضح مفاد الآية في هذا الإطار الخاص، مضافاً إلى تحقيق مفردات الآية لغوياً، وتوضيح معانيها الأصيلة.

وعلى هذا النمط تجد التفاسير الآتية:

١ ـ «معاني القرآن»: تأليف ابن زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (المتوفّى ٢٠٧هـ) ففسّر مشكل إعراب القرآن ومعانيه على هذا المنهج، وقد طبع الكتاب في جزأين، حقّقهما محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي.

ويبدو من ديباجة الكتاب أنّ الفرّاء شرع في تأليفه سنة ٢٠٤هـ.

والكتاب قيّم في نوعه، وإن كان غير واف بعامّة مقاصد القرآن الكريم.

٢ . «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (المتوفّى٢١٣هـوقيل غير ذلك).

يقول في مقدّمة الكتاب: قالوا: إنّما أُنزل القرآن بلسان عربي ومصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أُخرى: (وَما أرسَلنا مِن رَسُول إلاّ بِلسانِ قَومِه)(إبراهيم: ٤.) فَلم يحتج السلف ولا الّذين أدركوا وحيه إلى النبي أن يسألوا عن معانيه ،لأنّهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، و عمّا فيه ممّا في كلام العرب من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني.(مجاز القرآن:٨، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، طبعة دار الفكر.)

وهذا يعرب عن أنّه كان معتقداً بأنّ الإحاطة باللغة العربية، كافية في إخراج معاني القرآن، وهو كما ترى.

نعم القرآن نمط من التعبير العربي لكن ليس كلّ تعبير عربي غنيّاً عن البيان، خصوصاً في مجال التشريع والتقنين الذي نرى تفصيله في السنّة.

ولا يقصد أبو عبيدة من المجاز ما يقابل الحقيقة، بل يريد ما يتوقّف فهم الآية على تقدير محذوف، وما شابه ذلك، وهو على غرار «مجازات القرآن» للشريف الرضي ـ رضوان الله عليه ـ ولكن الشريف الرضي خصّص كتابه بالمجاز بمعناه المصطلح.

مثلاً يقول أبو عبيدة: ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر، قال: (وانطَلَقَ المَلأُ مِنهُم أنِ امشُوا وَاصبِرُوا)(ص: ٦.) فهذا مختصر فيه ضمير مجازه: (وانطَلَقَ المَلأُ مِنهُم) ثم اختصر إلى فعلهم، وأضمر فيه: وتواصوا أن امشوا، أوتنادوا: أن امشوا، أو نحو ذلك. وفي آية أُخرى: (ماذا أرادَ اللّه بِهذا مَثَلاً)(البقرة: ٢٦.) فهذا من قول الكفّار، ثم اختصر إلى قول الله، وأُضمر فيه: قل يامحمّد: (يُضِلُّ بِهِ كَثيراً)(البقرة: ٢٦.)، فهذا من كلام الله.

ومن مجاز ما حُذف وفيه مضمر، قال: (واسْئَلِ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيها والعِيرَ التي أَقبَلْنا فِيها)،(يوسف:٨٢.) فهذا محذوف فيه ضمير مجازه: واسأل أهل القرية، ومَن في العير.(مجاز القرآن:٨.) وقد طبع الكتاب وانتشر.

٣ . «معاني القرآن» لأبي إسحاق الزجّاج (المتوفّى ٣١١هـ)، ويحدّد ابن النديم تاريخ تأليف هذا الكتاب في نص قرأه على ظهر كتاب المعاني: ابتدأ أبو إسحاق إملاء كتابه الموسوم بـ«معاني القرآن» في صفر سنة ٢٨٥هـ وأتمّه في شهر ربيع الأوّل سنة ٣٠١ هـ .

والكتاب بعد مخطوط، ومنه نسخ متفرّقة في المكتبات.

٤. «تلخيص البيان في مجازات القرآن»: تأليف الشريف الرضي أبي الحسن، محمد بن الحسين (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) .

يقول في أوّله: إنّ بعض الإخوان جاراني وذكر ما يشتمل عليه القرآن من عجائب الاستعارات وغرائب المجازات، التي هي أحسن من الحقائق مَعْرِضاً، وأنفع للعلّة معنى ولفظاً، وإنّ اللفظة التي وقعت مستعارة لو أوقعت في موقعها، لفظة الحقيقة لكان موضعها نابياً بها، ونصابها قلقاً بمركّبها، إذا كان الحكيم سبحانه لم يورد ألفاظ المجازات لضيق العبارة عليه، ولكن لأنّها أجلى في أسماع السامعين، وأشبه بلغة المخاطبين، وسألني أن أجرّد جميع ما في القرآن في ذلك على ترتيب السور ليكون اجتماعه أجلّ موقعاً وأعمّ نفعاً، ولتكون في ذلك أيضاً فائدة أُخرى.

(إلى أن قال): وقد كنت أوردت في كتابي الكبير «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» طرفاً كبيراً من هذا الجنس، أطلتُ الكلام والتنبيه على غوامض العجائب التي فيه من غير استقصاء أوانه(تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢، طبعة عالم الكتب.).

وبهذا البيان امتاز نمط هذا التأليف عمّا ألّفه أبو عبيدة وأسماه بمجاز القرآن.

فالشريف يروم من المجاز القسم المصطلح، ولكنّ أبا عبيدة يروم الكلام الخارج على غير النمط العادي من حذف وتقدير وتأخير، وإضمار وغير ذلك.

المنهج الرابع: تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة (عليهم السلام)
ومن التفسير بالمنقول هو تفسير القرآن بما أثر عن النبي والأئمة المعصومين(عليهم السلام)أو الصحابة والتابعين، وقد ظهر هذا النوع من المنهج بعد رحلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن المعروفين في سلوك هذا المنهج بعد عهد الرسالة عبد الله بن عباس، وهو القائل: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب(عليه السلام).(مناهل العرفان: ١/ ٤٦٨.) وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن. نعم روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه دعا له بالفقه والحكمة وتأويل القرآن.(لاحظ: أُسد الغابة: ١٩٣/٣.) وقد ذاع هذا المنهج من القرن الأوّل إلى عصرنا هذا، فظهر بين المفسّرين مَن يكتفون في التفسير بالأثر المروي ولايتجاوزون عنه، حتى أنّ بعض المفسّرين لايذكر الآية التي لايجد حولها أثراً من النبي والأئمة، كما هو ديدن تفسير «البرهان» للسيد البحراني، فإليك أشهر التفاسير الحديثية بين الفريقين.
أمّا أشهر المصنّفات على هذا النمط عند أهل السنّة فهي عبارة عن:
١. تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) وسماه بـ «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، وهذا الكتاب أوسع ما أُلّف في هذا المجال، ومن مزايا هذا التفسير ذكر الروايات مسندة أو موقوفة على الصحابة والتابعين، وقد سهّل بذلك طريق التحقيق والتثبيت منها، نعم فيها من الإسرائيليّات والمسيحيّات ما لا يحصى كثرة. ٢. ويليه في التبسط تفسير الثعلبي (المتوفّى ٤٢٧هـ) باسم «الكشف والبيان»، وقد طبع أخيراً وانتشر، ومؤلّفه من المعترفين بفضائل أهل البيت (عليهم السلام)، فقد روى نزول كثير من الآيات في حقّ العترة الطاهرة، وينقل عنه كثيراً السيد البحراني في كتبه مثل «غاية المرام» و«تفسير البرهان». ٣. تفسير «الدر المنثور» للسيوطي (المتوفّى ٩١١هـ) ففيه ما ذكره الطبري في تفسيره وغيره ويبدو من كتابه «الإتقان» أنّه جعله مقدّمة لذلك التفسير، وقد ذكر في خاتمة «الإتقان» نبذة من التفسير بالمأثور المرفوع إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)من أوّل الفاتحة إلى سورة الناس. هذه أشهر التفاسير الحديثية عند أهل السنّة، اكتفينا بذلك روماً للاختصار.
وأمّا التفسير بالمأثور عند الشيعة، فأشهرها ما يلي:
١. تفسير محمد بن مسعود العيّاشي المعاصر للكليني الذي توفّي عام ٣٢٩هـ ، وقد طبع في جزأين، غير أنّ ناسخ الكتاب في القرون السابقة، جنى على الكتاب جناية علمية لاتغتفر حيث أسقط الأسانيد، وأتى بالمتون، وبذلك سدّ على المحقّقين باب التحقيق. وقد قامت مؤسسة البعثة في قم المقدّسة بتحقيق الكتاب وطبعه في عام ١٤٢١ هـ في ثلاثة أجزاء، يحتوي الجزء الثالث منه على ملحقات مهمة، منها استدراك ما سقط من الأحاديث في النسخة الأصلية والإتيان بها من المصادر الأُخرى الّتي نقلت الأحاديث عن العيّاشي وخلت منها النسخة الموجودة. كما قامت لجنة التحقيق باستخراج أسانيد الكتاب من المصادر الّتي نقلت الأحاديث عن العيّاشي مع أسانيدها، كرجال الكشي، وكمال الدين، وعلل الشرائع، وشواهد التنزيل، وكامل الزيارات وغيرها، فأعادوا للكتاب بعض اعتباره، فجزاهم الله خير الجزاء. ٢. تفسير علي بن إبراهيم القمّي (الذي كان حيّاً عام ٣٠٧ هـ)، وتفسيره هذا مطبوع قديماً وحديثاً، غير أنّ التفسير ليس لعلي بن إبراهيم القمّي وحده، وإنّما هو تفسير ممزوج من تفسيرين، فهو ملفّق ممّا أملاه علي بن إبراهيم على تلميذه أبي الفضل العباس، وما رواه تلميذه بسنده الخاص، عن أبي الجارود عن الإمام الباقر (عليه السلام)، وقد أوضحنا حاله في أبحاثنا الرجالية(راجع: كليات في

علم الرجال: ٣١١ ـ٣١٥).

٣. «البرهان في تفسير القرآن» للسيد هاشم البحراني (المتوفّى ١١٠٧ هـ).

٤. تفسير «نور الثقلين» للشيخ عبد علي الحويزي من علماء القرن الحادي عشر.

والاستفادة من التفسير بالمأثور يتوقّف على تحقيق اسناد الروايات، لكثرة تطرّق الإسرائيليّات والمسيحيّات والمجوسيّات المروية من مسلمة أهل الكتاب إليها أو مستسلمتهم.

وهناك كلمة قيّمة لابن خلدون يقول: إنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأُميّة، وإذا تشوّقوا إلى معرفة شيء ممّا تتوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونّات، وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وتُلقّيت بالقبول، وتساهل المفسّرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، وأصلها كلّها ـ كما قلنا ـ من التوراة أو ممّا كانوا يفترون(مقدّمة ابن خلدون: ٤٣٩).

ولأجل ذلك ترى أنّ ما أتى به الطبري في تفسيره حول قصة آدم وحواء يطابق ما جاء في التوراة.

والعجب أنّ كتب التفسير مملوءة من أقاويل هؤلاء (أي مسلمة أهل الكتاب) ومَن أخذ عنهم، من المسلمين أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء والضحّاك.

فهؤلاء مضافاً إلى ما ورد فيهم من الجرح والطعن في كتب الرجال المعتبرة عند أهل السنّة، كانوا يأخذون ما أثر عنهم من التفاسير من اليهود والنصارى.(لاحظ: آلاء الرحمن: ١/ ٤٦)

وأمّا ما يتراءى من نقل أقوالهم في تفاسير الشيعة كـ«التبيان» لشيخ الطائفة الطوسي، و«مجمع البيان» للشيخ الطبرسي، فعذرهم في نقل أقوالهم هو رواجها في تلك العصور والأزمنة بحيث كان الجهل بها نقصاً في التفسير وسبباً لعدم الاعتناء به.

وعلى كلّ تقدير فالتفسير بالمأثور يتوقّف على توفر شرائط الحجّية فيه، إلاّ إذا كان الخبر ناظراً إلى بيان كيفية الاستفادة من الآية، ومرشداً إلى القرائن الموجودة فيها، فعندئذ تلاحظ كيفية الاستفادة، فعلى فرض صحّة الاستنتاج يؤخذ بالنتيجة وإن كان الخبر غير واجد للشرائط، كما عرفت نماذج منه.

وأمّا إذا كان التفسير مبنياً على التعبّد فلا يؤخذ به إلاّ عند توفّر الشرائط.

هذه هي المناهج التفسيرية على وجه الاختصار وقد عرفت المقبول والمردود، غير أنّ المنهج الكامل عبارة عن المنهج الذي يعتمد على مجموع الأساليب الصحيحة، فيعتمد في تفسير القرآن على العقل القطعي الذي هو كالقرينة، كما يفسّر القرآن بعضه ببعض، ويرفع إبهام الآية بأُختها، ويستفيد من الأثر الصحيح الذي يكون حجّة بينه وبين ربّه، إلى غير ذلك من المناهج التي مرّ بيانها.

***

بعد أن تعرّفت على أنواع المناهج التفسيرية حان الوقت لبيان أنواع الاهتمامات التفسيرية، وهذا ما ستقرأه في المبحث التالي.

المبحث السادس والعشرون أنواع الاهتمامات التفسيرية

قد عرفت في المبحث السابق الفرق بين المناهج التفسيرية والاهتمامات التفسيرية، وقد تمّ الكلام في الأُولى، وإليك بيان أنواع هذه الاهتمامات، فنقول:

الأوّل: تفسير القرآن في ظل العقل الحصيف

قد يطلق التفسير بالعقل، ويراد به التفسير بغير النقل، سواء أكان التفسير بالعقل الفطري، أم بالقواعد الدارجة في المدارس

الكلامية، أو بتأويلات الباطنية، أو الصوفية، أو التفسير حسب العلوم الحديثة. والتفسير بالعقل بهذا المعنى يعم جميع هذا النوع من التفسير. وبهذا صار أيضاً ملاكاً لتقسيم المناهج التفسيرية إلى المنهج العقلي والنقلي.

وقد يطلق ويراد به تفسير الآيات من منظار العقل الفطري والعقل الحصيف والبراهين المشرقة غير الملتوية الواضحة لكلّ أرباب العقول، وهذا هو المراد في المقام، وهو بهذا المعنى قسم من المناهج التفسيرية العقلية فلاحظ.(والعقل بالمعنى الأوّل مقسم للمناهج الستة، وبالمعنى الثاني قسم منها.)

وبما أنّ العقل ينقسم إلى عقل نظري وإلى عقل عملي(المراد من العقل النظري: إدراك ما يجب أن يعلم، كحاجة الممكن إلى العلّة؛ والمراد من العقل العملي، إدراك ما يجب أن يعمل ويطبّق على الحياة، كقولنا: العدل حسن والظلم قبيح.)، فالآيات الواردة حول العقائد والمعارف تفسّر في ظل العقل النظري، كما أنّ الآيات الواردة حول الحقوق والأخلاق والاجتماع تفسّر بما هو المسلم عند العقل العملي.

ولأجل إيضاح هذا النوع من التفسير بالعقل الذي يفارق التفسير على سائر المعايير العقلية كما أشرنا إليها، نذكر نماذج في مجالي العقل النظري والعقل العملي، ولنقدّم الكلام في الأوّل على الثاني.

١. واحد لا ثاني له

يقول سبحانه:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير)(الشورى:١١.) فالآية تنفي أن يكون له سبحانه أيُّ مثل وندّ، وفي سورة أُخرى يقول: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد)(الإخلاص:٤.) وهذه عقيدة صريحة إسلامية، يمكن أن تُفسّر في ضوء الحكم العقلي بالبيان التالي:

أ. صرف الوجود لا يتعدّد

إذا كان الموجود منزّهاً عن كلّ حدّ وقيد، على نحو ليس له واقعية سوى الوجود المطلق فهو لا يتكرّر ولا يتعدّد، بمعنى أنّه لا تتعقّل له الاثنينية والكثرة، لأنّ ما فرضته ثانياً بحكم أنّه أيضاً منزّه عن كلّ قيد وحدّ وخليط، يكون مثل الأوّل فلا يتميّز ولا يتشخّص، وقد قام الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)بتفسير الآية على ضوء هذا الحكم العقلي.

روى الصدوق أنّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب، فقال أمير المؤمنين: «دعوه، فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم»... ثمّ قال شارحاً ما سأله عنه الأعرابي: «وقول القائل واحد، يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة».

ثمّ قال: «معنى هو واحد: أنّه ليس له في الأشياء شِبْه، كذلك ربّنا ، و قول القائل: إنّه عزّ وجلّ أحديُّ المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ».(توحيد الصدوق:٨٣ـ ٨٤.)

فالإمام (عليه السلام)لم يكتف ببيان المقصود من وصفه سبحانه بأنّه واحد، بل أشار إلى معنى آخر من معاني توحيده وهو كونه أحديّ الذات، الذي يهدف إلى كونه بسيطاً لا جزء له في الخارج والذهن. و التوحيد بهذا المعنى هو القسم الثاني(والقسم الأوّل هو أنّه واحد لا مثل له.) من التوحيد الذاتي المبحوث عنه في محلّه.

ب. التعدّد يستلزم التركيب

لو كان هناك واجب وجود آخر، لتشارك الواجبان في كونهما واجبي الوجود، ولابدّ من تميّز أحدهما عن الآخر بشيء وراء ذلك الأمر المشترك، كما هو الحال في كلّ مثلين، وذلك يستلزم تركّب كلّ منهما من شيئين: أحدهما يرجع إلى ما به الاشتراك، والآخر إلى ما به الامتياز، والمركّب بما أنّه محتاج إلى أجزائه لا يكون موصوفاً بكونه واجب الوجود، بل يكون ـ لأجل الحاجة ـ ممكناً، وهو خلاف

الفرض.

وباختصار لو كان في الوجود واجبان للزم إمكانهما، وذلك أنّهما يشتركان في وجوب الوجود فإن لم يتميّزا لم تحصل الاثنينية، وإن تميّزا لزم تركّب كلّ واحد منهما ممّا به المشاركة وما به الممايزة، وكلّ مركّب ممكن، فيكونان ممكنين، وهذا خلاف الفرض.

ج. الوجود اللا متناهي لا يقبل التعدّد

هذا البرهان مؤلّف من صغرى و كبرى، والنتيجة هي وحدة الواجب وعدم إمكان تعدّده، وإليك صورة القياس حتى نبرهن على كلّ من صغراه وكبراه.

وجود الواجب غير متناه.

وكلّ غير متناه واحد لا يقبل التعدّد.

فالنتيجة: وجود الواجب واحد لا يقبل التعدّد.

وإليك البرهنة على كلّ من المقدّمتين.

أمّا الصغرى: فإنّ محدودية الموجود، ملازمة لتلبّسه بالعدم. ولأجل تقريب هذا المعنى لاحظ الكتاب الموضوع بحجم خاص، فإنّك إذا نظرت إلى أيّ طرف من أطرافه ترى أنّه ينتهي إليه وينعدم بعده، ولا فرق في ذلك بين صغير الموجودات وكبيرها، حتّى أنّ جبال الهملايا مع عظمتها محدودة لا نرى أي أثر للجبل بعد حدّها، وهذه خصيصة كلّ موجود متناه زماناً أو مكاناً أو غير ذلك، فالمحدودية والتلبّس بالعدم متلازمان. وجلّ الواجبُ أن يكون متلبّساً بالعدم.

وبتقرير آخر: إنّ عوامل المحدودية تتمحور في الأُمور التالية:

١. كون الشيء محدوداً بالماهية ومزدوجاً بها، فإنّها حدّ وجود الشيء والوجود المطلق بلا ماهية غير محدّد ولا مقيّد وإنّما يتحدّد بالماهية.

٢. كون الشيء واقعاً في إطار الزمان، فهذا الكم المتصل (الزمان) يحدّد وجود الشيء في زمان دون آخر.

٣. كون الشيء في حيّز المكان، وهو أيضاً يُحدّد وجود الشيء ويخصّه بمكان دون آخر.

وأمّا الكبرى: فهي واضحة بأدنى تأمّل، وذلك لأنّ فرض تعدّد اللامتناهي يستلزم أن نعتبر كلّ واحد منهما متناهياً من بعض الجهات حتى يصحّ لنا أن نقول هذا غير ذاك، ولا يقال هذا إلاّ إذا كان كلّ واحد متميزاً عن الآخر، والتميّز يستلزم أن لا يوجد الأوّل حيث يوجد الثاني، وكذا العكس. وهذه هي «المحدودية» وعين «التناهي»، والمفروض أنّه سبحانه غيرمحدود ولا متناه.

فيستنتج من هاتين المقدّمتين أنّ وجود الواجب واحد لا يقبل التعدّد.

ومن لطيف القول ما نجده في كلامه سبحانه حيث إنّه بعد ما يصف نفسه بالوحدانية يعقبه بوصف القهّارية ويقول: (الواحِدُ القَهّارَ) (الرعد:١٦.) ،وما ذلك إلاّ لأنّ المحدود المتناهي مقهور للحدود والقيود الحاكمة عليه، فإذا كان قاهراً من كلّ الجهات لم تتحكّم فيه الحدود، فكأنّ اللامحدودية تلازم وصف القاهرية، وقد عرفت أنّ ما لا حدّ له يكون واحداً لا يقبل التعدّد، فقوله سبحانه: (وَهُوَ الواحِدُ القَهّار) من قبيل ذكر الشيء مع البيّنة والبرهان.

٢. لا مدبّر للكون إلاّ الله

إنّ القرآن يستدلّ على وحدة المدبّر ببرهان شيّق، ويقول: (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّه لَفَسَدَتا فَسُبحانَ اللّه رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفُون) (الأنبياء:٢٢.)، والمراد من الإله في المقام هو الإله الخالق ردّاً على الثنوية الذين يظنون أنّ خالق الخير غير خالق الشر، أو النصرانية حيث ذهبت إلى التثليث.

وحاصل البرهان: إذا افترضنا أنّ للكون خالقين وأنّ العالم مخلوق لإلهين، فإنّه لابدّ أن نقول ـ بحكم كونهما اثنين ـ إنّهما يختلفان عن بعض في جهة أو جهات، وإلاّ لما صحّت الاثنينية والتعدّد أي لما صحّ ـ حينئذ ـ أن يكونا اثنين دون أن يكون بينهما أي نوع من الاختلاف.

ومن المعلوم أنّ الاختلاف في الذات سبب للاختلاف في طريقة التدبير والإرادة بين المختلفين ذاتاً.

فإذا كان تدبير العالم العلوي ـ مثلاً ـ من تدبير واحد من الإلهين وتدبير العالم السفلي من تدبير إله آخر، فإنّ من الحتميّ أن ينفصم الترابط بين نظامي العالمين، ويزول الارتباط بينهما، لأنّه من المستحيل تدبير موجود ذي أجزاء منسجمة بتدبيرين متنافيين متضادّين.

وينتج من ذلك التفكّكُ بين جزئي العالم، وبالتالي فساد الكون بأسره من سماوات وأرض وما بينهما، لأنّا جميعاً نعلم بأنّ بقاء النظام الكوني ناشئ من الارتباط الحاكم على أجزاء المنظومة الشمسية بحيث لو فقد هذا الارتباط على إثر الاختلاف في التدبير ـ مثل أن تختل قوّتا الجذب والدفع ـ لتعرّض الكون بأسره للخلل ولم يبق للكون وجود ولا أثر.

هذا هو البرهان المشرق الذي يفسّر الآية بالعقل الصريح.

٣.الله تبارك وتعالى فوق الرؤية

يقول سبحانه:(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ)(الأنعام:١٠٣) ، أنّ الذكر الحكيم يُجِلُّ اللّهَ سبحانه من أن تدركه الأبصار، وفي الوقت نفسه هو يدرك الأبصار، ويمكن تفسير هذه الآية بالوجوه التالية:

١. أنّ الله تعالى ليس في جهة ولا في مكان بدليل أنّ ما كان في الجهة والمكان، مفتقر إليهما وهو محال عليه، والله تعالى ليس بمرئي بدليل أنّ كلّ مرئي لابدّ أن يكون في جهة.(مجموعة الرسائل العشر، المسألة١٦ـ١٧.)

وبعبارة أُخرى: أنّ الرؤية إنّما تصحّ لمن كان مقابلاً أو في حكم المقابل، والمقابلة إنّما تكون في حقّ الأجسام ذوات الجهة، والله تعالى ليس في جهة فلا يكون مرئياً.

٢. أنّ الرؤية إمّا أن تقع على الذات كلّها أو على بعضها، فعلى الأوّل يلزم أن يكون محدوداً متناهياً محصوراً شاغلاً لناحية من النواحي، وخلوّ النواحي الأُخرى منه تعالى، وذلك مستحيل، وإمّا أن تقع على بعض الذات فيلزم أيضاً أن يكون مركباً، متحيّزاً، ذا جهة، إلى غير ذلك من التوالي الفاسدة الباطلة المرفوضة في حقّه تعالى.

٣. أنّ الرؤية بواسطة العين نوع إشارة بها إلى المرئي وهو سبحانه منزّه عن الإشارة.

٤. أنّ الرؤية لا تتحقّق إلاّ بانبعاث أشعة من المرئي إلى العين وهو يستلزم أن يكون سبحانه جسماً ذات أبعاد ومعرضاً لعوارض وأحكام جسمانية، وهو المنزّه عن كلّ ذلك.(لاحظ: أنوار الملكوت في شرح الياقوت:٨٢ـ٨٣ ؛ اللوامع الإلهية:٨١ـ٨٢ ؛ كشف المراد:١٨٢.)

٤. هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن

يصف سبحانه نفسه بأنّه الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، ويقول: (هُوَ الأَوّلُ وَالآخرُ وَالظّاهرُ وَالباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيء عَليمٌ) .(الحديد:٣.)

وهذه الصفات صفات متناقضة لا تجتمع في شيء واحد مع أنّه سبحانه يصف نفسه بها، فلو كان أوّلاً كيف يكون آخراً؟ ولو كان ظاهراً كيف يكون باطناً؟ فأوّل الناس في العمل لا يكون آخرهم فيه، وهكذا الظاهر والباطن.

ولكن يمكن تفسير ذلك من خلال كونه محيطاً بالموجودات الإمكانية أوّلاً، وقيامهم به قيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي ثانياً.

فإذا كان محيطاً بوجوده على كلّ شيء فكلّما فرض أوّلاً فهو قبله بحكم كونه محيطاً والشيء محاطاً، فهو الأوّل دون الشيء المفروض

أوّلاً، وكلّ ما فرض آخراً فهو بعده لحيثية إحاطة وجوده به من كلّ جهة، فهو الآخر دون الشيء المفروض وليس أوّليته تعالى ولا آخريته زمانية ولا مكانية، بل بمعنى كونه محيطاً بالأشياء على أيّ نحو فرضت وكيفما تصوّرت.

فإذا كان العالم قائماً به قيام المعنى الحرفي بالاسمي، فكيف يمكن خلو العالم عن وجود الواجب؟ فالعالم بما فيه من الصغير والكبير، ومن الذرة إلى المجرّة، ومن المادّي إلى المجرد، قائم به سبحانه قيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي، فيكون سبحانه ظاهر العالم وباطنه.

وبالجملة إحاطته له وقيمومته للوجود الإمكاني يجعله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً ويترتّب عليه قوله سبحانه (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ)(الحديد: ٤.)، ومن الخطأ الواضح تفسير هذه المعيّة بالمعيّة العلمية، بل هي معيّة وجودية قيوميّة حسب ما ذكره الإمام أمير المؤمنين(ع)في خطبته: «لَمْ يَحْلُلْ فِي الأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ : هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ».(نهج البلاغة: الخطبة:٦٥، ولاحظ: الخطبة: ١٧٩.)

إلى هنا تبيّنت كيفية تفسير الآية بالعقل الحصيف، وقد أتينا بنماذج أربعة من هذه المقولة، أعني:

أ. واحد لا ثاني له.

ب. ليس للعالم مدبّر سواه.

ج. أنّه سبحانه فوق الرؤية.

د. أنّه سبحانه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن.

كلّ ذلك من قبيل تفسير الآية بالعقل الحصيف النظري في مقابل التفسير بالعقل الحصيف العملي الذي سنوضحه تالياً.

القرآن والعقل العملي

قسّم الحكماء العقل إلى عقل نظري وعقل عملي، والمراد هو تقسيم المُدرَك إلى هذين القسمين، وإلاّ فالعقل المدرِك واحد بجوهره ووجوده، فما يدركه لو كان من قبيل ما يجب أن يُعلم ويُدرك فهو عقل نظري ـ كما عرفت من الأمثلة السابقة ـ حيث أدركنا أنّ الله سبحانه واحد لا نظير له، وأنّه مدبّر لا مدبّر سواه، وأنّه فوق أن يُرى وأنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن.

وأمّا ما يدركه العقل ممّا يجب أن يعمل ويُطبّق على الحياة فيعبّر عنه بالعقل العملي أي المدرَك الذي يجب أن يعمل به في نظر العقل، وهذا ما يعبّر عنه بالتحسين والتقبيح العقليّين الذي له فروع وشؤون في نظر العقل.

فهناك مَن يفسّر القرآن الكريم بالعقل الصريح العملي، وإليك نموذجين من هذه المقولة.

١. تنزيهه سبحانه عن العبث

إذا قلنا بالتحسين والتقبيح العقليين وأنّ العقل يدرك لزوم ما يحسّنه العقل والاجتناب عمّا يقبّحه، يفسّر بذلك لفيف من الآيات:

أ. أنّه سبحانه يصف فعله بالنزاهة عن العبث واللغو، ويقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَانّكُمْ إِلينا لا تُرجعُون) .(المؤمنون:١١٥.)

(وَما خَلَقْنا السّموات وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبين) .(الدخان:٣٨.)

(وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّار).(سورة ص:٢٧.)

(وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُون) .(الذاريات:٥٦.)

وعلى ضوء ذلك فأفعاله سبحانه لا تنفكّ عن الأغراض، لكن الغرض غاية للفعل لا للفاعل، وبذلك يعلم جواب السؤال التالي:

لو كان فعله تعالى نابعاً عن الغرض لكان ناقصاً بذاته، مستكملاً بتحصيل ذلك الغرض، لأنّه لا يصلح غرضاً للفاعل إلاّ ما هو أصلح له من عدمه وهو معنى الاكتمال.

والجواب: أنّ السائل خلط بين الغرض الراجع إلى الفاعل والغرض الراجع إلى فعله، فالاستكمال موجود في الأوّل دون الثاني، والقائل بأنّ أفعاله سبحانه ليست منفكّة عن الغايات والدواعي إنّما يعني بها الثاني، أي كونه غرضاً للفعل دون الأوّل، فإنّ الغرض بالمعنى الأوّل ينافي كونه غنياً بالذات، والغرض بالمعنى الثاني يوجب خروج فعله عن كونه عبثاً ولغواً وعن كونه سبحانه عابثاً ولاغياً، فالجمع بين كونه غنياً غير محتاج إليه وكونه حكيماً منزّهاً عن العبث واللغو يحصل باشتمال أفعاله على مصالح وحكم ترجع إلى العباد والنظام لا إلى وجوده وذاته.

نعم ربّما يمكن أن يقال: إنّ هذا النوع من التفسير يرجع إلى تفسير الآية في ضوء المدارس الكلامية مع أنّ البحث في غيره.

والجواب: أنّ المقصود من المدارس الكلامية هو الأحكام العقلية غير الواضحة على أكثر العقول، وأمّا الظاهر عليه فهو تفسير بالعقل الصريح، والتحسين والتقبيح من هذا النوع من الإدراكات العقلية وإن استخدمته العدلية في مدارسهم الكلامية.

٢. الله عادل لا يجور

إنّه سبحانه يصف نفسه بكونه قائماً بالقسط، يقول: (شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لاإِلهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَة وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ).(آل عمران:١٨.)

وكما شهد على ذاته بالقيام بالقسط، عرّف الغاية من بعثة الأنبياء بإقامة القسط بين الناس.

قال سبحانه: (لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلنا بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ).(الحديد:٢٥.)

كما صرّح بأنّ القسط هو الركن الأساس في محاسبة العباد يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: (وَنَضَعُ المَوازِينَ القِسْطِ لِيَوْمِ القِيامَة فَلا تظلِمُ نَفسٌ شَيْئاً).(الأنبياء:٤٧.)

وما في هذه الآيات وغيرها إرشادات إلى ما يدركه العقل من صميم ذاته، بأنّ العدل كمال لكلّ موجود حيّ مدرك مختار، وأنّه يجب أن يوصف اللّه تعالى به في أفعاله في الدنيا والآخرة، ويجب أن يقوم سفراؤه به.

وبعبارة أُخرى: اللّه سبحانه عادل، لأنّ الظلم قبيح، ولا يصدر القبيح من الحكيم، فلا يصدر الظلم من اللّه سبحانه.

هذا نموذج ثان لتفسير الآيات بالعقل العملي الصريح، وعليك الإمعان في سائر الآيات التي ترجع إلى العقائد، كي تستخرج منها ما يرجع إلى العقل النظري وما يرجع إلى العقل العملي وتفسيرها بأحدهما في نهاية الأمر.

بقيت هنا أُمور:

الأوّل: أنّه سبحانه يصف نفسه في سورة الحشر بصفات لا يمكن تفسيرها إلاّ في ضوء العقل الصريح، فمَن رفض العقل في تفسير القرآن الكريم يعرقل خطاه في تفسير هذا القسم من الآيات التالية:

(هُوَ اللّهُ الّذي لا إِلهَ إِلاّ هُوَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشّهادةِ هُوَ الرّحمنُ الرّحيم).(الحشر: ٢٢ .)

(هُوَ اللّهُ الّذي لا إِلهَ إِلاّهُوَ المَلِكُ الْقُدُوس السَّلام المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبّار المُتَكَبِّر سُبحانَ اللّه عَمّا يُشْرِكُونَ).(الحشر: ٢٣.)

(هُوَ اللّهُ الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّر لَهُ الأَسماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماوات وَالأَرض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم).(الحشر: ٢٤.)

وفي هذا القسم من التفسير لا يهتم المفسّر في إخضاع الآيات لمنهج عقلي كلامي خاص، وإنّما هو من قبيل الاستضاءة بهذه الأُصول الثابتة عند العقل في تحصيل الآيات.

الثاني: أنّ مَن اتّخذ العقل أداة وحيدة للتفسير يجب عليه الاقتصار على تفسير الآيات الراجعة إلى العقائد والمعارف وشيئاً ممّا يرجع إلى الأخلاق والمسائل الاجتماعية ولا يتمكّن من تفسير آيات الأحكام والقصص والمغازي وما أشبههما.

الثالث: قد وقفت على كتاب أسماه مؤلّفه السيد نور الدين بن شفيع العراقي (المتوفّى عام ١٣٤١هـ ق) «القرآن والعقل» و قد طبع في

أجزاء ثلاثة، فقد قام بتفسير القرآن بما يوحي إليه عقله الشخصي ويدركه بوجدانه، وإنّما أسمى كتابه بهذا لأنّه لم يكن حين تأليف التفسير كتاب سوى تفسير الجلالين، وقد ألّفه وهو في ساحات الحروب ينتقل من مكان إلى آخر.

تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية والسنن المختلفة ...

وعلى كلّ تقدير فليس ما ألّفه على غرار ما ذكرنا من التفسير بالعقل السليم، فلاحظ.

الثاني: تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية والسنن المختلفة

هذا هو القسم الثاني من تفسير القرآن بالعقل أي بغير الأثر المروي، والمراد من هذا القسم هو إخضاع الآيات للعقائد التي اعتنقها المفسّر في مدرسته الكلامية، ونجد هذا اللون من التفسير بالعقل غالباً في تفاسير أصحاب المقالات: المعتزلة والأشاعرة، فإنّ لهؤلاء عقائد خاصّة في مجالات مختلفة، زعموا أنّها حقائق راهنة على ضوء الاستدلال، وفي مجال التفسير حملوا الآيات على معتقدهم، وإن كان ظاهر الآية يأباه ولا يتحمّله، غير أنّ هذا النمط من التفسير بالرأي والعقل، يختلف حسب بُعد المعتقد عن مدلول الآية، فربّما يكون التفسير بعيداً عن الآية، ولكن تتحمّلها الآية بتصرّف يسير، وربّما يكون الأصل الكلامي بعيداً عن الآية غاية البعد بحيث لا تتحمّله الآية حتى بالتصرّف الكثير فضلاً عن اليسير.

وإليك نماذج من التفسير على ضوء المدارس الكلامية.

الأوّل: تفسير الآيات على ضوء مدرسة الاعتزال

١. الشفاعة حطّ الذنوب أو رفع الدرجة

إنّ الشفاعة لم تكن فكرة جديدة ابتكرها الإسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين جميع أُمم العالم من قبلُ وخاصةً بين الوثنيّين واليهود. نعم إنّ الإسلام قد طرحها مهذَّبة من الخرافات، وممّا نُسِج حولها من الأوهام.

ومن وقف على آراء اليهود والوثنيّين في أمر الشفاعة يقف على أنّ الشفاعة الدارجة بينهم كانت مبنيّة على رجائهم لشفاعة أنبيائهم في حطّ الذنوب وغفران آثامهم، ولأجل هذا الاعتقاد كانوا يقترفون المعاصي ويرتكبون الذنوب، تعويلاً على ذلك الرجاء، فالآيات النافية للشفاعة والمثبتة لها تحت شرائط خاصّة، كلّها راجعة إلى الشفاعة بهذا المعنى فلو نُفِيَت فالمنفي هو هذا المعنى، ولو قُبِلت والمقبول هو هذا المعنى، وقد أوضحنا في محلّه(لاحظ: مفاهيم القرآن: ١٧٧/٤ـ ١٩٩.) أنّ الآيات الواردة في مجال الشفاعة على سبعة أنواع لايصحّ تفسيرها إلاّ بتفسير بعضها ببعض، وتمييز القسم المردود من الشفاعة عن المقبول.

ومع ذلك نرى أنّ المعتزلة يخصُّون آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة ويرتكبون التأويل في موردها، وما هذا إلاّ للموقف الذي اتّخذوه في حقّ العصاة ومقترفي الذنوب، في أبحاثهم الكلامية، فقالوا بخلود أهل العصيان في النار إذا ماتوا بلا توبة.

قال القاضي عبد الجبار: إنّ شفاعة الفسّاق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا، يتنزّل منزلة الشفاعة لِمن قتلَ ولدَ الغير، وترصّد للآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح، فكذلك هاهنا.(شرح الأُصول الخمسة: ٦٨٨.)

والذي دفع القاضي إلى تصوير الشفاعة في حقّ المذنب بما جاء في المثال، هو اعتقاده الراسخ بالأصل الكلامي الذي يعدّ أصلاً من أُصول منهج الاعتزال(خلود العاصي إذا مات بلا توبة في النار) وفي الوقت نفسه يعرب عن غفلته عن شروط الشفاعة، فإنّ بعض الذنوب الكبيرة تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه كما تقطع الأواصر الروحية بالشفيع، فأمثال هؤلاء ـ العصاة ـ محرومون من الشفاعة، وقد وردت في الروايات الإسلامية شروط الشفاعة وحرمان طوائف منها.

ولو افترضنا صحّة ما ذكره من التمثيل فحكمه بحرمان العصاة من الشفاعة اجتهاد في مقابل نصوص الآيات وإخضاع لها لمدرسته الفكرية.

يقول الزمخشري في تفسير قوله سبحانه: (أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعَة)(البقرة:٢٥٤.)

: (ولا خُلَّة) حتى يسامحكم أخلاّؤكم به، وإن أردتم أن يحطّ عنكم ما في ذمّتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم في حط الواجبات، لأنّ الشفاعة ثمّة في زيادة الفضل لا غير.(تفسير الكشاف: ٢٩١/١ في تفسير الآية رقم ٢٥٤ من سورة البقرة.)

يلاحظ عليه: أنّ الآية بصدد نفي الشفاعة بالمعنى الدارج بين اليهود والوثنيّين لأجل أنّهم كفّار، وانقطاع صلتهم عن الله سبحانه، وبالتالي إثباتها في حقّ غيرهم بإذنه سبحانه ويقول في الآية التالية: (مَن ذا الّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إلاّ بإذنِه)، وأمّا أنّ حقيقة الشفاعة زيادة الفضل لا حطّ الذنوب فهو تحميل للعقيدة على الآية، فلو استدلّ القائل بها على نفي الشفاعة بتاتاً لكان أولى من استدلاله على نفي الشفاعة للكفّار، وذلك لأنّ المفروض أنّ الشفاعة بمعنى زيادة الفضل لا حطُّ الذنوب، وهو لا يتصوّر في حقّ الكفّار لأنّهم لايستحقّون الثواب فضلاً عن زيادته.

٢. هل مرتكب الكبيرة يستحقّ المغفرة أو لا ؟

اتّفقت المعتزلة على أنّ مرتكب الكبيرة مخلّد في النار إذا مات بلا توبة(لاحظ: أوائل المقالات: ١٤، وشرح الأُصول الخمسة: ٦٥٩.)،

وفي ضوء ذلك التجأوا إلى تأويل كثير من الآيات الظاهرة في خلافه نذكر منها آيتين:

الأُولى: يقول سبحانه (وإنّ ربَّكَ لَذُو مَغفِرة لِلنّاسِ عَلى ظُلمِهِمْ وإنَّ ربَّكَ لَشديدُ العِقاب).(الرعد: ٦.)

فالآية ظاهرة في أنّ مغفرة الربّ تشمل الناس في حال كونهم ظالمين، ومن المعلوم أنّ الآية راجعة إلى غير صورة التوبة وإلاّ لايصحّ وصفهم بكونهم ظالمين، فلو أخذنا بظاهر الآية فهو يدلّ على عدم جواز الحكم القطعي بخلود مرتكب الكبيرة في النار إذا مات بلا توبة، لرجاء شمول مغفرة الربّ له، ولمّا كان ظاهر الآية مخالفاً للأصل الكلامي عند صاحب الكشّاف، حاول تأويل الآية بقوله: «فيه أوجه:

١. أن يريد ـ قوله: (عَلَى ظُلمِهِمْ) ـ السيئات المكفَّرة، لمجتنب الكبائر.

٢. أو الكبائر بشرط التوبة.

٣. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال.(تفسير الكشّاف: ١٥٨/٢.)

وأنت خبير بأنّ كلّ واحد من هذه الاحتمالات مخالف لظاهر الآية أو صريحها.

الثانية:قال سبحانه: (إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاء).(النساء: ٤٨.)

والآية واردة في حقّ غير التائب، لأنّ الشرك مغفور بالتوبة أيضاً، فيعود معنى الآية أنّ الله سبحانه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء وإن مات بلا توبة، فتكون نتيجة ذلك عدم جواز الحكم القطعي بخلود مرتكب الكبائر في النار، ولمّا كان مفاد الآية مخالفاً لما هو المحرّر في المدرسة الكلامية للمعتزلة، حاول صاحب الكشّاف تأويل الآية فقال:

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين بقوله تعالى: (لِمَنْ يَشاء) كأنّه قيل: «إنّ الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك» على أنّ المراد بالأوّل من لم يتب وبالثاني من تاب، نظير قولك: إنّ الأمير لايبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد لايبذل الدينار لمن لايستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله.(تفسير الكشّاف: ٤٠١/١ في تفسير الآية المذكورة.)

يلاحظ عليه: أنّ ماذكره خلاف ظاهر الآية وقد ساقته إليه مدرسته الكلامية فنزّل الأوّل مورد عدم التوبة، والثاني موردها، حتى تتّفق الآية مع معتقده.

كما أنّه لا دلالة في الآية على تقييد الثاني بالتوبة، لأنّه تفكيك بين الجملتين بلا دليل، بل هما ناظرتان إلى صورة واحدة وهي صورة عدم اقترانهما بالتوبة فلا يغفر الشرك لعظم الذنب ويغفر ما دونه.

ومن هذا القبيل أيضاً، تفسيره لقوله سبحانه: (وَمَنْ يَقْتُل مُؤْمِناً مُتَعَمداً فَجَزاؤهُ جَهَنَّم خالِداً فِيها وَغَضب الله عَلَيْهِ وَلَعَنهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظيماً).(النساء:٩٣.)

فقد فسّره الزمخشري على ضوء مذهب الاعتزال من خلود أصحاب الكبائر ـ إذا ماتوا بلا توبة ـ في النار، وجعل هذه الآية من أدلّة عقيدته، فقال: هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ـ إلى أن قال: ـ والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، ثمّ لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتّباعهم هواهم، وما يخيّل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة:(أَفلا يتدبّرون القُرآن أَمْ عَلى قُلُوب أَقْفالها) .

فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله (وَمَنْ يَقْتُل)أيّ قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غيرتائب، إلاّ أنّ التائب أخرجه الدليل، فمن ادّعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.(تفسير الكشاف:١/٤١٦.)

إنّ ما ذكره الزمخشري بطوله قد ذكره القاضي عبد الجبار على وجه الإيجاز، وقال: وجه الاستدلال أنّه تعالى بيّن أن مَن قتل مؤمناً عمداً جازاه، وعاقبه، وغضب عليه، ولعنه وأخلده في جهنم.(شرح الأُصول الخمسة:٦٥٩.)

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ دلالة الآية بالإطلاق، فكما خرج منه القاتل الكافر إذا أسلم، والمسلم القاتل إذا تاب، فليكن كذلك من مات بلا توبة ولكن اقتضت الحكمة الإلهية أن يتفضّل عليه بالعفو، فليس التخصيص أمراً مشكلاً.

وثانياً: أنّ المحتمل أن يكون المراد: القاتل المستحل لقتل المؤمن، أو قتله لإيمانه وهذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات. و مثل هذا يكون كافراً خالداً في النار.

الثاني: التفسير على ضوء المنهج الأشعري

إنّ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (٥٤٣ـ ٦٠٦هـ) ممّن فسر كثيراً من الآيات القرآنية على ضوء مذهبه ومنهجه الذي يتبعه وهو مذهب الإمام الأشعري، وهو أشعري في العقيدة، شافعي في الفقه، فلنذكر نماذج من تفاسيره:

١. جواز التكليف بما لا يطاق

إنّ جواز التكليف بما لا يطاق من مذاهب الأشاعرة، ولقد احتجّ الرازي على مذهبهم بالآيات التالية:

قوله سبحانه: (إِنَّ الّذين كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون).(البقرة:٦.)

وقوله سبحانه: (لَقَدْحَقَّ الْقَولُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُون).(يس:٧.)

وقوله: (ذَرني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً ـ إلى قوله : ـ سأُرهِقُهُ صعوداً).(المدثر:١١ـ١٧.)

وقوله:(تبّت يدا أَبي لَهَب).(المسد:١.)

ثمّ أخذ بتقرير دلالة هذه الآيات على جواز التكليف بما لا يطاق بوجوه أربعة:

أوّلاً: أنّه تعالى أخبر عن أشخاص معيّنين أنّهم لا يؤمنون قط، فلو صدر منهم الإيمان، لزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذباً.

وثانياً: أنّه تعالى لمّا علم منهم الكفر، فكان صدور الإيمان منهم مستلزماً لانقلاب علمه تعالى جهلاً.

وثالثاً: أنّه تعالى كلّف هؤلاء ـ الذين أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون ـ بالإيمان ألبتة، والإيمان يعتبر فيه تصديق الله تعالى في كلّ ما أخبر عنه، وممّا أخبر عنه أنّهم لا يؤمنون قط، فقد صاروا مكلّفين بأن يؤمنوا بأنّهم لا يؤمنون قط، وهذا تكلّف بالجمع بين النفي والإثبات.(تفسير الرازي:٢/٤٢.)

يلاحظ عليه : أنّ الوجدان السليم والعقل الفطري يحكم بامتناع تكليف ما لا يطاق، فلا تظهر الإرادة في لوح نفس الآمر

وضمير روحه إذا علم أنّ المأمور غير قادر على العمل، ولذلك قلنا في محلّه إنّ مرجع التكليف بما لا يطاق إلى كون نفس التكليف محالاً، ولذلك يقول سبحانه: (لا يُكَلّف اللّهُ نَفساً إلاّ وُسعَها). (البقرة:٢٨٦).

وأمّا الوجوه التي اعتمد عليها الرازي فموهونة جدّاً، وذلك أنّ علمه الأزلي الذي اعتمد عليه في الوجهين الأوّلين لم يتعلّق بصدور كلّ فعل عن فاعله على وجه الإطلاق، بل تعلّق علمه بصدور كلّ فعل عن فاعله حسب الخصوصيات الموجودة فيه، وعلى ضوء ذلك تعلّق علمه الأزلي بصدور الحرارة من النار على وجه الجبر، بلا شعور، كما تعلّق علمه الأزلي بصدور الرعشة من المرتعش، عالماً بلا اختيار، ولكن تعلّق علمه سبحانه بصدور فعل الإنسان الاختياري منه بقيد الاختيار والحرية، فتعلّق علمه بوجود الإنسان بوصف كونه فاعلاً مختاراً وصدور فعله عنه اختياراً ـ فمثل هذا العلم ـ يؤكّد الاختيار ويدفع الجبر عن ساحة الإنسان.

وإن شئت قلت: إنّ العلّة إذا كانت عالمة شاعرة، ومريدة ومختارة كالإنسان، فقد تعلّق علمه بصدور أفعالها منها بتلك الخصوصيات وانصباغ فعلها بصبغة الاختيار والحرية، فلو صدر فعل الإنسان منه بهذه الكيفية كان علمه سبحانه مطابقاً للواقع غير متخلّف عنه، وأمّا لو صدر فعله عنه في هذا المجال عن جبر و اضطرار بلا علم وشعور، أو بلا اختيار وإرادة، فعند ذلك يتخلّف علمه عن الواقع.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تحليل ما ذكره الرازي بلفظه، فقال:

فلو صدر منهم الإيمان لزم انقلاب خبر اللّه تعالى الصدق كذباً، فنقول:

إنّ هؤلاء لا يصدر منهم الإيمان إلى يوم القيامة قطعاً لكن لا من جهة إخباره سبحانه عنه بل لأجل اختيارهم وانتخابهم عدم الإيمان إلى يوم القيامة، فالإخبار عن عدم تديّنهم شيء، و كون الإيمان خارجاً عن الاختيار شيء آخر، والآية تخبر عن الأوّل دون الثاني.

ومنه يظهر ضعف كلامه الثاني حيث قال: «فكان صدور الإيمان منهم مستلزماً لانقلاب علمه تعالى جهلاً»، وذلك لأنّه سبحانه أخبر عن عدم صدور الإيمان وبما أنّه مخبر صادق لا يصدر منهم الإيمان لكن لا لأجل أنّ اللّه أخبر عنه، بل لأجل مبادئ كامنة في أنفسهم تجرّهم إلى عدم الإيمان، فالإخبار عن عدم الإيمان شيء، وكون الإيمان خارجاً عن اختيارهم شيء آخر، والآية تخبر عن الأوّل دون الثاني.

وبما ذكرنا من التحليل تقدر على تحليل الوجه الثالث، إذ نمنع أنّهم كانوا مكلّفين بعدم الإيمان؟ بل كانوا مكلّفين بإخبار اللّه عن عدم ايمانهم اختياراً، وقد كان أبو لهب مكلّفاً بالتوحيد والرسالة، واللّه سبحانه أخبر عن عدم إيمانه، فبقاؤه على الكفر ليس لأجل إخباره سبحانه، بل لأجل علل نفسية موجودة في قرارة نفسه تمنعه عن الإيمان.

٢. امتناع رؤية اللّه أو إمكانها

ذهبت الأشاعرة إلى جواز رؤيته سبحانه يوم القيامة، وهذا هو الأصل البارز في مدرستهم الكلامية، ثم إنّ هناك آيات تدلّ بصراحتها على امتناع رؤيته سبحانه فحاولوا إخضاع الآيات لنظريتهم، وإليك نموذجاً واحداً، يقول سبحانه:

(ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْء فَاعبدُوهُ وَهوَ عَلى كُلِّ شَيء وَكيلٌ * لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ وَهُو يُدرِكُ الأَبصارَ وَهوَ اللَّطِيفُ الخَبير) (الأنعام: ١٠٢ـ ١٠٣).

ومن المعلوم أنّ الإدراك مفهوم عام لايتعيّن في مورد البصري أو السمعي أو العقلي إلاّ بالإضافة إلى الحاسّة التي يراد الإدراك بها، فالإدراك بالبصر يراد منه الرؤية بالعين، والإدراك بالسمع يراد منه السماع، هذا هو ظاهر الآية، وهي تنفي إمكان الإدراك بالبصر على الإطلاق.

ولمّا وقف الرازي على أنّ ظاهر الآية أو صريحها لا يوافق أصله الكلامي، لأنّها ظاهرة في نفي الإدراك بالبصر، قال: إنّ أصحابنا (الأشاعرة) احتجّوا بهذه الآية على أنّه تجوز رؤيته والمؤمنون يرونه في الآخرة، وذلك لوجوه:

١ . أنّ الآية في مقام المدح فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل التمدّح بقوله: (لا تُدرِكُهُ الأبصارُ)ألا ترى أنّ المعدوم لا تصح رؤيته، والعلم والقدرة والإرادة والروائح والطعوم لاتصح رؤية شيء منها ولا يمدح شيء منها في كونها «لاتدركه الأبصار» فثبت أنّ قوله: (لا تُدرِكُهُ الأبصارُ) يفيد المدح، إلاّ إذا صحّت الرؤية.

والعجب من غفلة الرازي عن أنّ المدح ليس بالجزء الأوّل فقط، أعني: (لا تُدرِكُهُ الأبصارُ)، بل المدح بمجموع الجزأين المذكورين في الآية كأنّه سبحانه يقول: والله جلّت عظمته يدرك أبصاركم، ولكن أبصاركم لا تدركه، فالمدح بمجموع القضيتين لا بالقضية الأُولى.

٢. أنّ لفظ «الأبصار» صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الاستغراق بمعنى أنّه لاتدركه جميع الأبصار، وهذا لا ينافي أن تدركه بعض الأبصار.(تفسير الرازي:١٣/١٢٥.)

يلاحظ عليه: أنّ الآية تفيد عموم السلب لاسلب العموم، بقرينة كونه في مقام بيان رفعة ذاته، وشموخ مقامه.

كأنّه سبحانه يقول: «لا يدركه أحد من جميع ذوي الأبصار من مخلوقاته ولكنّه تعالى يدركهم، وهذا نظير قوله سبحانه: (كَذلِكَ يَطبَعُ اللّهُ عَلى كُلِّ قَلبِ مُتَكبِّرٍ جَبّار)(غافر: ٣٥.)، وقوله: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختال فَخُور)(لقمان: ١٨.).

إلى غير ذلك من الوجوه الواهية التي ما ساقه إلى ذكرها إلاّ ليُخضِعَ الآيةَ، لمعتقده.

الثالث: التفسير على ضوء السنن الاجتماعية

غير خفيّ على الباحث أنّ لله سبحانه سنناً في حياة الإنسان والتي يعبّر عنها سبحانه في كتابه العزيز بـ(سُنَّةَ اللّهِ) وبالتعرّف عليها يقف الإنسان على أسباب تقدّم الأُمم وتدهورها، بل ربّما يقف على المشاكل التي تعوقه عن التطور والازدهار، كما يقف على كيفية رفعها وعلاج أدوائها.

إنّ صاحب المنار استلهاماً من أُستاذه الشيخ محمد عبده، يُعدّ من رجالات التفسير في عصره، وقد بنى تفسيره على بيان ما في القرآن من الإشارات إلى السنن والضوابط التي هي من سنن الله سبحانه. نعم قد غفل القدامى من المفسّرين عن استنطاق القرآن في هذا المجال، مع أنّ في كلام إمامهم(عليه السلام) إشارة إلى ذلك. يقول الإمام أمير المؤمنين علي(عليه السلام): «ذلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَـكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.)

فإذا كان هذا موقف القرآن الكريم، فالحقّ أنّ القدامى لم يولوا العناية بهذا الجانب من التفسير إلاّ شيئاً يسيراً، وأوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه هو السيد جمال الدين الأسدآبادي، فقد وجه أنظار المسلمين إلى الجانب الاجتماعي من التفسير، فقال في خطبته المعروفة:

عليكم بذكر الله الأعظم، وبرهانه الأقوم، فإنّه نوره المشرق، الذي به يخرج من ظلمات الهواجس، ويتخلّص من عتمة الوساوس، وهو مصباح النجاة، مَن اهتدى بها نجا، ومَن تخلّف عنه هلك، وهو صراط الله القويم، مَن سلكه هُدي، ومَن أهمله غوى.

خصائص تفسير المنار

إنّ لتفسير المنار خصائص تميّزه عن سائر التفاسير، وها نحن نشير إلى رؤوسها:

١. التحرّر من قيود التقليد وإعمال العقل في الأقوال والآراء المروية في الآيات، وفهم كتاب الله من دون نظر إلى مذهب إمام دون

إمام على وجه يكون القرآن هو المتبع دون مذهب الإمام.
٢. الاهتمام ببيان الأنظمة الاجتماعية ومشاكل الأُمّة الإسلامية خاصّة، ومشاكل الأُمم عامّة، وبيان علاجها بما أرشد إليه القرآن من أُصول وتعاليم.
٣. التوفيق بين القرآن والنظريات العلمية على وجه لا يكون القرآن مخالفاً للعلم.

فلنأت لكلّ ميزة بمثال.

أمّا الميزة الأُولى فيكفي الإمعان فيما ذكره حول آية الوصية للوالدين.

الوصية للوالدين ليست منسوخة

يقول سبحانه: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِين) .(البقرة:١٨٠.)

قال الشيخ الطوسي: تصحّ الوصية للوارث مثل الابن والأبوين، وخالف جميع الفقهاء في ذلك وقالوا: لا وصية للوارث.(الخلاف:٢/٤١، كتاب الوصية، المسألة١.)

وقال صاحب المنار: الآية صريحة في جواز الوصية للوالدين، ولا وارث أقرب للإنسان من والديه، وقد خصّهما بالذكر لأولويتهما بالوصية ثمّ عمّم الموضوع وقال: «والأقربين» ليعم كلّ قريب وارثاً كان أم لا، غير أنّ جمهور الفقهاء من أهل السنّة رفضوا الآية وقالوا بأنّ الآية منسوخة بآية المواريث، ولكنّ الإمام عبده خالف رأي الجمهور وقال: لا دليل على أنّ آية المواريث نزلت بعد آية الوصية هنا، فإنّ السياق ينافي النسخ، فانّ الله تعالى إذا شرّع للناس حكماً وعلم أنّه مؤقت وأنّه سينسخه بعد زمن قريب فإنّه لا يؤكّده ولا يوثّقه بمثل ما أكّد به أمر الوصية هنا من كونه حقّاً على المتّقين ومن وعيد لمن بدله.(تفسير المنار:٢/١٣٦ـ ١٣٧.)

وهذا دليل على أنّ الإمام نظر إلى الآية بعقلية حرّة من دون أن يتبع رأي الأئمّة الأربعة، وبذلك وجّه لوم المتحجّرين إلى نفسه كما هو شأن كلّ مصلح.

وأمّا الميزة الثانية فالحقّ أنّ تفسير الإمام مشحون بهذه المباحث ولا يمكن لنا عرض معشار ما جاء في ذلك الكتاب من هذا النوع من المسائل، ولنقتصر بالمورد التالي:

الصبر وأثره البنّاء

يقول الإمام في تفسير قوله سبحانه: (وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ): والصبر ملكة في النفس يتيسّر معها احتمال ما يشقّ احتماله، والرضى بما يكره في سبيل الحقّ، وهو خُلق يتعلّق به ـ بل يتوقّف عليه ـ كمال كلّ خُلق، و ما أتى الناس من شيء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه، كلّ أُمّة ضعف الصبر في نفوس أفرادها، ضعف فيها كلّ شيء، وذهبت منها كلّ قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: بنقص العلم عند أُمّة من الأُمم كالمسلمين اليوم، إذا دقّقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر، فإنّ من عرف باباً من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً على التوسّع فيه، والتعب في تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هيّن ليّن، لا يكلّفه مشقّة، ولا يجشمه تعباً، ويسلّي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتّخذهم أُسوة له في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلّف نفسه بعض ما حمّلوا أنفسهم عليه واعتقد كما كانوا يعتقدون أنّهم ليسوا بمعصومين.(تفسير جزء عمّ، تفسير سورة العصر. نقلاً عن التفسير والمفسّرون للذهبي:٢/٥٦٣.)

وكم للأُستاذ من بيانات شافية حول المحرّمات كالقمار والزنا، وحول الجهاد وتحريم الربا إلى غير ذلك من الأُسس الاجتماعية في الإسلام.

وأمّا الميزة الثالثة فنقتصر بالمورد التالي:

انشقاق السماء عند اختلال نظامها
يذكر في تفسير قوله سبحانه: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)(الانشقاق: ١.) انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مرّ تفسيره في قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)(الانفطار: ١.)، وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشقّقت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره.(تفسير جزء عمّ: ٤٩.) وهذه الأمثلة نقلناها من تفسيره المعروف لجزء عمّ، ذلك التفسير الذي ألّفه بقلمه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظونه من سور هذا الجزء، وعاملاً للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم، وقد أتمّ الأُستاذ تفسير هذا الجزء سنة ١٣٢١ هـ وهو في بلاد المغرب. وأمّا الدروس التي ألقاها الإمام فقد ابتدأ بأوّل القرآن في غرّة محرّم سنة ١٣١٧ هـ ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى: (ولِلّه ما في السَّمواتِ وَما في الأَرضِ وَكانَ اللّه بِكُلِّ شَيْء مُحِيطاً)(النساء:١٢٦.) في منتصف محرّم سنة ١٣٢١ هـ ، إذ توفّي (رحمه الله)لثمان خلون من جمادى الأُولى من السنة نفسها. وقد أملى الأُستاذ هذه الدروس على تلاميذه. ومع الأسف أنّ ما أملاه الإمام لم ينشر على وفق ما أملاه بلا تصرّف بزيادة أو نقيصة، فإنّ تلميذه السيد محمد رشيد رضا لمّا كتب تفسيره المسمّى بتفسير «المنار» أدخل فيه ما كتبه عن أُستاذه من آراء وأقوال ومزجها بآرائه وأفكاره، ولذلك لا يمكن أن ينسب كلّ ما فيه إلى الإمام إلاّ إذا صرح الكاتب به. وعلى كلّ حال فقد ابتدأ التلميذ بأوّل القرآن وانتهى عند قوله تعالى من سورة يوسف: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَني مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْوِيلِ الأَحاديثِ فاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيّ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بِالصّالِحِينَ). (يوسف:١٠١.) ثمّ وافته المنيّة قبل أن يتمّ تفسير القرآن.

مؤاخذات على تفسير المنار
قد تعرّفت على المزايا الإيجابية لتفسير المنار، وما فيه من اهتمام بالغ بتفسير القرآن وفق المعايير الاجتماعية السائدة على الحياة. بيد أنّ التفسير المذكور لا يخلو من سلبيات في موارد وأخصّ بالذكر المعاجز والكرامات، فقد حاول في كثير من الآيات المشتملة على هذا النوع من خوارق العادات، أن يخرجها عن طابعها الغيبي ويصبغها بالطابعَ المادي. والذي دفع المصنّف إلى هذا النوع من التفكير هو انبهاره بالحضارة الغربية المادّية حينما نُفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري من مصر وألقى رحل الإقامة في منفاه(باريس)، فشاهد عن كثب تقدّم العلوم الطبيعية وازدهارها في مختلف المجالات وصار العلم يثبت لكلّ ظاهرة علّة مادّية دون أن ينسبها إلى عوامل غيبية من الجن والملك. وقد دفع ذلك، الأُستاذ إلى محاولة الجمع بين الدين والعلم من خلال تفسير الخوارق بالأسباب الطبيعية على نحو يخرجها عن كونها أمراً خارقاً للعادة، وقد تأثّر بهذا المنهج كثير من تلامذته وهذه المحاولة ـ في الحقيقة ـ إخضاع الوحي للعلوم الطبيعة وتفسير له من هذا المنظار. وها نحن نذكر في المقام نماذج من هذه التأويلات ونقتصر من أجزاء المنار على الجزء الأوّل، كما نقتصر منه على بعض ما ذكره في تفسير سورة البقرة ونحيل الباقي إلى القارئ الكريم.

١. (وَلَقَد عَلِمتُمُ الّذِينَ اعتَدَوْا مِنكُم فِي السَّبتِ فَقُلنا لَهُم كُونُوا قِرَدةً خاسِئِين * فَجَعَلناها نَكالاً لِما بَينَ يَدَيها وَما خَلفَها وَمَوعِظَةً للمتَّقين)(البقرة: ٦٥ ـ ٦٦).

كتب ما يلي:

إنّ السلف من المفسّرين ـ إلاّ من شذّ ـ ذهب إلى أنّ معنى قوله: (كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِين) أنّ صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيّين. وإنّما نسب هذا المعنى إلى السلف، لأنّه يصطدم بالمنهج الذي اختاره الأُستاذ في تفسير القرآن، حيث لاتصدقه أنصار الحضارة المادية الّذين ينكرون إمكان صيرورة إنسان قرداً حقيقة دفعة واحدة، ولأجل ذلك مال الأُستاذ إلى رأي مجاهد الذي قال: ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثّلوا بالقردة كما مثّلوا بالحمار في قوله تعالى:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراة ثمَّ لَم يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفاراً).(الجمعة: ٥)

ثم أخذ في نقد قول الجمهور ـ إلى أن قال ـ : فما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة.(تفسير المنار: ١/٣٤٣ ـ٣٥٤).

ولا يخفى أنّه إذا صحّ هذا التأويل، فيصحّ لكلّ مَن ينكر المعاجز والكرامات وخوارق العادات، هذا النمط من التأويل، وعندئذ تبطل المعارف ويكون الكتاب العزيز لعبة بيد المحرّفين.

٢ . نقل صاحب المنار عن بعض المفسّرين مذهباً خاصّاً في معنى الملائكة وهو أنّ مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات، وخلقة حيوان، وحفظ إنسان وغير ذلك، فيه إيماء إلى الخاصّة بما هو أدقّ من ظاهر العبارة، وهو أنّ هذا النمو في النبات لم يكن إلاّ بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلّي قائم بنظام مخصوص تمّت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنّما قوامه بروح إلهي، سُمِّي في لسان الشرع مَلَكاً، ومن لم يقل في التسمية بالتوقيف يسمّي هذه المعاني بالقوى الطبيعية إذا كان لايعرف من عالم الإمكان إلاّ ما هو طبيعة أو قوّة يظهر أثرها في الطبيعة.

وقال الإمام عبده بعد نقل نظير هذه التأويلات: ولو أنّ نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس على ما أبصرت من الحق.(تفسير المنار: ١/٢٧٣)

ولايخفى أنّ هذا التأويل لو صحّ في بعض الأحاديث لما صحّ في الملائكة الوارد ذكرهم في قصة آدم وغيرها، وما هذا التأويل إلاّ للخضوع للمنهج الخاص الذي اختاره الأُستاذ في تفسير القرآن.

٣. يقول سبحانه: (وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرى اللهَ جَهْرَة فَأَخَذتكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون).(البقرة: ٥٥ ـ ٥٦ .)

المتبادر من الآية هو إحياؤهم بعد الموت، والخطاب لليهود المعاصرين للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)باعتبار أحوال أسلافهم، ولا يفهم أيّ عربي صميم من لفظة (ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوتِكُمْ)، غير هذا، إلاّ أنّ صاحب المنار ذهب إلى أنّ المراد من البعث هو كثرة النسل، أي أنّه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أنّهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحقّ الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حلّ بهم العذاب بكفرهم لها.(تفسير المنار:١/٣٢٢)

ولم يكن هذا التفسير من الأُستاذ إلاّ لأجل أنّ الاعتراف بالإحياء بعد الموت في الظروف المادّية ممّا لا يصدقه العلم الحسّي والتجربة، فلأجل ذلك التجأ إلى تفسيره بما ترى، وما أظن أنّ الأُستاذ يتفوّه بهذا التفسير في نظائر الآية من القرآن الكريم.

٤. أمر سبحانه بني إسرائيل بذبح البقرة، وقال: (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَومِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ

باللّه أَنْ أَكُون مِنَ الجاهلين) إلى أن قال: (وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارءتُمْ فيها وَاللّه مُخرجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُون * فَقُلْنا اضْربُوه ببَعضِها كَذلك يُحيِي اللّهُ المُوتى ويُريكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون).(البقرة:٦٧ـ ٧٣)

ومجمل القصّة هو أنّ رجلاً قتل قريباً له غنياً ليرثه، واختفى قتله له، فرغب اليهود في معرفة قاتله، فأمرهم اللّه أن يذبحوا بقرة ويضربوا بعض المقتول ببعض البقرة فإنّه يحيا، ويخبر عن قاتله.

وهذا هو ما اختاره الجمهور في تفسير الآية، وهو صريح قوله سبحانه:

(فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحيِي اللّهُ المَوتى) .

وأمّا الأُستاذ فقد سلك طريقاً آخر تحت تأثير موقفه المسبق من المعاجز والكرامات وخوارق العادة، فهو بعد أن نقل رأي الجمهور، قال: قالوا: إنّهم ضربوه فعادت إلى المقتول الحياة، وقال: قتلني أخي، أو ابن أخي فلان، قال: والآية ليست نصّاً في مجمله فكيف بتفصيله؟

ثمّ فسر الآية بما ورد في التوراة من أنّه إذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله، فالواجب أن تذبح بقرة في واد دائم السيلان ويغسل جميع أفراد القبيلة أيديهم على البقرة المكسورة العنق في الوادي، ويقولون: إنّ أيدينا لم تسفك هذا الدم. اغفر لشعبك إسرائيل، ويتّمون دعوات يبرأ بها مَن يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبين أنّه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء.

ثمّ قال: وهذا الإحياء على حدّ قوله تعالى :(وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حَياةٌ) (البقرة:١٧٩.) ومعناه حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قاتل تلك النفس.(تفسير المنار:١/٣٤٥ـ ٣٥٠.)

وأنت ترى أنّ هذا التفسير لا ينطبق على قوله: (فقُلنا اضرِبُوهُ بِبَعضِها): أي اضربوا النفس المقتولة ببعض جسم البقرة (كَذلِكَ يُحيِي اللّهُ المَوتى)، فهل كان في غسل الأيدي على البقرة المكسورة العنق، ضرب المقتول ببعض البقرة؟! هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً: كيف استند الأُستاذ ـ في تفسير الآية الحاضرة ـ بما ورد في التوراة، مع أنّ المشهور منه أنّه يستوحش كثيراً من بعض الروايات التي ربّما توافق ما ورد في الكتب المقدّسة، ويصفها بالإسرائيليات والمسيحيات، ومع ذلك عدل عن مسلكه واستند في تفسير الذكر الحكيم بالكلم المحرفة؟!

وليس هذا التفسير ـ في حقيقته ـ إلاّ لأجل ما اتّخذه الأُستاذ من موقف مسبق تجاه المعاجز والكرامات، وخوارق العادة، وغير ذلك ممّا يرجع إلى عالم الغيب.

٥. قال اللّه تعالى: (أَلَمْ تَر إِلَى الّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَالْمَوتِ فَقالَ لَهُمُ اللّه مُوتُوا ثُمَّ أَحياهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْل عَلَى النّاس ولكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يشكُرون).(البقرة:٢٤٣.)

ذهب الجمهور إلى أنّهم قوم من بني إسرائيل فرّوا من الطاعون أو من الجهاد فأرسل عليهم الموت، فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً منه، فأماتهم اللّه جميعاً وأمات دوابّهم ثمّ أحياهم لمصالح وغايات أُشير إليها في الآية.

لكن الأُستاذ أنكر ذلك واختار كون الآية مسوقة سوق المثل، وأنّ المراد بهم قوم هجم عليهم أُولو القوّة والقدرة من أعدائهم فلم يدافعوا عن استقلالهم وخرجوا من ديارهم وهم أُلوف، فقال لهم اللّه: موتوا موت الخزي والجهل، والخزي موت، والعلم وإباء الضيم حياة، فهؤلاء ماتوا بالخزي ثمّ أحياهم بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحقّ، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلّوا في أمرهم.

يلاحظ عليه: أنّه لو كانت الآية مسوقة سوق المثل وجب أن تذكر فيه لفظة «المثل» كما هو دأبه سبحانه في الأمثال القرآنية، مثل قوله :(كَمَثَلِ الّذي اسْتَوقَدَ ناراً) .(البقرة:١٧.)

وقوله تعالى: (إِنّما مَثَلُ الحَياة الدُّنْيا كَماء أَنْزَلْناهُ). (يونس:٢٤.)

وقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسفاراً).(الجمعة:٥.)

فحمل الآية على المثل وإخراجها عن كونها وردت لبيان قصّة حقيقية، تفسير بلا شاهد، وتأويل بلا دليل.

وكم للأُستاذ رشيد رضا في تفسيره هذا زلاّت وغفلات أجملنا الكلام فيها، ونذكر منها أمرين:

الأوّل: توغّله في التوهّب ودفاعه العنيف عن ابن تيمية وتعريفه بشيخ الإسلام على وجه أصبح من دعاة الوهابية، وناشري أفكارها.

الثاني: تحامله على الشيعة في غير واحد من المواضع على وجه دعا السيد محسن الأمين العاملي على إفراد كتاب أسماه «الحصون المنيعة في رد ما أورده صاحب المنار في حقّ الشيعة» وقد أغرق فيه نزعاً في التحقيق فلم يبق في القوس منزعاً. كما أنّه قد دارت بين العلمين حوارات حول ما نشر في مجلة المنار. وقد قامت اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام) بتحقيق هذه الحوارات تحت إشرافنا وتعاليقنا وطبع هذا الأثر القيّم بعنوان «حوارات علمية بين العلمين»، فلاحظ.

الرابع: التفسير على ضوء العلم الحديث

ومن المولعين بهذا النمط من التفسير الشيخ طنطاوي جوهري (١٢٨٧ـ ١٣٥٨هـ) في كتابه المعروف «الجواهر في تفسير القرآن» وهو يهتم بهذا النمط، قائلاً بأنّ في القرآن من آيات العلوم ما يربو على ٧٥٠ آية في حين أنّ علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على ١٥٠ آية. ثمّ إنّه يهيب بالمسلمين أن يتأمّلوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون، ويحثّهم على العمل بما فيها، ويندّد بمَن يغفل عن هذه الآيات على كثرتها، وينعى على مَن أغفلها من السابقين الأوّلين ووقف عند آيات الأحكام وغيرها ممّا يتعلّق بأُمور العقيدة.

ثمّ إنّ الشيخ الذهبي قد ذكر نماذج من هذا النوع من التفسير استخرجها من دراسة تفسير الطنطاوي، وقال : إنّا لنجد المؤلّف (رحمه الله) يفسّر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ثمّ قال: وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير.

١. يقول سبحانه: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيديهِم وَأَرجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُون)(النور: ٢٤.)، وقوله سبحانه: (الْيَومَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُون) (يس:٦٥.)، والشيخ طنطاوي يفسّر الآيتين ونظائرهما بما أثبته العلم.

يقول: «أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام، وآثار أصابع الأيدي في آياتنا الحاضرة، هو نفس الذي صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للإنسان: (كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوم عَلَيْكَ حَسيباً)(الإسراء:١٤.)، والقائل: (بَلِ الإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصيرة) (القيامة:١٤.)، أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أنّ من الدلائل ما ليس بالبيّنات المشهورة عند المسلمين؟ وأنّ هناك ما هو أفضل منها؟ وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها. ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أنّ الأيدي فيها أسرار، وفي الأرجل أسرار، وفي النفوس أسرار، فالأيدي لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم، أو ليس في الحقّ أن أقول: إنّ هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلاّ فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصّها وفصّها.(الجواهر في تفسير القرآن:٣/٩.)

٢. يقول سبحانه: (أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا انّ السَّمواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِكُلّ شَيْء حَيّ أَفَلا يُؤْمِنُون).(الأنبياء:٣٠.)

فقد فسّر القدماء فتق السماء بنزول المطر وفتق الأرض بخروج النبات، غير أنّ الشيخ طنطاوي يفسّره بما يوحي إليه العلم الحديث، يقول: ها أنت قد اطّلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أنّ السماوات و الأرض أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم، كانت ملتحمة فصلها الله تعالى، وقلنا: إنّ هذه معجزة، لأنّ هذا العلم لم يعرفه الناس إلاّ في هذه العصور، وهذه معجزة تامّة للقرآن، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا.(الجواهر في تفسير القرآن:١٠/١٩٩.)

٣. يذكر في تفسير قوله سبحانه: (وَخَلَقَ الجانّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نار)(الرحمن:١٥)قوله: والمارج المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما أنّ الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أنّ الضوء مركّب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه. فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة، وإلى أنّ اللهب مضطرب دائماً، وإنّما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلى أنّ نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل. تأمّل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم أنّ الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أمّا الروح الناقصة فإنّها تكون قلقة مضطربة.(الجواهر في تفسير القرآن:٢٤/١٧.)

هذه النماذج ونظائرها استخرجها الأُستاذ الذهبي من تفسير الشيخ طنطاوي، وأعقبها بقوله:

والكتاب ـ كما ترى ـ موسوعة علمية، ضربت في كلّ فن من فنون العلم بسهم وافر، ممّا جعل هذا التفسير يوصف بما يوصف به تفسير الفخر الرازي، فقيل عنه (فيه كلّ شيء إلاّ التفسير) بل هو أحقّ من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به، وإذا دلّ الكتاب على شيء، فهو أنّ المؤلف كان كثيراً ما يسبح في ملكوت السماوات والأرض بفكره، ويطوف في نواح شتى من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، ثمّ ليظهر لهم بعد هذا كلّه أنّ القرآن قد جاء متضمّناً لكلّ ما جاء به الإنسان من علوم ونظريات، ولكلّ ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقاً لقول الله تعالى في كتابه: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْء)، ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه.(التفسير والمفسّرون:٢/٥١٧.)

ويلاحظ على ذيل ما ذكره الذهبي أنّ المراد من (الْكِتَابِ) في الآية هو الكتاب التكويني للّه سبحانه، لا التدويني، يظهر ذلك لمن أمعن في الآية وسياقها.

الخامس: التفسير حسب تأويلات الباطنية

تطلق الباطنية ويراد بها الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق (عليه السلام)بعد رحيل أبيه، وعرفوا بالباطنية لأخذهم باطن القرآن دون ظاهره.

وقد أشبعنا البحث حول عقائد الإسماعيلية في كتابنا «بحوث في الملل والنحل» و قلنا بأنّ إسماعيل بن جعفر (عليه السلام)بريء من هذه الوصمة، وإنّما هي أفكار موروثة من محمد بن مقلاص المعروف بأبي الخطّاب الأسدي وزملائه، نظراء: المغيرة بن سعيد، وبشار الشعيري، وعبد الله بن ميمون القداح، إلى غير ذلك من رؤساء الباطنية، وقد تبرّأ الإمام الصادق (عليه السلام)والأئمّة المعصومون من هذه الفرقة في بلاغات وخطابات خاصّة إلى أتباعهم،ولعنوا الخطابية، ولم نعثر لهم على كتاب تفسيري يفسّر القرآن برّمته، وإنّما حاولوا تفسير الموضوعات الواردة في القرآن والأحاديث وأسموها بباطن القرآن.

إنّ الباطنية وضعوا لتفسير المفاهيم الإسلامية ضابطة ما دلّ عليها من الشرع شيء، وهي أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، وإنّ باطنه يؤدّي إلى ترك العمل بظاهره، واستدلّوا على ذلك بقوله سبحانه:

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُور لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ).(انظر: الفرق بين الفرق:١٨، والآية ١٣من سورة الحديد.)

وعلى ضوء ذلك فقد أوّلوا المفاهيم الإسلامية بالنحو التالي:

١. الوضوء عبارة عن موالاة الإمام.

٢. التيمّم هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجّة.

٣. والصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة العنكبوت: (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاء

وَالْمُنْكر) .

٤. والغسل تجديد العهد فمَن أفشى سرّاً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى الاحتلام.

٥. والزكاة هي تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين.

٦. والكعبة النبي.

٧. والباب علي.

٨. والصفا هو النبي.

٩. والمروة علي.

١٠. والميقات الإيناس.

١١. والتلبية إجابة الدعوة.

١٢. والطواف بالبيت سبعاً موالاة الأئمة السبعة.

١٣. والجنة راحة الأبدان من التكاليف.

١٤. والنار مشقّتها بمزاولة التكاليف.(شرح المواقف:٨/٣٩٠.)

هذا ما نقلناه عن كتاب «المواقف»، وإن كنت في شكّ ممّا ذكره فنحن ننقل شيئاً من تأويلاتهم من كتاب «تأويل الدعائم» للقاضي النعمان الذي كان قاضي قضاة الخليفة الفاطمي المعز لدين اللّه مؤسّس القاهرة وجامعة الأزهر، وهذا الكتاب يضمّ في طيّاته تأويل الأحكام الشرعية بدءاً بالطهارة والصلاة وانتهاءً بكتاب الجهاد، فقد أوّل كلّ ما جاء في هذه الأبواب من العناوين والأحكام، وطبع الكتاب في مطبعة دار المعارف في مصر، وإليك نزراً من هذه التأويلات .

جاء في كتاب «تأويل الدعائم»: عن الباقر (عليه السلام): «بني الإسلام على سبع دعائم:(المرويّ من طرقنا: بني الإسلام على خمس.) الولاية: و هي أفضلها وبها و بالوليّ يوصل إلى معرفتها، والطهارة، والصلاة،والزكاة،والصوم، و الحج، و الجهاد»، فهذه كما قال (عليه السلام): دعائم الإسلام وقواعده، و أُصوله التي افترضها اللّه على عباده.

ولها في التأويل الباطن أمثال، فالولاية مَثلُها مَثلُ آدم(عليه السلام) لأنّه أوّل من افترض اللّه عزّوجلّ ولايته، و أمر الملائكة بالسجود له، و السجود: الطاعة، وهي الولاية، و لم يكلّفهم غير ذلك فسجدوا إلاّ إبليس، كما أخبر تعالى، فكانت المحنةُ بآدم(عليه السلام) الولاية، وكان آدمُ مثلَها، ولابدَّ لجميع الخلق من اعتقاد ولايته، و من لم يتولّه، لم تنفعْهُ ولاية من تولاّه من بَعده، إذا لم يدِن بولايته ويعترف بحقّه، و بأنّه أصل مَنْ أوجب اللّهُ ولايتَه من رسله و أنبيائه وأئمّة دينه، و هو أوّلهم وأبوهم.

والطهارة: مَثَلُها مَثَلُ نوح (عليه السلام)، وهو أوّل مبعوث و مرسل من قبل اللّه لتطهير العباد من المعاصي والذنوب التي اقترفوها، ووقعوا فيها من بعد آدم (عليه السلام)، وهو أوّل ناطق من بعده، وأ وّلُ أُولي العزم من الرسل، أصحاب الشرائع،وجعلَ اللّه آياته التي جاء بها، الماء، الذي جعله للطهارة و سمّاه طهوراً.

والصلاة: مَثَلُها مَثَلُ إبراهيم (عليه السلام) وهو الذي بَنى البيتَ الحرام، ونصبَ المقام، فجعل اللّه البيت قبلة، والمقامَ مصلّى.

والزكاة: مثلها مثل موسى،وهو أوّل من دعا إليها ، و أُرسل بها، قال تعالى: (هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى * إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ المُقَدَّسِ طُوى * اذْهَبْ إِلى فِرْعَونَ إِنَّهُ طَغى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى) .(النازعات:١٥ـ١٨.)

والصوم: مَثَلُه مثل عيسى (عليه السلام)وهو(الظاهر أنّ ضمير الفاعل يرجع إلى الروح الأمين.) أوّل ما خاطب به أُمّه، أن تقولَ لِمَنْ رأته من البشر، وهو قوله الذي حكاه تعالى عنه لها:(فَإِمّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَومَ

إِنْسِيّاً).(مريم:٢٦.) وكان هو كذلك يصوم دهره، و لم يكن يأتي النساء، كما لا يَجوز للصائم أن يأتيهنّ في حال صومه.
والحج: مَثَلُه مَثَلُ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، و هو أوّل مَن أقام مناسك الحج، و سنَّ سنته، وكانت العرب و غيرها من الأُمم، تحجّ البيت في الجاهليّة و لا تقيم شيئاً من مناسكه، كما أخبر اللّه تعالى عنهم بقوله: (وما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً).(الأنفال:٣٥.)
وكانوا يطوفون به عُراة، فكان أوّلُ شيء نهاهم عنه ذلك فقال، في العُمرة التي اعتمرها، قبل فتح مكة، بعد أن وادعَ أهلَها، وهم مشركون:«لا يطوفنّ بعد هذا بالبيت عريان، ولا عريانة»، وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناماً لهم يعبدونها، فلمّا فتح اللّهُ مكّة كسّرها، وأزالها، وسنَّ لهم سُنن الحجّ، و مناسكه، وأقام لهم بأمر اللّه معالمه، وافترض فرائضه. و كان الحجّ خاتمة الأعمال المفروضة، وكان هو (صلى الله عليه وآله وسلم)خاتم النبيين، فلم يبق بعدَ الحجّ من دعائم الإسلام غير الجهاد، وهو مثل سابع الأئمّة ، الذي يكون سابع اسبوعهم الأخير، الذي هو صاحب القيامة.(تأويل الدعائم:١/٥١ـ٥٢.)

مع الشهرستاني في كتابه «مفاتيح الأسرار»

الرأي السائد في مذهب الشهرستاني (٤٦٧ـ ٥٤٨هـ) هو أنّه سنّي أشعري يدافع عن السنّة على ضوء المذهب الأشعري، وقد قمنا بترجمة حياته في موسوعتنا «بحوث في الملل والنحل» على ضوء تأليفاته لا سيما كتابه المشهور «الملل والنحل» غير أنّا وقفنا على كتابه في تفسير القرآن الكريم أسماه «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» الذي طبع عام ١٤٠٩هـفي طهران على نسخة وحيدة منه في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي. وقد تصفّحنا بعض فصوله، فدلّ ـ لو صحت نسبة الكتاب إليه ـ على أنّه إسماعيلي يتستر بغطاء التسنّن، ولكنّه إسماعيلي غير متطرّف فيأخذ بظواهر القرآن وفي الوقت نفسه يطلب له تأويلاً ينسجم مع الفكر الإسماعيلي.
يقول في مقدّمته: لقد كانت الصحابة (رضي الله عنهم) متّفقين على أنّ علم القرآن مخصوص بأهل البيت (عليهم السلام)، إذ كانوا يسألون علي بن أبي طالب (عليه السلام)هل خصصتم أهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟ وكان يقول: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلاّ بما في قراب سيفي هذا».
فاستثناء القرآن بالتخصيص دليل على إجماعهم بأنّ القرآن وعلمه، تنزيله، وتأويله مخصوص بهم، ولقد كان حبر الأُمّة عبد اللّه بن عباس (رضي اللّه عنه) مصدر تفسير جميع المفسّرين، وقد دعا له رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)بأن قال: «اللّهمّ فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل» فتلمّذ لعلي (عليه السلام)حتى فقّهه في الدين وعلّمه التأويل.
ولقد كنت على حداثة سنّي أسمع تفسير القرآن من مشايخي سماعاً مجرّداً حتى وُفقْتُ، فعلّقته على أُستاذي ناصر السنّة أبي القاسم سلمان بن ناصر الأنصاري (رضي اللّه عنهما) تلقفاً(كذا).
ثمّ أطلعتني مطالعات كلمات شريفة عن أهل البيت وأوليائهم (رضي الله عنهم) على أسرار دفينة وأُصول متينة في علم القرآن، وناداني مَن هو في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة الطيبة (يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقُوا اللّه وَكُونُوا مَعَ الصّادِقين)(التوبة:١١٩.)، فطلبت الصادقين طلبَ العاشقين، فوجدت عبداً من عباد اللّه الصالحين كما طلب موسى (عليه السلام)مع فتاه (فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً)(الكهف:٦٥.)، فتعلّمت منه مناهج الخلق والأمر، ومدارج التضاد والترتيب، ووجهي العموم والخصوص، وحكمي المفروغ والمستأنف، فشبعت من هذا المِعَا الواحد، دون الأمعاء التي هي مآكل الضُّلاّل ومداخل الجُهّال، وارتويت من شرب التسليم بكأس، كان مزاجه من تسنيم فاهتديت إلى لسان القرآن: نظمه، وترتيبه، وبلاغته، وجزالته، وفصاحته، وبراعته.
ثمّ إنّه بعد ما يشير إلى أنّ القرآن بحر لا يدرك غوره،ولا يدرك ساحله، والسباحة في هذا البحر كانت مقرونةً بالخطر، يقول:

فوجدت الحبر العالم فاتّبعته على أن يعلّمني ممّا عُلّم رُشداً، وآنست ناراً، فوجدت على النار هدى، فنقلت القراءة والنحو واللغة، والتفسير، والمعاني من أصحابها على ما أوردوه في الكتب نقلاً صحيحاً، من غير تصرّف فيها بزيادة أو نقصان، سوى تفسير مجمل، أو تقصير مطوّل، وعقّبتُ كلّ آية بما سمعت فيها من الأسرار، وتوسمتها من إشارات الأبرار، ولقد مرّ على الخوض فيها فصول في علم القرآن هي مفاتيح العرفان، وقد بلغت اثنا عشر فصلاً، قد خلت عنها سائر التفاسير وسمّيت التفسير بـ«مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» وأستعيذ بالله السميع العليم من القول فيها برأي واستبداد دون رواية واسناد، والخوض في أسرارها ومعانيها جزافاً وإسرافاً دون العرض على ميزان الحقّ والباطل، وإقامة الوزن بالقسط وتقرير الحقّ وتزييف الرأي المقابل له.(مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار:١/٢.)

ثمّ إنّه ذكر في الفصل الثامن معنى التفسير والتأويل، وبما أنّ لأكثر كلامه مسحة من الحقّ نأتي به.

يقول: ثمّ التأويل المذكور في القرآن على أقسام:

منها: تأويل الرؤيا بمعنى التعبير: (هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْل) .(يوسف:١٠٠.)

ومنها:تأويل الأحاديث: (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ).(يوسف:٦.)

ومنها: تأويل الأفعال:(ذلك تَأْويلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً).(الكهف:٨٢.)

ومنها : الرد إلى العاقبة والمآل:(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ).(الأعراف:٥٣.)

ومنها: الرد إلى الله والرسول: (فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْء فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً).(النساء:٥٩.)

ومنها: تأويل المتشابهات: (فَأَمّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ).(آل عمران:٧.)

وفي القرآن أحكام المفروغ، وأحكام المستأنف، وأحكام متقابلات على التضاد، وأحكام متفاضلات على الترتّب، فرؤية المستأنف هو الظاهر والتنزيل والتفسير، ورؤية حكم المفروغ هو الباطن والتأويل والمعنى والحقيقة(وَالرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الأَلْباب)(آل عمران:٧.).(مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار:١/١٩.)

فهذا المقطع من كلامه يبيّن موقفه من تأويل القرآن، فالأسرار التي يودعها في تفسيره إن كانت مستندة إلى نصّ معتبر فهي مقبولة، وإلاّ فيرجع إلى التفسير بالرأي.ومن أراد أن يقف على منهج تفسيره وتأويله، فلينظر إلى تفسير قوله سبحانه: (وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا الاّإِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرِينَ)(البقرة:٣٤.) فلاحظ ص ١١٧ـ ١٢١ من التفسير المذكور.(ونحن نرفع آية الاعتذار إلى القرّاء الأعزّاء لإطناب الكلام فيه، وما ذلك إلاّ نتيجة الغموض الذي كان يكتنف بعض جوانب سيرة المؤلّف، حتى وقفنا على تفسيره فاطّلعنا على جانب من حياته ومذهبه الّذي كان مكتوماً حقبة طويلة من الزمن، وإن كان في بعض الكلمات التي نقلناها في كتابنا«الملل والنحل» إشارة إليه.)

السادس: التفسير حسب تأويلات الصوفية

التفسير الصوفي قد تأثّر إلى حدّ كبير بأفكار الباطنية، واستخدم القرآن في هدف خاصّ وهو دعم الأُسس العرفانية والفلسفية، وفي الحقيقة أنّهم لم يخدموا القرآن الكريم بشيء وإنّما خدموا آراءهم وأفكارهم من خلال تطبيق الآيات على آرائهم.

فالتفسير الصوفي شعبة من شعب التفسير الباطني في قالب معيّن، كما أشرنا إليه.

وهو ينقسم إلى: تفسير نظري، وفيضي.

أمّا الأوّل، فهو التفسير المبني على أُصول فلسفية ورثوها من أصحابها، فحاولوا تحميل نظرياتهم على القرآن الكريم.

وأمّا التفسير الفيضي، فهو تأويل الآيات على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات رمزية تظهر لأرباب السلوك من غير دعم بحجّة أو برهان.

وبعبارة أُخرى: التفسير الفيضي يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل بها إلى درجة تنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف الإلهية.

وعلى كلّ تقدير فتفاسيرهم من غير فرق بين النظري والفيضي مبنية على حمل القرآن على ما يعتقدون به من الأُصول والقواعد من دون حجّة وبرهان.

وهانحن نذكر شيئاً من تفاسيرهم:

هانحن نذكر شيئاً من تفاسيرهم:

١. تفسير التستري

ولعلّ أوّل تفسير ظهر هو تفسير أبي محمد سهل بن عبد الله التستري(٢٠٠ـ ٢٨٣هـ) وقد طبع بمطبعة السعادة بمصر عام ١٩٠٨م ، جمعه أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، فهو يفسّر البسملة بالشكل التالي:

أ. الباء: بهاء الله، والسين: سناء الله، والميم: مجد الله، والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلّها، وبين الألف واللام منه حرف مكنّى، غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر.(تفسير التستري:١٢.)

ب. من ذلك ما ذكره في تفسير الآية: (وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)(البقرة:٣٥.)، لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنّما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره، أي لا تهتم بشيء هو غيري، قال: فآدم (عليه السلام)لم يعصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كلّ مَن ادّعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظراً إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله مع ما جبلت عليه نفسه، إلاّ أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها.(تفسير التستري: ١٦ـ١٧.)

ج. ومنها ما ذكره في تفسير الآية ٩٦ من سورة آل عمران: (إِنّ أوّلَ بيت وُضِعَ لِلنّاسِ...): أوّل بيت وضع للناس بيت الله عزّوجلّ بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به مَن أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس.(تفسير التستري:٤٠.)

د. ومنها ما ذكره في تفسير الآية ٣٦ من سورة النساء:(وَالجارِ ذِي القُربى وَالجارِ الجُنُبِ وَالصاحِبِ بِالجَنْبِ وَابنِ السَّبِيلِ...) : وأمّا باطنها، فالجار ذي القربى هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله.(تفسير التستري:٤٥.)

٢. حقائق التفسير للسلمي

إنّ ثاني تفاسير الصوفية التي ظهرت إلى الوجود، هو تفسير أبي عبد الرحمن السلمي (٣٣٠ـ ٤١٢هـ) المسمّى بـ«حقائق التفسير» وكان شيخ الصوفية ورائدهم بخراسان، وله اليد الطولى في التصوّف.

أ. قال في تفسير الآية: (وَلَوْ أَنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ)(النساء:٦٦.): قال محمد بن الفضل: (اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)بمخالفة هواها، (أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ): أي أخرجوا حبّ الدنيا من قلوبكم(ما فَعَلُوهُ إِلاّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ) في العدد، كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة.(تفسير السلمي:٤٩.)

ب. وفي سورة الرعد عند قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ) .(الرعد:٣.)

يقول: قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض، وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبيده، فإليهم الملجأ وبهم النجاة، فمَن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومَن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر.(تفسير السلمي: ١٣٨.)

ج. وفي سورة الحجّ عند قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أنزلَ من السَّماءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مُخْضَرّة).(الحج:٦٣.)

يقول: قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرّت بزينة المعرفة،

وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيّدها، واشتاقت إلى ربّها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع. ذاك آواها الحقّ إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس.(تفسير السلمي: ٢١٢.) د. وفي سورة الرحمن عند قوله تعالى: (فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الأَكْمامِ)(الرحمن:١١.) يقول: قال جعفر: جعل الحقّ تعالى في قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أُصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس في كلّ أوان، وهو قوله تعالى: (فِيهافاكِهةٌ والنَّخلُ ذاتِ الأكمام): أي ذات الألوان، كلّ يجتني منه لوناً على قدر سعته، وما كوشف له من بوادي المعرفة و آثار الولاية.(تفسير السلمي: ٣٤٤.) وهاهنا كتب أُخرى أُلّفت على هذا الغرار نظير:
٣. لطائف الإشارات
لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري (٣٧٦ـ ٤٦٥هـ).
٤. تفسير الخواجه
لعبد الله الأنصاري (المتوفّى ٤٨٠هـ).
٥. كشف الأسرار وعدّة الأبرار
لأبي الفضل رشيد الدين الميبدي(كان حياً سنة ٥٢٠هـ)، وهو بسط وتوضيح لمباني تفسير الخواجه عبد الله الأنصاري .
٦. تفسير ابن العربي
هو لأبي بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بابن العربي (٥٦٠ـ ٦٣٨هـ). يقول في تفسير الآية ١٩ ـ٢٠ من سورة الرحمن:(مَرجَ البَحرين يَلتقيان * بَينَهُما بَرزخٌ لا يَبغيان)بأنّ مرج البحرين هو بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأُجاج، وبحر الروح المجرّد هو العذب الفرات، يلتقيان في الموجود الإنساني، وإنّ بين الهيولى الجسمانية والروح المجرّدة، برزخ هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجرّدة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولائية وكثافتها، ولكن مع ذلك لايبغيان، أي لايتجاوز أحدهما حدّه فيغلب على الآخر بخاصّيته، فلا الروح المجرّدة تجرّد البدن وتخرج به وتجعله من جنسه، ولا البدن يجرّد الروح ويجعله مادياً(تفسير ابن العربي: ٢/٢٨٠.).
٧. عرائس البيان في حقائق القرآن
لأبي محمد روزبهان بن أبي نصر البقلي الشيرازي (المتوفّى ٦٦٦هـ).
٨. التأويلات النجمية
لأبي بكر عبد الله الرازي المعروف بـ«داية» (المتوفّى ٦٥٤هـ). إلى غير ذلك من التفاسير.(وقد صدرنا في تحرير هذا الموضوع عن كتاب «التفسير والمفسّرون»، للمحقّق الأُستاذ محمد هادي معرفة الّذي وافاه الأجل في أواخر عام ١٤٢٧ هـ.) وفي الختام نكتفي بما ذكره الذهبي حول هذه التفاسير، وقال: نحن لا ننكر على ابن عربي أن ثمّ أفهاماً يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبائه، ويخصّهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبياناً لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربي القرآني، وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيّدها، أمّا أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني وليس لها من الشرع ما يؤيّدها، فذلك ما لا

يمكن أن نقبله على أنّه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى، لأنّ القرآن عربي قبل كلّ شيء كما قلنا، والله سبحانه و تعالى يقول في شأنه: (كتابٌ فُصّلت آياتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لقوم يَعْلَمُون)(فصلت:٣)، وحاشا لله أن يلغز في آياته أو يعمّي على عباده طريق النظر في كتابه، وهو يقول: (وَلَقَد يَسَّرنا القُرآنَ للذِّكْرِ فَهَل مِنْ مُدّكِر)(القمر:١٧).(التفسير والمفسّرون:٢/٣٧٤)

التفسير الإشاري بين القبول والرفض

هناك منهج اصطلحوا عليه بالتفسير الإشاري وهو نفس التفسير الصوفي، وعرّفوه بأنّ نصوص القرآن محمولة على ظواهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفيّة إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.(شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني:١٤٢)

وبعبارة أُخرى: ما يظهر من الآيات بمقتضى إشارات خفيّة تظهر لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة.

وبعبارة ثالثة: القائل بالتفسير الإشاري لا ينكر كون الظاهر مراداً، ولكن يقول بأنّ في هذه الظواهر، إشارات إلى معان خفيّة تفهمها عدّة من أرباب السلوك وأُولو العقل والنهى، وبذاك يمتاز عن تفسير الباطنية فإنّهم يرفضون كون الظواهر مرادة ويأخذون بالبواطن، هذا هو حاصل التفسير الإشاري.

واستدلّ القائلون بالتفسير الإشاري بوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ القرآن يدعو إلى التدبّر والتفكّر فيه، ومعنى ذلك هو أنّ القرآن يحتوي على معان وحقائق لا تدرك بالنظرة الأُولى، بل لابدّ من التأمّل والتعمّق حتى يقف الإنسان على إشاراته ورموزه، يقول سبحانه: (فَما لِهؤلاءِ القومِ لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً) .(النساء:٧٨)

وقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدبّرونَ القُرآنَ ولَو كانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللّه لوجَدُوا فِيهِ اختلافاًكَثِيراً) .(النساء:٨٢)

وقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلُوب أَقفالُها).(محمد:٢٤)

فهذه الآيات تصف الكافرين بأنّهم (لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً) لا يريد بذلك أنّهم لا يفهمون نفس الكلام، لأنّ القوم كانوا عرباً، والقرآن لم يخرج عن لغتهم، فهم يفهمون ظاهره بلا شك، وإنّما أراد بذلك أنّهم لا يفهمون مراده من الخطاب، فحضّهم على أن يتدبّروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.(التفسير والمفسّرون، نقلاً عن الموافقات:٣/٣٨٢ـ ٣٨٣)

يلاحظ عليه: أوّلاً: أنّ الاستدلال بهذه الآيات على ما يدّعون من الضعف بمكان، فإنّها تدعو إلى التدبّر في نفس المفاهيم المستفادة من ظاهر الآيات وكون القرآن عربياً، وكون القوم عرباً، لا يكفي في فهم القرآن الكريم من دون التدبّر والإمعان، فهل يكفي كون القوم عرباً في فهم مغزى قوله سبحانه:

(هُوَ الأَوّل وَالآخر وَالظّاهر وَالباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيء عَليم)(الحديد:٣)؟

أو في فهم قوله سبحانه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(الأنبياء:٢٢)؟

أو في فهم قوله سبحانه: (وما كانَ مَعَهُ مِنْ إِله إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِله بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضهُم عَلى بَعْض سُبْحانَ اللّه عَمّا يَصِفُون)(المؤمنون:٩١)؟

فالدعوة إلى التدبّر لا تدلّ على أنّ للقرآن وراء ما تفيده ظواهره، بطناً.

وثانياً: أنّه يمكن أن يكون الأمر بالتدبّر هو تطبيق العمل على ما يفهمونه من القرآن، فربّ ناصح يدلي بكلام فيه نصيحة الأهل والولد، ولكنّهم إذا لم يطبقوا عملهم على قول ناصحهم، يعود الناصح إليهم، ويقول: لماذا لا تتدبّرون في كلامي؟ لماذا لا تعقلون؟

مشعراً بذلك أنّكم ما وصلتم إلى ما أدعوكم إليه وإلاّ لتركتم أعمالكم القبيحة وصرتم عاملين بما أدعو إليه.

الوجه الثاني: ما دلّ من الروايات على أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، ظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق.(الكافي:٢/٥٩٨، الحديث٢.)

يلاحظ عليه: أنّ ما روي عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم):«بأنّ للقرآن بطناً وظهراً» أنّه يحتمل وجوهاً على نحو مانعة الخلوّ:

١. المقصود من البطن هو أنّ ما ورد في القرآن حول الأقوام والأُمم من القصص، وما أصابهم من النعم والنقم، لاينحصر على أُولئك الأقوام، بل هؤلاء مظاهر لكلامه سبحانه وهو يعم غيرهم ممّن يأتون في الأجيال اللاحقة، فقوله سبحانه: (وضَربَ اللهُ مَثَلاً قَريةً كانَت آمنَةً مُطمَئِنَّةً يَأتِيها رِزقُها رَغَداً مِن كُلِّ مَكان فَكَفَرت بِأنعُمِ اللهِ فَأذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِما كانُوا يَصنَعُون * وَلَقَد جاءَهُمْ رَسولٌ مِنهم فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذهُمُ العَذابُ وَهُم ظالِمون)(النحل: ١١٢ ـ ١١٣.)وإن كان وارداً في قوم خاصّين، لكنّها قاعدة كلّية مضروبة على الأُمم جمعاء.

٢ . المراد من بطن القرآن هو الاهتداء إلى المصاديق الخفيّة التي يحتاج الوصول إليها إلى التدبّر، أو تنصيص من الإمام، ولأجل ذلك نرى أنّ عليّاً(عليه السلام)يقول في تفسير قوله سبحانه: (وإن نَكَثُوا أيْمانَهُم مِن بَعدِ عَهدِهِم وطَعَنُوا في دِينِكُم فَقاتِلُوا أئمَّةَ الكُفْرِ إنّهُم لا أيْمانَ لَهُم لَعَلّهُم يَنتَهُون)(التوبة: ١٢.): «إنّه ما قوتل أهلها منذ نزلت حتى اليوم».

وفي رواية أُخرى قال علي(عليه السلام): «عذرني الله من طلحة والزبير بايعاني طائعين، غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته» ثم تلا هذه الآية(البرهان في تفسير القرآن: ١/١٠٥.).

٣ . وهناك احتمال ثالث للبطن، وهو حمل الآية على مراتب مفهومها وسعة معناها واختلاف الناس في الاستفادة منها حسب استعداداتهم وقابلياتهم، لاحظ قوله سبحانه: (أنزَلَ مِن السّماءِ ماءً فَسالت أودِيةٌ بِقَدَرِها فاحتَمل السَّيلُ زَبَداً رابِياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ في النّارِ ابتغاءَ حِليةٍ أو مَتاعٍ زَبَدٌ مِثلُهُ كَذلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ والباطِلَ فأمّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنفَعُ النّاسَ فَيمكُثُ في الأرضِ كَذلِكَ يَضرِبُ اللهُ الأمثالَ).(الرعد:١٧.)

إنّ للآية مراتب ودرجات من التفسير كلّ يستفيد منها حسب قابليته، والكلّ يستمد من الظاهر، ونظيرها آية النور.(لاحظ: النور:٣٥.)

فقد خاض المفسرون في تفسير الآية وتطبيقها على موارد مختلفة وكلّ استفاد من نورها حسب مؤهّلاته وكفاءاته.

وحاصل القول في التفسير الإشاري: إنّ ما يفهمه المفسّر من المعاني الدقيقة إن كانت لها صلة بالظاهر، فهو مقبول، سواء سمّي تفسيراً على حسب الظاهر أو تفسيراً إشارياً؛ وعلى كلّ تقدير فالمفسّر على حجّة من ربّه في حمل الآية على ما أدرك، وأمّا إذا كان مقطوع الصلة عن الظاهر، المتبادر إلى الأذهان، فلايصحّ له حمل القرآن عليه إلاّ إذا حصل له القطع بأنّه المراد، وعندئذ يكون القطع حجّة له لا لغيره وإن كان مخالفاً للواقع، ولإيضاح الحال نأتي بأمثلة:

يخاطب الله سبحانه أُمّ المسيح بقوله: (وهُزّي إلَيكِ بِجِذعِ النَّخلَةِ تُساقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنيّاً).(مريم: ٢٥.)

فلو قال أحد: إنّه سبحانه هيّأ مقدّمات الولادة ومؤخّراتها لأُمّ المسيح، حتى الرطب في غير فصله من الشجرة اليابسة، ومع ذلك أمرها أن تهزّ بجذع النخلة مع أنّ في وسع المولى سبحانه أن يرزقها الرطب بلا حاجة إلى أمرها بالهز، هذا لتفهيمها أنّها مسؤولة في حياتها عن معاشها، وأنّه سبحانه لو هيّأ كلّ المقدّمات فلا تغني عن سعيها وحركتها ولو بهز جذع النخلة.

هذا ما ربّما يعلق بذهن بعض المفسّرين، ولابأس به، لأنّ له صلة بالظاهر.

روي أنّه بعدما نزل قوله سبحانه: (اليومَ أكمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأتمَمتُ عَليكُمْ نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً)(المائدة:٣.)،

فرِحَ الصحابة وبكى بعضهم فقال: الآية تنعى إلينا رحلة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)(لاحظ: روح المعاني للآلوسي: ٦/٦٠).
وكأنّه فهم الملازمة بين إكمال الدين ورحلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).
نعم هناك تفاسير باسم التفسير الإشاري لايصحّ إسنادها إلى الله سبحانه، كتفسير «الم» بأنّ الألف إشارة إلى الله، واللام إلى جبرئيل، والميم إلى محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّه أشبه بالتفسير بالرأي إلاّ إذا كان هناك نصّ من المعصوم.(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٨/٧.)

ولو صحّ هذا التفسير، فيمكن تفسيره بوجوه كثيرة بأنّ يقال الألف إشارة إلى ألف الوحدانية، واللام إلى لام اللطف، والميم إشارة إلى الملك، فمعنى الكلمة: من وحّدني تلطفت له فجزيته بالملك الأعلى.
وأسوأ من ذلك تفسير قوله سبحانه: (والجارِ ذِي القُربَى والجارِ الجُنُبِ وَالصّاحِبِ بالجَنْبِ وابنِ السّبِيلِ)(النساء: ٣٦ .) بأن يقال: (وَالجارِ ذِي القُربى) هو القلب، (وَالجارِ الجُنُبِ)، هو الطبيعة، (وَالصاحِبِ بِالجَنْبِ)هو العقل المقتدي بالشريعة، (وَابنِ السَّبِيل)هو الجوارح المطيعة لله.
فمثل هذا النوع من التفسير يلتحق بتفاسير الباطنية التي مضى البحث فيها.

ختامه مسك حول كتاب «التفسير والمفسّرون»

ألّف الدكتور محمد حسين الذهبي(المتوفّى١٣٩٧هـ)، الأُستاذ في علوم القرآن والحديث كتاباً أسماه بـ«التفسير والمفسّرون» كتب فيه بحثاً تفصيليّاً عن نشأة التفسير وتطوّره وألوانه ومذاهبه مع عرض شامل لأشهر المفسّرين، وتحليل كامل لأهم كتب التفسير من عصر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى عصرنا الحاضر. وخصص قرابة ٢٣٤ صفحة من الجزء الثاني لبيان عقائد الشيعة وكتبهم التفسيرية، والكتاب جدير بالمطالعة فإنّ المؤلّف أتعب نفسه في الأهداف التي مرّ ذكرها، وقرأ كثيراً من التفاسير حتى خرج بتحليل كلّ تفسير.
غير أنّ المؤلّف لم يكن معصوماً وله زلاّت كثيرة، وإليك ذكر بعضها:

الأُولى: جعل الإمام علي(عليه السلام) ثالث المفسّرين من الصحابة

عقد الذهبي فصلاً خاصّاً أسماه بـ «المفسّرون من الصحابة» وأشهرهم، فعدّ عبد الله بن عباس في المرتبة الأُولى، ثمّ عبد الله بن مسعود في المرتبة الثانية، وعلي بن أبي طالب في الثالثة. مع أنّ الدلائل الواضحة تشهد على أنّ ابن عباس تلميذ الإمام(عليه السلام) وقد أخذ منه شيئاً كثيراً، والإمام مؤدّبه وهو حصيلة عمره، أفيصحّ أن يُعدّ باب مدينة العلم في الدرجة الثالثة. ونحن لا نطيل الكلام فيه، وضمير الحرّ الواقف على مكانة الإمام من العلم والذكاء خير شاهد على خلاف ما ارتكبه الذهبي.

الثانية: اعتماده في بيان عقيدة الشيعة على خصومهم

إنّ الدكتور الذهبي (سامحه الله) عقد فصلاً أسماه بـ«موقف الإمامية الإثنى عشرية من تفسير القرآن الكريم» وأعتمد في بيان بعض عقائد الشيعة على كتب خصومهم، كضحى الإسلام لأحمد أمين المصري، وكتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة لموسى جار الله.(لاحظ: التفسير والمفسّرون:٢/٢٣ و٢٥.)
ولأجل هذا نسب إلى الشيعة الإمامية أُموراً لا أصل لها إلاّ في عقول خصمائهم أو في بعض الكتب غير المعتبرة عند الشيعة، وإليك نصّ ما كتبه: وأعلم أنّ الزيدية والإمامية منهم، يكفّر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يعدّون في الإمامية، واعلم أنّ جميع من ذكرنا هم من فرق الإمامية متّفقون على تكفير الصحابة، ويدّعون أنّ القرآن قد غُيّر عمّا كان عليه، ووقعت فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنّه قد كان فيه النصّ على إمامة عليٍّ فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنّه لا

اعتماد على القرآن الآن ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم)، ويزعمون أنّه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين، وينتظرون إماماً يُسمّونه «المهدي» يخرج ويُعلّمهم الشريعة، وليسوا على شيء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسّعوا في استحلال المحرّمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدّونه من تحريف الشريعة وتغيّر القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين».(التبصير في الدين:٢٤، ٢٥، وقال الذهبي في هذا الهامش: وقد تقدّم أنّ هذا التطرّف قد شذّ عنه نفر قليل من الإمامية!! لاحظ: التفسير والمفسّرون:٢/١٠ـ ١١.)

أقول: أُقسم بالله ـ وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم ـ أنّ جميع ما نسب إلى الشيعة الإمامية باطل لا يمتّ لعقائدهم بصلة، والمؤلّف مكان أن ينقل عقائد الإمامية من كتبهم استند إلى كتاب «التبصير في الدين» للإسفرائيني، وهو من أئمة الأشاعرة، وبما أنّ الدكتور قد انتقل إلى رحمة الله فلا أقول في حقّه شيئاً إلاّ أنّه قد قصّر في بيان عقائد أُمّة كبيرة من المسلمين.

الثالثة: مفسّرو الشيعة يُخضِعون الآيات لعقائدهم

ممّا نقد به كافّة تفاسير الشيعة التي قرأها أنّهم يُخضعون الآيات والنصوص القرآنية لعقائدهم وآرائهم، وهو عند ما يتكلّم عن «مجمع البيان» يؤاخذه بهذا، فيقول:

إنّ مفسّري الشيعة، يحاولون إخضاع النصوص القرآنية لآرائهم ومذاهبهم.(لاحظ: التفسير والمفسرون:٢/٢٧.)

أقول: لو صحّ هذا ـ ولن يصحّ لأنّهم يستنطقون القرآن ويتبعون ما نطق به الذكر الحكيم دون أن يخضعوا النصوص لآرائهم ـ لعمّ البلاء، فإنّ كلّ مفسّر يفسّر القرآن ويخرج بدلالة القرآن على ما يتبنّاه.

إنّ المؤلف مع أنّه أظهر بعض الإنصاف حول تفسير «مجمع البيان» للشيخ الطبرسي، قال: والحق أنّ تفسير الطبرسي ـ بصرف النظر عمّا فيه من نزعات تشيّعية وآراء اعتزالية ـ كتاب عظيم في بابه، يدلّ على تبحّر صاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة. والكتاب يجري على الطريقة التي أوضحها لنا صاحبه، في تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد في كلّ ناحية من النواحي التي يتكلّم عنها، فإذا تكلّم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلّم عن المعاني اللغوية للمفردات أجاد....

ومع كلّ هذا المديح من المؤلّف، فقد قال: وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيّعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتّفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالف فيها هو ومَن على شاكلته.(التفسير والمفسرون:٢/١٠٥.)

أقول: إنّ هذه المؤاخذة ـ لو صحّت ـ لتوجّهت إلى عامّة المفسّرين من أهل نحلته، فإنّ صاحب الكشّاف، وصاحب التفسير الكبير (الرازي) حملا كتاب الله على ما يتّفق وعقيدتهما في العقائد والمعارف، فأين موقف الرازي من موقف الزمخشري في الأُصول والمعارف؟!

فالزمخشري معتزلي والرازي أشعري.

كما أنّ القرطبي لأجل تسنّنه قد نزّل آيات الأحكام مع ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالف فيها هو من على شاكلته... وكأنّ الذهبي يتصوّر أنّ عامّة المفسّرين يجب أن يفسّروا القرآن حسب ما يراه هو ومَن على شاكلته، ومَن تخلّف عن ذلك، فقد حاد عن طريق الحق.

هذا ما سمح به الوقت، غير أنّ الكتاب بما فيه من تحليلات غير صحيحة، يحتاج إلى نظارة التنقيب والتمحيص، ولعلّ اللهُ يوفّق مَن يقوم بهذا العمل في المستقبل القريب، والله من وراء القصد.

المبحث السادس والعشرون منهج أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير القرآن المجيد

تواتر عن النبي الأكرم قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» والثقل ـ بفتحتين: ـ كلّ شيء نفيس، والحديث يحكي عن استمرار الاتّفاق بينهما إلى يوم القيامة ولزوم الرجوع إليهما إلى ذلك اليوم.

و لايشكُّ في صحّة الحديث وتواتره من له إلمام به وبعلومه.

وقد حدّد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث الكساء ما هو المراد من قوله:«وعترتي»، فقد قام(صلى الله عليه وآله وسلم)بتعريف أهل البيت بطرق ثلاثة نشير إليها:

١. صرّح بأسماء مَن نزلت آية التطهير في حقّهم حتى يتعيّن المنزول فيه باسمه ورسمه.

٢. قد أدخل جميع مَن نزلت الآية في حقّهم تحت الكساء، ومنع من دخول غيرهم، وأشار بيده إلى السماء وقال:«اللّهمّ إنّ لكلّ نبي أهل بيت، وهؤلاء أهل بيتي».

٣. كان يمرّ ببيت فاطمة(عليها السلام) عدّة شهور، كلّما خرج إلى الصلاة فيقول:الصلاة أهل البيت(إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)(الأحزاب:٣٣).

وقد ذكرنا لكلّ قسم نماذج من الروايات التي رواها الجمهور في صحاحهم ومسانيدهم، فمَن أراد فليرجع إلى موسوعتنا «مفاهيم القرآن».(لاحظ: مفاهيم القرآن:١٠/١٤٢ـ ١٥٣)

ثمّ إنّ أئمة أهل البيت(عليهم السلام) من المصطفين الذين أُشير إليهم في قوله سبحانه: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)(فاطر:٣٢).

فقد ورث الكتاب قوم وصفهم الله تعالى بقوله: (اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)وأُريد صنف من الأُمّة الإسلامية الذين لهم صلاحية الحكم بالقرآن وتبيين مجمله وتفسير معضلاته وعلى رأسهم أئمة أهل البيت(عليهم السلام) الذين قُرنوا مع الكتاب المجيد في حديث التمسّك بالثقلين حيث قال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا إذاً أبداً».

إذا تبيّن ذلك فلنذكر منهج الأئمّة الطاهرين في تفسير آيات الذكر الحكيم.

التتبّع في الروايات الواردة عنهم(عليهم السلام) حول تفسير الآيات يثبت أنّ لهم أساليب مختلفة في تفسير القرآن لكلّ أُسلوب محلّه وموضعه:

الأوّل:استنطاق نفس الآية

إنّ من أساليب تفسيرهم(عليهم السلام) استنطاق نفس الآية لرفع الإبهام أو الإستدلال على المطلوب ونأتي هنا بنماذج:

١. الاستغفار سبب نزول الرزق

قال تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا).(نوح:١٠ـ ١٢)

وقد احتجّ الإمام علي(عليه السلام) بذلك حيث قال في بعض خطبه:«وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحانَهُ الاْسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحانَهُ : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّات وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!».(نهج البلاغة: الخطبة ١٤٣)

٢. المسح ببعض الرأس لوجود (الباء)
روى الكليني عن علي بن إبراهيم... عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر(عليه السلام): ألا تخبرني من أين علمت وقلت إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك، ثم قال:«يا زرارة، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ونزل به الكتاب من الله لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يُغسل، ثم قال: (وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ)، ثم وصل بين الكلام فقال: (وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ) فعرفنا حين قال: (بِرُؤُوسِكُمْ)أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء».(الكافي:٣/٥٠، كتاب الطهارة، برقم ٤.)   لا شكّ أنّ فعل: مسح، كغسل، متعدّ بنفسه، يقال: مسحه مسحاً، غير أنّه إذا قيل: فامسحوا رؤوسكم يتبادر منه مسح تمام الرأس، بخلاف ما إذا قيل: مسح بعنق الفرس أو بساقه أو بالركن أو بالحجر، فلا يتبادر منه إلاّ أنّه أمرّ يده على إحدى هذه الأشياء، من غير فرق بين إمراره على الكلّ أو على البعض.   وعلى ما ذكرنا فلا فرق بين القول بأنّ «الباء» للتبعيض وإنّه من معانيها، أو أنّها للإلصاق، غير أنّ المتبادر من المدخول المحلّى بالباء هو التبعيض. فإنكار بعض أهل اللغة وضع الباء للتبعيض لا يضر، غير أنّ الحجّة هو المتبادر.   وبذلك يُعلم حكم التيمّم في مسح الوجوه والأيدي، قال سبحانه:(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)(المائدة:٦.) فلو قيل: امسحوا وجوهكم وأيديكم، فهنا يفيد الاستيعاب.
٣. تعلّق الخمس بكلّ فائدة
قال سبحانه:(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ)(الأنفال:٤١.).   اختلفت كلمة الفقهاء، فأكثر فقهاء السنّة على اختصاص الآية بالغنائم الحربية، إلاّ أنّ المعروف من مذهب أهل البيت(عليهم السلام) تعلّقه بالغنائم والفوائد كلّها حربية كانت أو غيرها، فعن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم(عليه السلام) في جواب سؤال سماعة عن الخمس، فقال:«في كلّ ما أفاد الناس من قليل وكثير»(الوسائل:٦، الباب٨ من أبواب ما يجب فيه الخمس، الحديث٦.)، أخذاً بظهور اللفظ في مطلق الفوز بالشيء، قال الأزهري: قال الليث: الغنم: الفوز بالشيء، والاغتنام انتهاز الغنم.(تهذيب اللغة: مادة «غنم».) حتى أنّ الذكر الحكيم استعمل تلك المادّة في مطلق الغنائم. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)(النساء:٩٤.)، وبذلك تُعلم قيمة تفسير الإمام واستنطاقه الآية. قال الإمام أبو جعفر الجواد(عليه السلام): «فأمّا الغنائم والفوائد، فهي واجبة عليهم في كلّ عام. قال الله تعالى:(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ) والغنائم والفوائد ـ يرحمك الله ـ فهي الغنيمة يغنمها المرء، والفائدة يفيدها، والجائزة من الإنسان للإنسان التي لها خطر، والميراث الذي لا يُحتسب».(الوسائل:٦، الباب٨ من أبواب ما يجب فيه الخمس، الحديث٥.)
٤. بطلان الطلاق في الحيض
اتّفقت كلمة فقهاء الإمامية على بطلان الطلاق في الحيض، ويشترط أن يكون الطلاق في طهر من الحيض، غير أنّ الكثير من فقهاء أهل السنّة يعتبرون هذا الطلاق صحيحاً، ولكن الإمام الباقر(عليه السلام)باستنطاقه للآية يثبت عدم صحّة مثل هذا الطلاق.   قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ)(الطلاق:١.)   روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: عن أبي الجارود، عن أبي جعفر(عليه السلام) في قوله:(فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) : والعدّة الطهر

من الحيض، (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ).(الوسائل:١٥، الباب٩ من أبواب مقدّمات الطلاق وشرائطه، الحديث٧.)

توضيح كلامه: أنّ اللام في قوله: (لِعِدَّتِهِنَّ) إمّا للغاية أو بمعنى «في»، فعلى الأوّل، يكون معنى قوله:(فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ): أي لغاية أن يعتددن، على نحو يترتّب الاعتداد على الطلاق بلا فصل ولا تريّث، والمفروض أنّ الحيض فاصل بين الطلاق والاعتداد، هذا إذا كانت اللام بمعنى الغاية.

ولو قلنا إنّ اللام بمعنى «في» ـ كما هي خيرة القرطبي ـ فيكون معنى (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ): أي في الزمان الذي يصلح لعدّتهن، وقد حصل الإجماع على أنّ الطلاق في الحيض ممنوع وفي الطهر مأذون فيه.(تفسير القرطبي:١٨/١٥٣.)

ثمّ إنّ القروء في قوله سبحانه: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ)(البقرة:٢٢٨.) سواء فسّرت بالأطهار كما عليه الإمامية، أو بالحيضات، فقد اتّفق فقهاء السنّة على أنّ الحيضة التي طلّقت فيها المرأة، لا تعدّ من الحيضات الثلاث التي بها تخرج المرأة عن العدّة، فالطلاق فيها صحيح لكن تتربّص حتى تطهر، ثم تحيض وعندئذ تبتدئ بالاعتداد.

وعلى هذا فلو صحّ الطلاق في أيام الحيض، لزم وجود الفاصل الزماني بين إنشائه وأيام الاعتداد وهو خلاف ظاهر الآية على كلا الوجهين.

قال الرازي: اللام ـ هنا ـ بمنزلة «في» نظير قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ)(الحشر:٢.). وفي هذه الآية بهذا المعنى؛ لأنّ المعنى: فطلّقوهن في عدّتهن، أي في الزمان الذي يصلح لعدّتهن.(تفسير الرازي:٣٠/٣٠.)

وقال الزمخشري: «فطلّقوهن» مستقبلات «لعدتهن» كقولك: أتيته لليلة بقيت من الشهر، أي مستقبلاً لها.(تفسير الكشّاف:٤/١٩٩.)

وهناك آيات أُخرى قد فسّرت باستنطاق الآية بنفسها، وما ذكرنا هنا نماذج من هذا الأُسلوب.

الأُسلوب الثاني: تفسير الآية بآية أُخرى

ومن نماذج هذا الأُسلوب:

إنّ القرآن الكريم يصف نفسه بقوله:(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الزمر:٢٣.)فقوله: (مَثَانِيَ) بمعنى تكرّر مضامينه حسب اقتضاء المقام، ولذلك يتمكّن المفسّر من رفع إبهام الآية بأُختها إذا وردتا في موضع واحد، وهذا ما يقال له: تفسير القرآن بالقرآن.

يقول الإمام علي(عليه السلام): «كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْض، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْض، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.) ونأتي بنماذج من ذلك:

١. تفسير شاهد ومشهود

تضاربت الأقوال في معنى الشاهد والمشهود، غير أنّ الحسن بن علي(عليهما السلام) فسّره بآية أُخرى.

روي أنّ رجلاً دخل مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا رجل يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: فسألته عن الشاهد والمشهود، فقال: نعم، الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة؛ فجزته إلى آخر يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فسألته عن ذلك؟ فقال: أمّا الشاهد فيوم الجمعة، وأمّا المشهود فيوم النحر؛ فجزتهما إلى غلام كأنّ وجهه الدينار، وهو يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود؟ فقال: «نعم؛ أمّا الشاهد فمحمد، وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعت الله سبحانه يقول:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)(الأحزاب:٤٥.)، وقال: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)».(هود:١٠٣.) فسألت عن الأوّل، فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر،

وسألت عن الثالث: فقالوا: الحسن بن علي(عليهما السلام).(مجمع البيان:١٠/٣٥٥.)

٢. استنباط حكم قصر الصلاة من حكم الطواف

روى الصدوق بسنده عن زرارة ومحمد بن مسلم أنّهما قالا: قلنا لأبي جعفر(عليه السلام):ما تقول في الصلاة في السفر، كيف هي وكم هي؟ فقال:«إنّ الله عزّ وجلّ يقول: (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ)(النساء:١٠١.) فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر» قالا: قلنا: إنّما قال الله عزّ وجلّ:(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال(عليه السلام): «أو ليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة:(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا)ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وذكره الله تعالى ذِكرُه في كتابه...».(الوسائل:٥، الباب٢٢ من أبواب صلاة المسافر، الحديث٢.)

ثمّ إنّ التعبير (فَلاَ جُنَاحَ) في الموردين لنكتة خاصّة، فعن أبي عبد الله(عليه السلام):«أنّه كان ذلك في عمرة القضاء، وذلك أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) شرط عليهم(قريش) أن يرفعوا الأصنام، فتشاغل رجل من أصحابه حتى أُعيدت الأصنام، فجاءوا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقيل له: إنّ فلاناً لم يطف وقد أُعيدت الأصنام، فنزلت هذه الآية:(فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا).(مجمع البيان:١/٤٧٨، تفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة.)، أي والأصنام عليهما.

وأمّا الثاني ـ أي التقصير في الصلاة ـ فلعلّ التعبير بـ(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) لردّ ما ربّما يتوهّم من أنّ الاقتصار على ركعتين نوع استخفاف بالصلاة، وهو لا يخلو عن شيء من الإثم، فنزلت الآية بهذا التعبير ردّاً على هذا الوهم، والله العالم.

٣. تفسير الاجتناب عن الخمر بآية أُخرى

لم يرد لفظ التحريم حول شرب الخمر، وإنّما ورد فيه لفظ الاجتناب، قال سبحانه: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(المائدة:٩٠.) والآية كافية لمَن أراد فهم حكم الخمر حيث قرنها بالميسر والأزلام، مضافاً إلى قوله: (فَاجْتَنِبُوهُ)، غير أنّ بعض مَن لا يرتدع عن هذه الجريمة ربّما يحتج بعدم ورود التحريم في مورد الخمر، وقد سأل المهدي العباسي الإمام موسى بن جعفر(عليهما السلام) عن ذلك، قال: هل هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ، فإنّ الناس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟

فقال له الإمام(عليه السلام): «بل هي محرّمة في كتاب الله، يا أميرالمؤمنين».

قال: في أي موضع هي محرّمة في كتاب الله، يا أبا الحسن؟

فقال:«في قول الله عزّ وجلّ:(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)(الأعراف:٣٣.). قال (عليه السلام):«أمّا (مَا ظَهَرَ) فهو الزنا المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية، وأمّا (وَمَا بَطَنَ) فيعني ما نُكح من الآباء، لأنّ الناس قبل البعثة إذا كان للرجل زوجة ومات عنها، تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أُمّه.

قال: «وأمّا (وَالإِثْمَ) فإنّها الخمرة بعينها. وقد قال تعالى في موضع آخر: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة:٢١٩.)».(الكافي:٦/٤٠٦.)

وعلى ما ذكرنا فالإثم وضع للمعنى الجامع والذي من مصاديقه الخمر أي شربها، وربّما يظهر ممّا أنشده بعض الأدباء أنّ «الإثم» اسم للخمر، وقد كان ذلك شائعاً في عصر الرسالة، فقد أنشد الأخفش:

شربت الإثم حتّى ضل عقلي *** كذاك الإثم يذهب بالعقول

وقال آخر:

نهانا رسول الله أن نقرب الخنا *** وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا(*)

(*)مجمع البيان:٤/٢٧٢.

وقال ثالث:

نَشرب الإثم بالصُّواع جِهاراً *** وتَرى المِسْكَ بيننا مُسْتعاراً(*)

(*). لسان العرب:١٢/٧، مادة «أثم».

٤. الواجب قطع الأصابع من أُصولها

قال سبحانه: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ).(المائدة:٣٨.)

لا شكّ أنّ اليد تطلق ويراد بها تارة الأصابع، وأُخرى كلّ الكف، وثالثة إلى المرفق، ورابعة إلى المنكب، فكأنّه مشترك معنوي يستعمل في هذه الموارد حسب القرائن، إنّما الكلام في حدّ السارق وقطع يده، فمن أين يقطع.

قال الشيخ: موضع القطع في اليد من أُصول الأصابع دون الكف، ويترك له الإبهام، ومن الرِجْلِ عند معقد الشراك من عند الناتئ على ظهر القدم، يترك له ما يمشي عليه، وهو المروي عن عليّ(عليه السلام) وجماعة من السلف.(الخلاف:٥/٤٣٧، المسألة ٣١، حدّ السرقة.)

روى العياشي في تفسيره باسناده إلى زرقان صاحب ابن أبي داود قاضي القضاة قال: أُتي بسارق إلى محضر المعتصم، وقد أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه. فجمع الخليفة لذلك الفقهاء، وقد أُحضر محمّد بن علي الجواد(عليه السلام)، فسألهم عن موضع القطع؟

فقال ابن أبي داود: من الكرسوع (طرف الزند) واستدلّ بآية التيمّم، ووافقه قوم، وقال آخرون: من المرفَق، نظراً إلى آية الوضوء.

فالتفت الخليفة إلى الإمام الجواد مستفهماً رأيه في ذلك، فاستعفاه الإمام، لكنّه أصرّ على معرفة رأيه، وأقسم عليه بالله أن يُخبره برأيه.

فقال الإمام (عليه السلام):«أمّا إذا أقسمت عليّ بالله، إنّي أقول: إنّهم أخطأوا فيه السنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع، فيُترك الكف».

قال الخليفة: وما الحجّة في ذلك؟

قال الإمام (عليه السلام): قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «السجود على سبعة أعضاء، الوجه واليدين والركبتين والرجلين» فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق، لم يبق له يدٌ يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ) يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها (فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا)(الرعد:١٨.) وما كان لله لم يقطع».(تفسير العياشي:٢/٤٧، برقم ١٢٦٩/١١٠.)

وهناك نماذج أُخرى من تفسير الأئمّة(عليهم السلام) للآيات القرآنية بمثلها من كتاب الله.

الأُسلوب الثالث: تفسير الآية بشكل بديع خاف عن أذهان العامّة

ربّما يستدلّ أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) بآية ويفسّروها بشكل خاف عن أذهان المفسّرين، مهما كانوا في القمّة من العلم، ونأتي هنا بمثالين:

١. الذمّي الّذي نقض حكم الذمّة

قُدّم إلى المتوكّل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فأسلم، فقال يحي بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: «يضرب ثلاثة حدود»، فكتب المتوكّل إلى الإمام الهادي(عليه السلام)يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتّى يموت»،

فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلّة؟ فكتب: «بسم الله الرّحمن الرّحيم:(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)(غافر:٨٤ـ٨٥.) فأمر به المتوكّل فضرب حتّى مات.(مناقب آل أبي طالب:٤/٤٠٣ـ٤٠٥.)

نجد أنّ الإمام الهادي(عليه السلام) استنبط حكم الموضوع من آية مباركة لا يذكرها الفقهاء في عداد آيات الأحكام، لعدم صراحتها في الموضوع، غير أنّ الإمام لوقوفه على سعة دلالة القرآن، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظير.

ولو أنّ القارئ الكريم جمع الروايات الّتي استشهد بها أئمّة أهل البيت على مقاصدهم استشهاداً تعليمياً لا تعبّدياً، لوقف على سعة آفاق القرآن.

٢.تحديد أقل الحمل بالجمع بين آيتين

ومن نماذج هذا الأُسلوب تحديد أقل الحمل بالجمع بين آيتين.

روى البيهقي عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي أنّ عمر أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر فهمّ برجمها، فبلغ ذلك علياً(رضي الله عنه) فقال: «ليس عليها رجم»، فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه فسأله فقال: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) وقال: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا)فستة أشهر حمله، حولين تمام(الرضاعة)، لا حدّ عليها، أو قال: لا رجم عليها، قال: فخلّى عنها ثم ولدت.(سنن البيهقي:٧/٤٤٢؛ الدر المنثور:١/٦٨٨.)

٣.الاستدلال على أنّ الحسنين ابني رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بحرمة التزويج

لم يكن أي شكّ في أيام الرسالة، أنّ الحسنين من أبناء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) أتى بهما للمباهلة امتثالاً لقوله سبحانه:(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ)(آل عمران:٦١.).

غير أنّ الأمويين وأذنابهم من العباسيّين حاولوا التشكيك في هذه الفضيلة التي لا يشكّ فيها من نظر إلى الموضوع بنظر مجرّد عن أي تحيّز، ولذلك احتجّ الإمام الباقر(عليه السلام) على المشكّكين بوجه آخر، غير آية المباهلة وغير الآية التي جاء فيها المسيح معدوداً من آل إبراهيم(عليه السلام) قال سبحانه: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى)(الأنعام:٨٤ـ ٨٥.) فجعل عيسى ابن مريم من ذرية نوح(عليه السلام).

ولمّا كان المتعصّبون والمعاندون يشكّكون في دلالة هاتين الآيتين على كون الحسنين من أبناء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) تشكيكاً ضلالاً، فقال أبو جعفر(عليه السلام): «يا أبا الجارود لأعطينكها من كتاب الله جلّ وتعالى: أنّهما من صلب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يردّها إلاّ الكافر».

قلت: وأين ذلك جعلت فداك؟

قال: «من حيث قال الله تعالى:(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ)(النساء:٢٣.)، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان يحل لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا فهما ابناه لصلبه».(الكافي:٨/٣١٧ـ٣١٨، برقم ٥٠١.)

الأُسلوب الرابع: التفسير بالإشارة إلى أبرز المصاديق

أكثر ما ورد عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) حول تفسير الآيات هو الإشارة إلى أبرز المصاديق وأكملها وأولاها، وربّما يتصوّر

مَن ليس له إلمام بأساليبهم في التفسير أنّ الإمام بصدد تخصيص الآية بالمورد ونزولها فيه، غافلاً عن أنّ الإمام(عليه السلام) يعتقد بعموم الآية وإطلاقها وفي الوقت نفسه يشير إلى أبرز المصاديق، وإليك نماذج من ذلك:
١. النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة القائمون مقامه هم الصراط المستقيم
يقول الطبرسي: ورد في الروايات في تفسير قوله سبحانه:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)(الفاتحة:٦.) المراد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة القائمون مقامه، وهو المروي في أخبارنا.(مجمع البيان:١/٤٨.) ومن المعلوم أنّ صراط هؤلاء لا يختلف عن صراط سائر الأنبياء والأولياء لكنّ صراط هؤلاء من أبرز المصاديق وأكملها، ولذلك نرى أنّ الطبرسي بعدما نقل هذا القول قال: والأولى حمل الآية على العموم حتى يدخل جميع ذلك فيه، لأنّ الصراط المستقيم هو الدين الذي أمر الله تعالى به من التوحيد والعدل وولاية مَن أوجب الله طاعته.(نفس المصدر.)
٢. المنذر هو الرسول وعليّ الهادي
قال سبحانه: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)(الرعد:٧.)، ولا شكّ أنّ هذه الآية على عمومها أو إطلاقها لا تختصّ برسول ولا بإمام معيّنين وإنّما هي ضابطة كليّة تصدق على المنذرين والهادين فيما سبق من الأُمم ومَن سيأتي، ومع ذلك نرى أنّ الإمام الصادق(عليه السلام) يقول:«رسول الله المنذر وعليّ الهادي»(الكافي:١/٢٨٤، كتاب الحجة، باب إنّ الأئمّة(عليهم السلام) هم الهداة، الحديث ٣ و٤.) وهذا من باب تفسير الآية بأبرز المصاديق وأكملها.
٣. الأئمّة هم أهل الذكر
الفطرة الإنسانية تجر الإنسان إلى سؤال أهل العلم والذكر، عمّا لا يعلم، وسؤال الجاهل العالمَ قضية فطرية لعامّة البشر عبر القرون، وإلى هذا الأمر الفطري يشير سبحانه في قوله: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(النحل:٤٣.). فأهل الذكر مفهوم عام لكلّ مورد له مصداقه، فالسؤال عن علائم النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم)يتوجّه إلى علماء اليهود، ولذلك أمر الله سبحانه المشركين وغيرهم بسؤال الأحبار والرهبان، فقال:(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)ومع ذلك نرى أنّ الإمام الرضا (عليه السلام) يشير إلى أبرز المصاديق. روى الكليني عن الوشاء قال: سألت الرضا(عليه السلام) فقلت له: جعلت فداك: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(النحل:٤٣.) فقال: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون» فقلت: فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: «نعم»، قلت: حقّاً علينا أن نسألكم؟ قال: نعم، قلت: حقّاً عليكم أن تجيبونا؟ قال: «لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل، أما تسمع قول الله تبارك وتعالى:(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب)(ص:٣٩.)».(الكافي:١/٢١١، كتاب الحجة.)
٤. الإشارة إلى مصداق مَن يعلمون ومَن لا يعلمون
من القضايا الفطرية التي لا يشكُّ فيها أي إنسان عاقل عدم التسوية بين العالم والجاهل، يقول سبحانه:(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ)(الزمر:٩.)، والآية على عمومها وإطلاقها تدلّ على عدم التسوية بين الطائفتين غير أنّ الإمام يشير إلى أبرز المصاديق. روى الكليني عن جابر عن أبي جعفر(عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ:(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ)؟ قال: «نحن الذين يعلمون، وعدوّنا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أُولو الألباب».(الكافي:١/٢١٢، كتاب الحجّة.)
٥. تفسير (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)
قال سبحانه في مورد الآيات المتشابهة: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ

تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ)(آل عمران:٧).

قال الراغب: رسوخ الشيء: ثباته ثباتاً متمكّناً، والراسخ في العلم المتحقّق به الذي لا تعرضه شبهة.(المفردات:١/٣٩٩، مادة «رسخ»، دار القلم، دمشق.)

وعلى ذلك فيشمل كلّ مَن له هذا الوصف، ولذلك نرى أنّه سبحانه يصف بعض علماء اليهود بالراسخين في العلم ويقول: (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)(النساء:١٦٢).

ومع ذلك، فإنّ الإمام الصادق(عليه السلام) يصف أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)بقوله:«نحن (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)ونحن نعلم تأويله».(الكافي:١/٢١٣، كتاب الحجّة، الحديث١.)

كما روى بريد بن معاوية عن أحدهما(عليهما السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)(آل عمران:٧) فرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه».(الكافي:١/٢١٣، كتاب الحجّة، الحديث٢.)

٦. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم المصطفون

قال الله سبحانه: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ).(فاطر:٣٢.)

وقد تقدّم أنّ المصطفين صنف من الأُمّة الذين لهم صلاحية الحكم بالقرآن وتبيين مجمله وتفسير معضلاته، وهو لا يختصّ بالرسول والأئمّة، بل العلماء المفهمون يقومون بتأويل المشتبهات بارجاعها إلى المحكمات. ومع ذلك يشير الإمام إلى أبرز المصاديق.

روى سالم قال: سألت أبا جعفر(عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ)؟ قال: «السابق بالخيرات: الإمام، والمقتصد: العارف للإمام، والظالم لنفسه: الذي لا يعرف الإمام».(الكافي:١/٢١٤، كتاب الحجة، الحديث١.)

٧. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم نعم الله تعالى

إنّ لله سبحانه نعماً كثيرة دنيوية وأُخروية، معنوية ومادّية، فالمؤمن يشكر الله سبحانه على عامّة نعمه، ولا يكفر بها وليس الشكر إلاّ صرف النعمة في محلّها، ولا شكّ أنّ الأنبياء والرسل والأئمّة المنصوبين من جانب الله من أفضل النعم، فمَن عدل عنهم إلى غيرهم، قد كفر بنعم الله تعالى، وعلى هذا السياق روى الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «ما بال أقوام غيّروا سنّة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وعدلوا عن وصيّه؟ لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب» ثم تلا هذه الآية:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ)(إبراهيم:٢٨ـ ٢٩) ثم قال: «نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز مَن فاز يوم القيامة».(الكافي:١/٢١٧، كتاب الحجّة، الحديث١.)

٨. تفسير صدور الذين أُوتوا العلم

قال سبحانه في وصف القرآن المجيد:(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ).(العنكبوت:٤٩.)

لا شكّ أنّ الذكر الحكيم نزل لهداية عامّة الناس، فبهداه يهتدي من استعدّ للهداية، فعلى هذا ففي القرآن دلالات واضحات حوتها صدور العلماء من غير فرق بين المعصوم وغيره، غير أنّ أبا جعفر(عليه السلام)يشير إلى أبرز المصاديق.

يقول أبو بصير: سمعت أبا جعفر(عليه السلام) يقول في هذه الآية:(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا)فأومأ بيده إلى صدره.(الكافي:١/٢١٣، كتاب الحجّة، الحديث١.) وما هذا إلاّ من باب الجري وتطبيق الآية على أكمل المصاديق.

٩. الأئمّة(عليهم السلام)هم المتوسّمون

إنّ الله سبحانه بعدما يذكر قصة قوم لوط(عليه السلام) ويذكر كيفية إهلاكهم بقوله: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل)(الحجر:٧٣ـ٧٤) ثم يقول: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيم)(الحجر:٧٥ـ٧٦).

لا شكّ أنّ كلّ إنسان فطن يعتبر بما حلّ بقوم لوط من العذاب الشديد نتيجة جرائمهم، ولا يختصّ ذلك الاعتبار بشخص دون شخص، ومع ذلك فإنّ الإمام الصادق(عليه السلام) يقول:«نحن المتوسّمون».(الكافي:١/٢١٨، كتاب الحجة، الحديث١)

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر(عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)قال: «هم الأئمّة(عليهم السلام)، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله عزّ وجلّ في قول الله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)».(الكافي:١/٢١٨، كتاب الحجة، الحديث٣)

١٠. ردّ الأمانات إلى أهلها

إذا إئتمن أنسان شيئاً لدى آخر، سواء أكان نفيساً أم لا، فهو أمانة يجب بحكم العقل والشرع ردّها إلى صاحبها، والأمانة لا تختصّ بالأمانة الدنيوية، فالمعنوية منها أيضاً أمانة، والكتاب والعترة أمانة الله سبحانه لدى الأُمّة، فلو عملوا بهما فقد ائتمنوا وإلاّ فقد خانوا؛ وإلى هذا المصداق البارز يشير الإمام الرضا(عليه السلام) إلى ذلك. فقد روى أحمد بن عمر قال: سألت الرضا(عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ:(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)(النساء:٥٧)قال: «هم الأئمّة من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يؤدّي الإمام الأمانة إلى مَنْ بعده، ولا يخصّ بها غيره، ولا يزويها عنه».(الكافي:١/٢٧٦، كتاب الحجّة، الحديث٣)

هذه عشرة كاملة جئنا بها كنماذج عن قسم من الروايات التي شأنها كشأن ما ذُكر، والجميع بصدد بيان أبرز المصاديق، أو المصاديق التي ربّما تخفى عن أكثر الناس.

الأُسلوب الخامس: مزج الآية بجملة إيضاحيّة

إنّ سيرة المفسّرين هي مزج الآية بجمل توضيحية خارجة عن متن الآية، لغاية تبيين المقصود من الآية، وبهذا الأُسلوب جاء بعض ما ورد عن الأئمّة(عليهم السلام) في تفسير الآيات:

١. قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)(المائدة:٦٧). فقد جاء في التفاسير عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام): (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) في فضل عليّ.

روى الثعلبي في معنى الآية قال: قال أبو جعفر محمد بن علي(عليه السلام): «معناه بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك في فضل علي بن أبي طالب(عليه السلام)».(تفسير الثعلبي:٤/٩٢؛ البرهان في تفسير القرآن:٢/٣٣٩، برقم ١٣(٣٢٢٦).)

وروى الطبرسي في الاحتجاج باسناده إلى محمد بن علي الباقر(عليه السلام)في حديث طويل، فيه: يا محمد إنّ الله عزّ وجلّ يقرؤك السلام ويقول: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) في عليّ(وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).(تفسير نور الثقلين:٢/٢٦٨، برقم ٢٩٨.) وربّما يتوهّم مَن له ليس إلمام بأساليبهم في تفسير الآيات، أنّها جزء الآية سقط منها.

٢. قال سبحانه: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)(النساء:٢٤).

فقد اختلف المفسّرون في تفسير الفقرة فالأكثر على أنّها تهدف إلى المتعة وهي العقد المؤقت وقد يستشهدون بما نقل عن ابن عباس.

نقل الطبرسي عن أبي نظرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة؟ فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: فما تقرأ(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ)، إلى أجل مسمّى، قلت: لا أقرؤها هكذا.(مجمع البيان:٣/٦٩)

وبهذه الطريقة يفسّر قسم من الروايات ربّما يتوهّم الإنسان أنّه جزء الآية، مع أنّه بصدد إيضاح الآية.

نعم أنّ المتسرّعين في القضاء يجعلون هذه الروايات دليلاً على التحريف، لكن قضاءهم نابع عن عدم التعرّف على طريقة أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في التفسير.

الأُسلوب السادس: الاستئناس بالآية على المورد

إنّ من أساليب أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في التفسير ـ من أجل إقناع المخاطبين ـ هو الاستئناس ببعض الآيات على مقاصدهم، وإن لم يكن المورد من مصاديق الآية، لكن بينهما صلة، فقوله سبحانه: (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللهِ)(الأنفال:٧٥.).

لا شكّ أنّ الآية ناظرة إلى أمر الوراثة وأنّ الأقرب يمنع الأبعد، لكن الإمام استدلّ بها على أنّ الإمامة جرت بعده من أولاد علي بن الحسين(عليهما السلام)استدلالاً بهذه الآية وإنّ الولد أولى من أبناء الأخ.

روى الحسين بن شوير بن أبي فاختة، عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال:

لا تعود الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين أبداً، إنّما جرت من علي بن الحسين كما قال الله تعالى:(وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللهِ) فلا تكون بعد علي بن الحسين(عليهما السلام) إلاّ في الأعقاب وأعقاب الأعقاب».(الكافي:١/٢٨٥، كتاب الحجّة.)

والناظر في الروايات المروية عنهم(عليهم السلام) في تفسير الآيات يرى هذا الأُسلوب في كلماتهم فيتصوّر غير العارف بأساليبهم، عدم صحّته، زاعماً بأنّ الإمام بصدد الاستدلال، بينما الحقّ هو أنّه بصدد الاستئناس.

ومن حسن الحظ أنّ هذا النوع من الكلام كثير في كلمات الفقهاء والفصحاء والبلغاء، فيستعملون الكثير من الكلمات الواردة في مقاصدهم، مع أنّ المورد ليس من موارد التمثيل، غير أنّ بينه وبين اللفظ القرآني نوع تشابه وتسانخ.

الروايات الموضوعة على لسانهم

ألّف غير واحد من أصحابنا كتباً أوردوا فيها ما نسب إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) من الروايات الواردة حول تفسير الآيات، وإليك ذكر قسم منها حسب تاريخ تأليفها:

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري(عليه السلام)

وقد ورد في مقدّمة هذا التفسير أنّه من إملاء الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري(عليهما السلام)، أملاه على أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبي الحسين عليّ بن محمّد بن سيّار، كانا من أهل أسترآباد، وحضرا سامراء في طلب العلم لدى الإمام(عليه السلام) والراوي عنهما أبو الحسن محمّد بن القاسم الخطيب، المعروف بالمفسّر الأسترآبادي، غير أنّ النفرين الأوّلين مجهولان، والراوي عنهما أيضاً مجهول، فهنا ثلاثة مجاهيل حفّوا بهذا التفسير.(الذريعة:٤/٢٨٥؛ التمهيد في علوم القرآن:٩/٤٤٦؛ معجم رجال الحديث:١٢/١٤٧ و ج١٧/١٥٧.)

٢. تفسير علي بن إبراهيم القمّي

يروي التفسير عن عليّ بن إبراهيم، تلميذه أبو الفضل العبّاس بن محمّد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر(عليه السلام). ومع الأسف، إنّه لم يوجد لراوي التفسير(العبّاس بن محمد) ذكر في الأُصول الرجاليّة، بل المذكور فيها ترجمة والده المعروف بن «محمد الأعرابي» وجدّه «القاسم» فقط. فقد ترجمه الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الإمام الهادي(عليه السلام)بعنوان محمّد بن القاسم بن حمزة بن موسى العلوي.(رجال الطوسي:٣٩٢، برقم ٥٧٨٧.)

ثمّ إنّ هذا التفسير تفسير ممزوج ممّا روي عن علي بن إبراهيم وما روي عن أبي الجارود(زياد بن المنذر)، أمّا الأوّل فقد خصّ

الراوي تفسير سورة الفاتحة والبقرة، وشطراً قليلاً من آل عمران بما رواه عن علي بن إبراهيم، ولما وصل إلى الآية ٤٥ من آل عمران أدخل في التفسير ما أملاه الإمام الباقر لزياد بن المنذر أبي الجارود في تفسير القرآن، وعلى هذا فالتفسير ملفّق من تفسير علي بن إبراهيم، وتفسير أبي الجارود.

ورغم ذلك فالتفسير لا يخلو من هن و هنات، ونذكر لذلك نموذجين:

١. قال في تفسير قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)(النساء:١.) ما يلي: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) يعني حواء برأها الله من أسفل أضلاعه.(تفسير القمي:١/١٣٠.) وهذا نفس ما جاء في التوراة، وهو: فأوقع الرب الإله سُباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم إمرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُدعى امرأة لأنّها من إمرئ أُخذت.(التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثاني.)

والظاهر أنّ راوي تفسير القمي قد أخذ ذلك من الإسرائيليات التي تنتهي إلى العهدين.

٢. قال في تفسير قوله سبحانه: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)(يوسف:٤٢.): فلمّا أراد مَن رأى في نومه(أَنَّهُ) يعصر الخمر، الخروج من الحبس، قال له يوسف (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) فكان كما قال الله عزّ وجلّ: (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ)أخبرنا الحسن بن علي عن أبيه عن إسماعيل بن عمر عن شعيب العقرقوفي عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: إنّ يوسف أتاه جبرئيل فقال له: يا يوسف إنّ رب العالمين يقرؤك السلام ويقول لك من...ـ إلى أن قال ـ : فإنّ ربّك قد جعل لك (جل) عقوبة في استغاثتك غيره، فلبث في السجن بعض سنين.(تفسير القمي:١/٣٤٣ـ ٣٤٥.)

أقول:إنّ عبارته صريحة ظاهرة في أمر، وصريحة في أمر آخر.

أمّا الأوّل فظاهر العبارة، وأنّ الناسي هو يوسف، وأنّ الشيطان أنساه ذكر الله سبحانه.

أقول: هذا التفسير غير تام لوجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّه على خلاف وحدة السياق، إذ لو صحّ ما ذكر يلزم أن يكون المراد من الرب في قوله:(اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) هو الملك، ومن الثاني هو الله سبحانه، وهذا على خلاف وحدة السياق، والظاهر أنّ الناسي هو الناجي، وأنّ المراد من الرب في كلا الموضعين هو الملك.

والمعنى اذكرني عند الملك فأنساه الشيطان أن يذكره عند الملك.

الثاني: أنّ يوسف من المخلَصين كما يدلّ عليه قوله سبحانه:(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(يوسف: ٢٤.) ودلّت الآيات على أنّ الشيطان ليس له طريق على المخلَصين، كما قال سبحانه:(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)(ص:٨٢ـ ٨٣.) وعندئذ كيف وجد الشيطان طريقاً إلى أحد المخلَصين؟!

الثالث: أنّ في نفس السورة دليل على أنّ الناسي هو الناجي بشهادة قوله سبحانه عنه:(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)(يوسف:٤٥.)، فقوله: (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ): أي ذكر بعد زمان، فيكون دليلاً على أنّ الناسي هو الناجي الذي ذكر بعد زمان ما أوصاه يوسف. .

هذا كلّه حسب الظاهر، وأمّا ما هو الأمر الصريح فهو أنّ سبب بقاء يوسف في السجن هو التمسّك بالأسباب مع أنّه ليس أمراً مذموماً بل هو أمر ممدوح، وهذا هو ذو القرنين الذي يصفه سبحانه بقوله: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)(الكهف:٨٤ـ٨٥.)، فكيف يكون تمسّك يوسف بسبب من الأسباب أمراً مذموماً، وهو يعلم أنّ الأمر بيد الله، وأنّ قيام السبب بالأمر إنّما هو بإذن الله سبحانه، فلو أذِنَ لأثّر، وإلاّ فلا.

وقد ظهر في القرن الحادي عشر تفسيران على أساس نقل كلّ ما أثر من النبي والأئمّة وغيرهم، بعد ذكر الآيات، وهما:

٣. ما جمعه عبد علي بن جمعة الحويزي(المتوفّى ١٠٩١هـ) وقد أسماه «تفسير نور الثقلين».

٤. ما ألّفه المحدّث الماهر السيد هاشم البحراني(المتوفّى ١١٠٧هـ) باسم «البرهان في تفسير القرآن».

والكتابان من أفضل ما أُلف في تفسير القرآن بالمأثور، ولكن دون تنقيح، فعلى المفسّر بالمأثور بعد دراسة السند، عرضه على القرآن الكريم...

ما قدّمناه من أساليب أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير القرآن الكريم، هو المعتمد عندنا، ومع ذلك فقد نُسبت إليهم(عليهم السلام) روايات مكذوبة، انتحلها الغلاة لأغراض خاصّة، ولذلك نرى أنّ الإمام الصادق(عليه السلام)يقول: «احذروا على شبابكم الغلاة، لا يفسدوهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله، يصغرون عظمة الله ويدّعون الربوبية لعباد الله، والله إنّ الغلاة أشرّ من اليهود والنصارى والمجوس، والذين أشركوا».(بحار الأنوار:٢٥/٢٦٥، كتاب الإمامة.)

وروى الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا(عليه السلام) قال:«مَن قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك ونحن منه برآء في الدّنيا والآخرة، يا ابن خالد وَضَعَ الأخبارَ عنّا في التشبيه والجبر الغلاةُ الذين صغّروا عظمة الله تعالى، فمَن أحبهم فقد أبغضنا ومَن أبغضهم فقد أحبّنا، ومَن والاهم فقد عادانا، ومَن عاداهم فقد والانا».(بحار الأنوار:٢٥/٢٦٦، كتاب الإمامة.)

وقد عقد العلاّمة المجلسي باباً تحت عنوان نفي الغلو في النبي والأئمّة(عليهم السلام) ونقل فيه ما يناهز ٩٤ رواية من أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ينكرون الغلو ويتبرّأون من الغلاة في حقّهم، ويحكمون بكفرهم وشركهم، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الجزء ٢٥، الصفحة ٢٦١ـ ٣٢٧ من موسوعة بحار الأنوار.

ونزيد بياناً أنّه ورد في دعاء يقرأ بعد زيارة الإمام الرضا(عليه السلام) يصرّح بأنّهم(عليهم السلام) عباد مكرّمون وإنّ تدبير العالم بيده سبحانه «يا مَن لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ اِلاّ هُوَ، يا مَنْ لا يَصْرِفُ السُّوءَ اِلاّ هُوَ، يا مَنْ لا يَخْلُقُ الْخَلْقَ اِلاّ هُوَ».(مفاتيح الجنان، زيارة الإمام الرضا(عليه السلام).)

وعلى ضوء ما ذكرنا فالروايات المأثورة عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته(عليهم السلام)والتي لا تنسجم مع الأُصول المتّفق عليها بين المسلمين فالجميع من مدسوسات تلك الطغمة الذين تبرّأ منهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته(عليهم السلام). نعم ورودها في الكتب ليس دليلاً على أنّ المؤلف كان مقتنعاً بها، إذ ربّما يكون أُسلوب التأليف يعتمد على الجمع فقط وليس على التحقيق والتدقيق.

المبحث السابع والعشرون المفسّرون في عصر الرسالة وبعدها

دلّ قوله سبحانه:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(النحل:٤٤.) على أنّ من مناصب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو وظائفه تبيين القرآن وراء قراءته وتلاوته، ولذلك صار الرسول الأعظم هو المفسّر الأوّل للقرآن الكريم.

قال أبو عبد الرحمن السلَميّ: حدّثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفّان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنّهما كانوا إذا تعلّموا من النبي عشر آيات، لم يتجاوزوها حتّى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.(الإتقان في علوم القرآن:٤/١٧٥ـ١٧٦، ط مصر.) ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة.

أخرج الطبري باسناده عن ابن مسعود، قال: كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتّى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ. وقال أبو عبد الرحمن السلَميّ: حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا، أنّهم كانوا يستقرئون من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتّى يعلموا بما فيها من العمل، قال: فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً.(تفسير الطبري:١/٢٧ـ٢٨ و ٣٠.)

وعندئذ يطرح سؤال وهو: إذا كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مأموراً من جانبه سبحانه ببيان القرآن وتفسيره، فأين هذه الأحاديث التي صدع بها الرسول ووعاها السلف الصالح؟ نرى أنّ جميع ما ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)من التفاسير المصرّح برفعها إليه ـ غير ما ورد من أسباب النزول ـ لا يتجاوز المائتين وعشرين حديثاً تقريباً. وقد أتعب جلال الدين السيوطي نفسه، فجمعها من مطاوي الكتب في آخر كتابه «الإتقان»، فرتبها على ترتيب السور من الفاتحة إلى سورة الناس.(الإتقان في علوم القرآن: ٤/١٧٠.)

ومن المعلوم أنّ المقدار لا يفي بتفسير القرآن الكريم، ولا يمكن لنا التقوّل بأنّه تقاعس ـ والعياذ بالله ـ عن مهمته، أو أنّه لم يكن مأموراً بأزيد من ذلك.

أقول: لا شكّ أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قام بمهمته الكبيرة، وبلّغها، غير أنّ كثيراً من الأمّة لم يهتموا بنقل ما أُثر عنه، نعم بلغها المستحفظون من الأُمّة وهم عليٌّ وأوصياؤه، فلو رجعت الأمّة إلى ما أُثر عنهم لاستغنوا في تفسير القرآن من الرجوع إلى مستسلمة أهل الكتاب وغيرهم.

الوصي هو المفسّر الثاني

مَن سبر كتب التفسير والحديث يجد أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)هو المفسّر الأكبر بعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، فعنه أخذ كثير من الصحابة. قال السيوطي: أمّا الخلفاء فأكثر ما روي عنه منهم عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، والرواية من الثلاثة نزرة جدّاً، فأمّا عليّ(عليه السلام) فروي عنه الكثير. وقد روى معمّر عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل قال: شهدت عليّاً يخطب، فيقول: «فو الله لا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فو الله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل».(الإتقان في علوم القرآن:٤/٢٠٤.)

روى الكليني: قال الإمام علي(عليه السلام): «فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها. ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته، منذ دعا الله لي بما دعا. وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي كان أو يكون، ولا كتاب مُنزَل على أحد قبله من طاعة أو معصية، إلاّ علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً. ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً. فقلت: يا نبيّ الله ـ بأبي أنت وأُمّي ـ منذ دعوتَ الله لي بما دعوت، لم أنس شيئاً ولم يَفُتني شيء لم أكتبه، أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لستُ أتخوّف عليك النسيان والجهل!».(الكافي:١/٦٤، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث، رقم١.)

وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام عليّ(عليه السلام):«إنّ الله أمرني أن أُدنيك ولا أُقصيك، وأن أُعلّمك ولا أجفوك. فحقيق عليّ أن أُعلّمك، وحقيق عليك أن تعي».(المعيار والموازنة لأبي جعفر الاسكافي(المتوفّى٢٢٠هـ):٣٠١؛ الخصال:٥٧٦، أبواب السبعين وما فوقه.)

وقال(عليه السلام): «كنت أوّل داخل على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وآخِر خارج من عنده، وكنت إذا سألتُ أُعطيت، وإذا سكتُّ ابتدئتُ، وكنت أدخل على رسول الله في كلّ يوم دخلةً، وفي كلّ ليلة دخلةً، وربّما كان ذلك في بيتي، يأتيني رسول الله أكثر من ذلك في منزلي. فإذا دخلت عليه في بعض منازله أخلى بي وأقام نساءه، فلم يبق عنده غيري، وإذا أتاني لم يُقم فاطمة ولا أحداً من ولدي. فإذا سألته أجابني، وإذا سكتُّ عنه ونفدت مسائلي ابتدأني. فما نزلتْ على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها عليّ وكتبتها بخطّي، فدعا الله أن يفهمني ويعطيني، فما نزلت آية من كتاب الله إلاّ حفظتها وعلّمني تأويلها».(المعيار والموازنة:٣٠٠.)

ومع ذلك فإنّ الدكتور محمدحسين الذهبي جعل الإمام(عليه السلام) بحسب كثرة من روى عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) في الدرجة

الثالثة، وجعل عبد الله بن عباس في الدرجة الأُولى، وعبد الله بن مسعود في الدرجة الثانية، وكان عليه أن يجعل الإمام(عليه السلام) في الدرجة الأُولى، فإنّ ما رواه ابن عباس، إنّما أخذه من الإمام(عليه السلام)وقد لازم عليّاً قرابة ثلاثين سنة، قال ابن أبي الحديد: ومن العلم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ، ومنه فُرِّع. وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحّة ذلك، لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عبّاس. وقد علم الناس حال ابن عبّاس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.(شرح نهج البلاغة:١/١٩.)

ومَن أراد أن يقف على نموذج من علم الإمام(عليه السلام) في التفسير وأقسامه المختلفة فعليه الرجوع إلى الخطبة المروية عنه حول القرآن الكريم، وقد نقلها محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني(وهو من تلاميذ الكليني) في تفسيره، غير أنّ تفسيره مفقود، ليس منه أثر.

نعم رواها القمّي في أوّل تفسيره، وأدرجها البحراني في تفسيره عند البحث في مقدّمات التفسير، كما نُقلت في رسالة (المحكم والمتشابه) المنسوبة إلى الشريف المرتضى في أوّلها.(لاحظ: رسالة المحكم والمتشابه:٥٦ـ ٥٩، الطبعة المحقّقة.)

المفسّرون بعد الإمام علي(عليه السلام)

المفسّرون بعد الإمام علي(عليه السلام) من الصحابة هما:

١و ٢. الإمامان الهمامان السبطان الشريفان الحسن والحسين(عليهما السلام) وقد أغفل الذهبي ذكرهما، ولكنّه معذور لقصور يده عمّا روي عنهما في مجال التفسير.

٣. وبعد ذلك كلّه فعبد الله بن عباس هو المفسّر الكبير بعد أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) وهو حِبر الأُمّة، وترجمان القرآن، وأعلم الناس بالتفسير ـ تنزيله وتأويله ـ وهو تلميذ الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)، الموفَّق وتربيته الخاصّة، وقد بلغ من العلم مبلغاً قال في حقّه الإمام أمير المؤمنين:«كأنّما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» ولا غرو فإنّه دعاء الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بشأنه حيث قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل». وقال(صلى الله عليه وآله وسلم):«ولكلّ شيء فارس، وفارس القرآن ابن عبّاس».(تفسير القرطبي:١/٣٥.)

ومن درس حياة حبر الأُمّة يقف على أنّه لازم الإمام قرابة ثلاثين سنة إلى أن استشهد(عليه السلام) وهو معه في الكوفة، ويكفي في ولائه للإمام(عليه السلام) أنّه

هو النفر الأوّل الذي دعا الناس إلى بيعة الإمام الحسن(عليه السلام)، ومع ذلك

نرى أنّ الأمويين الذين لا يرضون بوجود شخصية كبيرة ـ كابن عباس ـ داعية للإمام(عليه السلام)، اتّهموه بسرقة بيت المال من البصرة وهربه إلى مكّة، وهذه تهمة وقحة، لربانيّ هذه الأُمّة، مع أنّه لم يفارق الإمام(عليه السلام) إلى اليوم الذي استشهد فيه.

وبعد هؤلاء، فقد اشتهر عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب ممّن أُثر عنهم التفسير، وأمّا الخلفاء، فلم يعهد عنهم التفسير إلاّ من علي(عليه السلام)، قال السيوطي: اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عبّاس، وأُبيّ بن كعب، و زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. أمّا الخلفاء فأكثر من رُوي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) نزرة جدّاً.(الإتقان في علوم القرآن:٤/٢٠٤.)

***

أقول:إنّ ما روي عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ابتداء من الحسن المجتبى حتى الإمام الحسن العسكري(عليهم السلام) فقد دوّن في المجاميع الحديثية وأسنادهم موصولة إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

هذا كلامنا في الصحابة، وأمّا التابعون فقد كثر عنهم النقل، غير أنّ عدداً منهم، لا يصحّ الاعتماد على أقوالهم، قال الشيخ البلاغي:
وأمّا الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء والضحّاك ـ كما مُلئت كتب التفسير بأقوالهم المرسلة ـ فهو ممّا لا يُعذر فيه المسلم في أمر دينه فيما بينه وبين الله، ولا تقوم به الحجّة، لأنّ تلك الأقوال إن كانت روايات فهي مراسيل مقطوعة، ولا يكون حجّة من المسانيد إلاّ ما ابتنى على قواعد العلم الديني الرصينة، ولو لم يكن من الصوارف عنهم إلاّ ما ذُكر في كتب الرجال لأهل السُّنّة لكفى، وإن الجرح مُقدّم على التعديل إذا تعارضا.
أمّا عكرمة فقد كثر فيه الطعن بأنّه كذاب غير ثقة، ويرى رأي الخوارج.(لاحظ: ميزان الاعتدال:٣/٩٦.)
وأمّا مجاهد فيكفي في ذمّه أنّه فسّر قوله سبحانه: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)(الإسراء:٧٩.) بقوله: يجلسه معه على العرش.(ميزان الاعتدال:٣/٤٣٩.)
وأمّا الضحاك بن مزاحم، فعن يحي بن سعيد قوله: الضحّاك ضعيف عندنا، وكان يروي عن ابن عباس وأنكر ملاقاته له، حتى قيل: إنّه ما رآه قط.(ميزان الاعتدال:٢/٣٢٠.)
وأمّا قتادة فقد ذكروا أنّه مدلّس.(ميزان الاعتدال:٣/٣٨٥.)
وأمّا مقاتل بن سليمان، قال ابن حبّان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم.(ميزان الاعتدال:٤/١٧٥.)
إلى غير ذلك من رجال التفسير الذين ضعّفوا في علم الرجال.(وقد صدرنا في تقييم هؤلاء إلى ما ذكره شيخنا البلاغي في مقدّمة تفسيره «آلاء الرحمن»، لاحظ: آلاءالرحمن:١/١٠٣ـ ١٠٤.)

المبحث الثامن والعشرون في فضائل القرآن

وردت روايات كثيرة في فضائل القرآن الكريم، كما وردت أحاديث في فضائل بعض السور، ونحن نقتصر بما ورد في فضائل القرآن، وسيأتي ما هو الوجه في الاقتصار على الأوّل.
ثمّ إنّه يكفي في فضيلة تلاوة القرآن أنّه النور النازل من الله سبحانه كما قال عزّ وجلّ:(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)(المائدة:١٥.)، وفي الوقت نفسه فهو برهان من الله كما يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)(النساء:١٧٤.).
فإذا كان الكتاب كتاب الله العزيز، نوراً من الله وبرهاناً منه، فتلاوته تنوّر القلوب وتزيد في الإيمان واليقين، ويهتدي بها الإنسان إلى ما هوالحقّ كما يقول: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)(الشورى:٥٢.). ولذلك نرى أنّه سبحانه تبارك وتعالى يؤكّد على تلاوة القرآن الكريم ويقول: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ).(فاطر:٢٩.)
وفي آية أُخرى يحثّ على التلاوة حقّ تلاوته ويقول: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).(البقرة:١٢١.)
وفي الوقت نفسه يحذّر مَن ينبذ القرآن وراء ظهره ويقول: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)(البقرة:١٠١.).
إنّه سبحانه يأمر بالتلاوة مع التدبّر، يقول عزّ وجلّ:(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)(النساء:٨٢.).فإنّ تلاوة الذكر الحكيم تورث خشوع القلب، وخضوعه للحقّ كما يقول: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)(الحديد:١٦.).

وبعد هذه فنحن في غنى عن ذكر أي فضل لتلاوة آياته وسوره، ومع ذلك نردف البحث ببعض الروايات الواردة عن رسول الله وأئمّة أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) في فضل تلاوة القرآن الكريم:

١. قال النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض ما أوصى به أبا ذر:«عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض».(الخصال:٢/١٠٥.)

٢. وقال(صلى الله عليه وآله وسلم):«يا معاشر قرّاء القرآن اتّقوا الله عزّ وجلّ فيما حمّلكم له من كتابه فإنّي مسؤول، وإنّكم مسؤولون، إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فتُسألون عمّا حُمّلتم من كتاب الله وسنّتي».(الكافي:٢/٦٠٦.)

٣. وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «يا سلمان عليك بقراءة القرآن فإنّ قراءته كفّارة للذنوب... ـ إلى أن قال: ـ وأنّ المؤمن إذا قرأ القرآن نظر الله إليه بالرحمة وأعطاه بكلّ حرف نوراً على الصراط. يا سلمان، المؤمن إذا قرأ القرآن فتح الله عليه أبواب الرحمة، وخلق الله بكلّ حرف يخرج من فمه مَلَكاً يسبّح له إلى يوم القيامة».(مستدرك الوسائل:٤/٢٥٧، عن جامع الأخبار:٤٦؛ جامع أحاديث الشيعة:١٥/١٨.)

٤. قال الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، في وصية لولده محمد بن الحنفية: «عليك بتلاوة القرآن في ليلك ونهارك والعمل به، ولزوم فرائضه وشرائعه، وحلاله وحرامه، وأمره ونهيه، والتهجّد به، والتلاوة في ليلك ونهارك فإنّه عهد من الله تعالى إلى خلقه، فهو واجب على كلّ مسلم أن ينظر كلّ يوم في عهده».(من لا يحضره الفقيه:٢/٦٢٨.)

٥. قال الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام): «إنّ هذا القرآن حبل الله المتين، وهو النور البيّن، والشفاء النافع، فاتلوه فإنّ الله يؤجركم على تلاوته بكلّ حرف عشر حسنات».(مجمع البيان:١/١٥.)

٦. قال الإمام علي(عليه السلام):«يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارقه(الهاء: للوقف.)، ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها».(مجمع البيان:١/١٦.)

وكم لأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) من كلمات درّية في فضل تلاوة القرآن الكريم، وقد حفلت بهذه الكلمات كتب المحدّثين، فقد خصّص شيخنا المجلسي جزءاً من بحار الأنوار حول فضائل القرآن الكريم، كما أنّ سيد مشايخنا المحقّق البروجردي أودع ما يرجع من الروايات إلى فضائل القرآن في جزء خاص من كتابه «جامع أحاديث الشيعة».(لاحظ الجزء التاسع من موسوعته الحديثية.) إلى غير ذلك ممّن ألّف حول فضائل القرآن كتاباً خاصّاً، وقد قام ولدنا الروحاني الأُستاذ جعفر الهادي حفظه الله بتأليف كتاب بعنوان: «القرآن الكريم في أحاديث الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الطاهرين(عليهم السلام)»، وقد ترجم إلى الفارسية باسم: «قرآن در احاديث اسلامى».

ضعف الأحاديث الواردة في فضائل السور

هذا وقد تقدّم منّا تخصيص الدراسة بفضائل القرآن دون فضائل سوره، فإنّ كثيراً من رواياتها ضعيفة جدّاً وقد ضعّفها كثير من علماء الفريقين، وإليك بعض الكلمات:

١. قال صديق حسن خان: وأمّا أحاديث فضائل سورة سورة فلا خلاف بين مَن يعرف الحديث إنّها موضوعة مكذوبة، وقد أقرّ به واضعها أخزاه الله بأنّه الواضع لها وليس بعد الإقرار شيء، ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كلّ سورة، فإنّه وإن كان إمام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها، فلا يفرّق في الحديث بين أصحّ الصحيح وأكذب الكذب، ولا يقدح ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق، ولكلّ علم رجال، وقد وزع الله سبحانه الفضائل بين عباده، والزمخشري نقل هذه الأحاديث عن تفسير الثعلبي، وهو مثله في عدم المعرفة بعلم السنّة.(فتح البيان:١/٢٧ـ ٢٨.)

٢. وقال السيد الخوئي: وهناك حثالة من كذبة الرواة، توهّموا نقصان ما ورد في ذلك، فوضعوا من أنفسهم أحاديث ـ في فضل القرآن

وسوره ـ لم ينزل بها وحي ولم ترد بها سنّة، وهؤلاء كأبي عصمة فرج بن أبي مريم المروزي، ومحمد بن عكاشة الكرماني، وأحمد بن عبد الله الجويباري.

وقد اعترف أبو عصمة المروزي بذلك، فقد قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال:«إنّي رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة».

وقال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في شأن الحديث الذي يروى عن أُبي بن كعب عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)في فضل القرآن سورة سورة: «قد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى مَن اعترف بأنّه وجماعة وضعوه. وقد أخطأ الواحدي وجماعة من المفسّرين حيث أودعوه في تفاسيرهم».(البيان في تفسير القرآن: ٣٦.)

انظر إلى هؤلاء المجترئين على الله كيف يكذبون على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في الحديث؟ ثم يجعلون هذا الافتراء حسبة يتقرّبون به إلى الله: (كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(يونس:١٢.).(البيان في تفسير القرآن:٣٦ـ ٣٧.)

***

تمّ الكتاب بفضله سبحانه

بيد مؤلّفه جعفر السبحاني التبريزي عامله الله بلطفه الخفيّ

فهرس مصادر التأليف

نبدأ تبركاً بـ القرآن الكريم

حرف الألف

١. آلاء الرحمن في تفسير القرآن: محمد جواد البلاغي(المتوفّى١٣٥٢هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ ١٣٥٢هـ .

٢. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي(المتوفّى ٩١١هـ) دار الفكر، لبنان ـ ١٤١٦هـ .

٣. أجوبة المسائل المهنائية: العلاّمة الحلّي(٦٤٨ـ٧٢٦هـ) مطبعة الخيام، قم ـ ١٤٠١هـ .

٤. إحقاق الحق: نور الله التستري المرعشي(الشهيد في بلاد الهند سنة ١٠١٩هـ) مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم.

٥. أسباب النزول: الواحدي علي بن أحمد النيسابوري(المتوفّى٤٦٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٢هـ .

٦. الاستبصار: الطوسي محمد بن الحسن(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٧هـ .

٧. الاستيعاب: أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن عبد البر(المتوفّى ٤٦٣هـ) دار الجيل، بيروت ـ ١٤١٢هـ .

٨. أُسد الغابة: ابن الأثير علي بن أبي الكرم(المتوفّى٦٣٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩. الأُصول :للسرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل(المتوفّى ٤٩٠هـ) دارالكتب العلمية.

١٠. أُصول الفقه: محمد رضا المظفر(المتوفّى١٣٨٣هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٤هـ .

١١. أُصول مذهب الشيعة الإمامية: ناصر القفاري، دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الثانية ـ ١٤١٥هـ .

١٢. الأضداد: محمد القاسم بن محمد بن بشار ابن الأنباري، نشر هوتسما، ليدن ـ ١٨٨١م.

١٣. الأضداد: محمد بن المستنير النحوي المعروف بقطرب(المتوفّى ٢٠٦هـ)

١٤. الاعتقادات: الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(٣٠٦ـ٣٨١هـ)، دار المفيد، الطبعة الثانية ـ ١٤١٤هـ .

١٥. إعجاز القرآن: الباقلاني محمد بن الطيب(المتوفّى ٤٠٣هـ) دار المعارف، مصر.

١٦. الأقسام في القرآن الكريم: جعفر السبحاني(مؤلّف هذا الكتاب) مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٢٠هـ .

١٧. الإلهيات: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٣٠هـ .

١٨. الأمالي: أبو علي القالي(٢٨٨ـ ٣٥٦هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

١٩. الأمالي: الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي(٣٠٦ـ ٣٨١هـ)، مؤسسة البعثة، قم ـ ١٤١٧هـ .

٢٠. الأمالي: الطوسي محمد بن الحسن(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
٢١. الأمالي: الشريف المرتضى علي بن الحسين(المتوفّى ٤٣٦هـ) منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم ـ ١٣٢٥هـ.
٢٢. الأمثال في القرآن الكريم: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم.
٢٣. أنوار الملكوت في شرح الياقوت: العلاّمة الحلّي(المتوفّى ٧٢٦هـ) منشورات الشريف الرضي بالأُفست، قم.
٢٤. أوائل المقالات: المفيد محمد بن محمد بن النعمان(٣٣٦ـ ٤١٣هـ) دار المفيد، بيروت ـ ١٤١٤هـ.
٢٥. الإيضاح: الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠هـ) تحقيق سيد جلال الدين الأرموي المحدّث، مؤسسة انتشارات جامعة طهران، طهران ـ ١٣٦٣ش.

حرف الباء

٢٦. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي(المتوفّى ١١١٠هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.
٢٧. بحوث في الملل والنحل: جعفر السبحاني(مؤلّف هذا الكتاب) مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم.
٢٨. البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم البحراني(المتوفّى ١١٠٧هـ) مؤسسة البعثة، قم.
٢٩. البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبد الله الزركشي(المتوفّى ٧٩٤هـ) دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاءه ـ ١٣٧٦هـ.
٣٠. بصائر الدرجات: محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار(المتوفّى ٢٩٠هـ) منشورات الأعلمي، طهران ـ ١٤٠٤هـ.
٣١. بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي(المتوفّى ٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأُولى ـ ١٣٨٤هـ.
٣٢. بيان إعجاز القرآن: الخطابي حمد بن محمد البستي(المتوفّى ٣٨٨هـ) طبع القاهرة ـ ١٩٥٥م.
٣٣. البيان في تفسير القرآن: السيد أبو القاسم الخوئي(المتوفّى ١٤١٣هـ) دار الزهراء. بيروت ـ ١٣٩٥هـ.
٣٤. البيان والتبيين: الجاحظ عمرو بن بحر(١٦٣ـ ٢٥٥هـ) طبعة مصر.

حرف التاء

٣٥. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي(٤٩٩ـ٥٧١هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤١٥هـ.
٣٦. تاريخ القرآن: الزنجاني أبو عبد الله بن نصر الله(١٣٠٩ـ ١٣٦٠هـ) طبع مصر ـ ١٣٥٤هـ.
٣٧. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (المتوفّى٢٨٤هـ) دار صادر، بيروت.
٣٨. تأويل الدعائم: القاضي النعمان المغربي(المتوفّى٣٦٣هـ) طبع القاهرة.
٣٩. التبصير في الدين:الإسفراييني طاهر بن محمد(المتوفّى ٤٧١) عالم الكتب، لبنان ـ ١٩٨٣م.
٤٠. التبيان في تفسير القرآن: الطوسي محمد بن الحسن(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤١. التحبير في علم التفسير: جلال الدين السيوطي (المتوفّى ٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
٤٢. التحرير والتنوير: ابن عاشور التونسي(١٢٩٦ـ ١٣٩٣هـ) مؤسسة التاريخ، بيروت ـ ١٤٢٠هـ.
٤٣. تحت راية القرآن: مصطفى صادق الرافعي(١٢٩٨ـ ١٣٥٦هـ).
٤٤. تصحيح اعتقادات الإمامية:الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان(٣٣٦ـ ٤١٣هـ) دار المفيد، بيروت ـ ١٤١٤هـ.
٤٥. تفسير ابن عربي: ابن عربي(المتوفّى ٦٣٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٢٢هـ.
٤٦. تفسير التستري: محمد سهل بن عبد الله التستري(المتوفّى ٢٨٣هـ) منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٢٣هـ.
٤٧. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن): الثعلبي(المتوفّى ٤٢٧هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٢٢هـ.
٤٨. تفسير الرازي: محمد بن عمر الرازي(المتوفّى ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٩. تفسير السلمي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي(المتوفّى ٤١٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٢١هـ.
٥٠. التفسير الصافي: الفيض الكاشاني(المتوفّى ١٠٩١هـ) مكتبة الصدر، طهران ـ ١٤١٦هـ.
٥١. تفسير الطبري:(جامع البيان): محمد بن جرير الطبري(المتوفّى ٣١٠هـ) دار المعرفة، بيروت.
٥٢. تفسير العياشي: محمد بن مسعود بن محمد الكوفي(من أعلام القرن الثالث الهجري) المكتبة الإسلامية، طهران.
٥٣. تفسير القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري(المتوفّى ٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٤. تفسير القمي: علي بن إبراهيم(من أعلام القرن الثالث والرابع الهجري) مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ـ ١٤١٤هـ.
٥٥. التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية(المتوفّى ١٤٠٠هـ) دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٩٨١م.
٥٦. تفسير الكشّاف: محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(٤٦٧ـ ٥٣٨هـ) شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ـ ١٣٨٥هـ.
٥٧. تفسير المنار: محمد رشيد رضا(المتوفّى ١٣٥٤هـ) دار القلم، القاهرة، الطبعة الثانية.
٥٨. التفسير المنسوب للإمام العسكري: تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي(عليه السلام)، قم ـ ١٤٠٩هـ.
٥٩. التفسير والمفسّرون: الذهبي محمدحسين(المتوفّى ١٣٩٧هـ)، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ـ ١٣٩٦هـ.
٦٠. التفسير والمفسّرون: محمد هادي معرفة(المتوفّى١٤٢٨هـ)، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مشهد ـ ١٤١٨هـ.
٦١. تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي(المتوفّى ٤٠٦هـ) دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ـ ١٣٧٤هـ.
٦٢. التمهيد: ابن عبدالبر(المتوفّى ٤٦٣هـ) نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ـ ١٣٨٧هـ.
٦٣. التمهيد في علوم القرآن: محمد هادي معرفة(المتوفّى ١٤٢٨هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٤هـ.
٦٤. تنقيح المقال: عبد الله المامقاني(المتوفّى ١٣٥١هـ) المطبعة المرتضوية، النجف الأشرف ـ ١٣٥٢هـ.
٦٥. تنوير الحوالك: جلال الدين السيوطي(المتوفّى ٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤١٨هـ.
٦٦. تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر(٧٧٣ـ٨٥٢هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.
٦٧. تهذيب اللغة: الأزهري محمد بن أحمد(٢٨٢ـ ٣٧٠هـ) المؤسسة المصرية العامّة، القاهرة ـ ١٣٨٤هـ.
٦٨. التوحيد: الصدوق(٣٠٦ـ ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

حرف الجيم

٦٩. جامع أحاديث الشيعة: أُلّف تحت إشراف السيد حسين الطباطبائي البروجردي(المتوفّى ١٣٨٣هـ)، المطبعة العلمية، قم ـ ١٣٩٩هـ.
٧٠. الجواهر في تفسير القرآن: طنطاوي بن جوهري المصري(١٢٨٧ـ ١٣٥٨هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤١٢هـ.
٧١. جواهر الكلام: محمد حسن النجفي(المتوفّى ١٢٦٦هـ) دار الكتب الإسلامية، إيران ـ ١٣٩٢هـ.

حرف الخاء

٧٢. الخصال:الصدوق(٣٠٦ـ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ ١٤٠٣هـ.
٧٣. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي(المتوفّى ٥٧٣هـ) مؤسسة الإمام المهدي(عليه السلام)، قم ـ ١٤٠٩هـ.
٧٤. خلاصة الأقوال: العلاّمة الحلّي(المتوفّى ٧٢٦هـ) مؤسسة نشر الفقاهة، قم ـ ١٤١٧هـ.
٧٥. الخلاف: الشيخ الطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ ١٤٠٧هـ.

حرف الدال

٧٦. دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي(١٢٩٥ـ ١٣٧٣هـ) طبع القاهرة.
٧٧. الدر المنثور: جلال الدين السيوطي(٨٤٩ـ ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

حرف الذال

٧٨. الذريعة في تصانيف الشيعة: آقا بزرگ الطهراني(المتوفّى١٣٨٩هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

حرف الراء

٧٩. رجال الطوسي: محمد بن الحسن(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٥هـ.
٨٠. رجال الكشي: أبو عمرو(من أعلام القرن الرابع الهجري) مؤسسة الأعلمي، كربلاء، العراق.
٨١. رجال النجاشي: أحمد بن علي(٣٧٢ـ ٤٥٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
٨٢. الرسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني(المتوفّى ٤٧١هـ).
٨٣. رسالة في إعجاز سورة الكوثر: الزمخشري محمود بن عمر(٤٦٧ـ ٥٣٨هـ) المطبوعة في مجلة تراثنا، ج١٣، نشر مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)، قم ـ

١٤٠٨هـ .
٨٤. روح المعاني: محمود الآلوسي البغدادي(المتوفّى ١٢٧٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٥. روض الجنان: حسين بن علي بن محمد النيشابوري المعروف بأبي الفتوح الرازي(المتوفّى أوائل القرن السادس) منشورات آستان قدس رضوي، مشهد ـ ١٣٧١هـ .ش.

حرف السين

٨٦. سعد السعود: السيد ابن طاووس(المتوفّى ٦٦٤هـ) منشورات الرضي، قم ـ ١٣٦٣هـ .
٨٧. سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني(٢٠٧ـ ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٨. سنن البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي(المتوفّى ٤٥٨هـ) دار الفكر.
٨٩. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ـ ٢٧٩هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٠. سيبويه في النحو: عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بـ:«سيبويه»(المتوفّى ١٨٠هـ).
٩١. سيد المرسلين: جعفر السبحاني(مؤلّف هذا الكتاب) ترجمة جعفر الهادي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤٢٩هـ .
٩٢. السيرة النبوية: ابن هشام عبد الملك بن أيوب الحميري(المتوفّى ٢١٣ أو ٢١٨هـ) دار التراث العربي، بيروت.

حرف الشين

٩٣. شرح الأُصول الخمسة: القاضي عبد الجبار(المتوفّى ٤١٥هـ) مكتبة وهبة، القاهرة ـ ١٣٨٤هـ .
٩٤. شرح العقائد النسفية: التفتازاني(المتوفّى ٧٩٣هـ) ط الآستانة، ١٣١٣هـ .
٩٥. شرح المواقف: الجرجاني علي بن محمد، منشورات الشريف الرضي، قم ـ ١٤١٢هـ .
٩٦. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي(المتوفّى ٦٥٥هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٧٨هـ .
٩٧. الشهاب في الحكم والآداب: ابن حكمون القضاعي، نشر محمود أفندي الشابندر، مطبعة الشابندر، بغداد ـ ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

حرف الصاد

٩٨. صبح الأعشى: أحمد بن علي القلقشندي(المتوفّى٨٢١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٩. الصحاح: الجوهري إسماعيل بن حمّاد(المتوفّى ٣٩٣هـ) دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٤٠٧هـ .
١٠٠. الصحيح: البخاري: محمد بن إسماعيل(المتوفّى ٢٥٦هـ) مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر ـ ١٣١٤هـ .
١٠١. الصحيح: مسلم بن الحجّاج القشيري(المتوفّى ٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

حرف الطاء

١٠٢. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (المتوفّى ٢٣٠هـ) دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ .
١٠٣. الطراز: يحيى بن حمزة العلوي اليمني(المتوفّى ٧٤٩هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٢هـ .

حرف العين

١٠٤. العروة الوثقى: السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي(المتوفّى ١٣٣٧هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٧هـ .
١٠٥. علوم القرآن: السيّد محمد باقر الحكيم(المتوفّى١٤٢٥هـ) مؤسسة الهادي، قم ـ ١٤١٧هـ .

حرف الغين

١٠٦. الغدير: العلاّمة عبد الحسين أحمد الأميني(١٣٢٠ـ ١٣٩٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧هـ .

حرف الفاء

١٠٧. فتح الباري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(٧٧٣ـ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠٨. فتح البيان: صديق حسن خان (المتوفّى ١٣٠٧هـ) دار الفكر العربي.
١٠٩. فتح القدير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني(المتوفّى ١٢٥٠هـ) عالم الكتب.

١١٠. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري(المتوفّى ٢٧٩هـ) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٩٥٦م.
١١١. الفَرق بين الفِرَق: عبد القاهر البغدادي(المتوفّى ٤٢٩هـ) مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.
١١٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الأندلسي(المتوفّى ٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٣٩٥هـ.
١١٣. الفهرست: ابن النديم محمد بن أبي يعقوب البغدادي(المتوفّى ٤٣٨هـ) تحقيق رضا ـ تجدد.
١١٤. الفهرست: الطوسي محمد بن الحسن(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة نشر الفقاهة، قم ـ ١٤١٧هـ.

حرف القاف

١١٥. قاموس الرجال: محمد تقي التستري(المتوفّى ١٤١٥هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤٢٥هـ.
١١٦. القوانين المحكمة: المحقق القمي أبو القاسم بن محمد حسن(١١٥١ـ ١٢٣١هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ ١٤٢٠هـ.

حرف الكاف

١١٧. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني(المتوفّى ٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٧هـ.
١١٨. الكتاب المقدّس: مجمع الكنائس الشرقية، نشر دار المشرق، بيروت ـ ١٩٨٨م.
١١٩. كشف الظنون: حاجي خليفة (المتوفّى ١٠٦٧هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢٠. الكشف عن مناهج الأدلّة في عقائد الملّة: أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي الأندلسي(٥٢٠ـ ٥٩٥هـ).
١٢١. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: العلاّمة الحلّي(المتوفّى ٧٢٦هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١٢٢. كلّيات في علم الرجال: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٢٨هـ.
١٢٣. كنز العرفان في فقه القرآن: المقداد بن عبد الله السيوري(المتوفّى ٨٢٦هـ)، المكتبة الرضوية، طهران ـ ١٣٨٤هـ.
١٢٤. كنز العمال: المتقي الهندي(المتوفّى ٩٧٥هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

حرف اللام

١٢٥. لسان العرب: العلاّمة ابن منظور محمد بن مكرم(المتوفّى ٧١١هـ) قم ـ ١٤٠٥هـ.
١٢٦. اللوامع الإلهية: الفاضل المقداد بن عبد الله بن محمد السيوري(المتوفّى ٨٢٦هـ) تحقيق السيد محمد علي القاضي الطباطبائي، تبريز ـ ١٣٩٦هـ.

حرف الميم

١٢٧. مجاز القرآن: لأبي عبيدة التيمي(المتوفّى ٢١٠هـ) تحقيق محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة ـ ١٤٠١هـ.
١٢٨. مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي(المتوفّى ١٠٨٥هـ) المكتبة الرضوية، قم.
١٢٩. مجمع البيان: الفضل بن الحسن الطبرسي(٤٧١ـ ٥٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
١٣٠. مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي(٧٣٥ـ ٨٠٧هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٤٠٢هـ.
١٣١. مجمع الفائدة والبرهان: المحقّق الأردبيلي(المتوفّى ٩٩٣هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
١٣٢. مجموعة الرسائل العشر: الشيخ الطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١٣٣. المحاسن: للبرقي أحمد بن محمد بن خالد(المتوفّى ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ) دار الكتب الإسلامية، قم.
١٣٤. محاضرات في الإلهيات: علي الربّاني الگلپايگاني، تلخيص لمحاضرات العلاّمة المحقق جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٢٣هـ.
١٣٥. المستدرك: للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله(المتوفّى ٤٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت.
١٣٦. مستدرك الوسائل: الشيخ النوري الحسين بن محمد تقي(١٢٥٤ـ ١٣٢٠هـ) مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)، قم ـ ١٤٠٧هـ.
١٣٧. المسند: أحمد بن حنبل(المتوفّى ٢٤١هـ) دار الفكر، بيروت.
١٣٨. مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٢٧هـ.
١٣٩. معاني الأخبار: الشيخ الصدوق(المتوفّى ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٣٧٩هـ.
١٤٠. المعجزة الخالدة: هبة الدين الشهرستاني(١٣٠١ـ ١٣٨٦هـ) طبع بغداد.

١٤١. معجم الأدباء: ياقوت الحموي(المتوفّى ٦٢٦هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٠هـ.
١٤٢. معجم رجال الحديث: أبو القاسم الخوئي(المتوفّى ١٤١٣هـ) بيروت ـ ١٤١٣هـ.
١٤٣. معجم المفسّرين: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت.
١٤٤. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا(المتوفّى ٣٩٥هـ) مكتبة الإعلام الإسلامي ـ ١٤٠٤هـ.
١٤٥. المعيار و الموازنة: أبو جعفر الأسكافي محمد بن عبد الله المعتزلي(المتوفّى ٢٤٠هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت.
١٤٦. مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار: محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني(٤٧٩ـ ٥٤٨هـ) دائرة المعارف الإسلامية، طهران ـ ١٤٠٩هـ.
١٤٧. مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي(المتوفّى ١٣٥٩هـ) مكتبة العزيزي، قم ـ ١٣٨٥هـ. ش/٢٠٠٦م.
١٤٨. مفاهيم القرآن: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٢٨هـ.
١٤٩. مفتاح الكرامة: السيد محمد جواد الحسيني العاملي(المتوفّى١٢٢٦هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٩هـ.
١٥٠. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الاصفهاني (المتوفّى حدود ٤٢٥هـ) طليعة النور، قم ـ ١٤٢٧هـ.
١٥١. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي(٧٣٢ـ٨٠٨هـ) المكتبة التجارية، مصر.
١٥٢. الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر(٤٧٩ـ ٥٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت.
١٥٣. من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق(المتوفّى ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري.
١٥٤. المناقب(مناقب آل أبي طالب): ابن شهر آشوب السروي المازندراني(المتوفّى ٥٨٨هـ) المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٧٦هـ.
١٥٥. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد بن عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، بيروت ـ ١٣٧٢هـ.
١٥٦. منتخب كنز العمال: المتقي الهندي(المتوفّى ٩٧٥هـ) المطبوع في هامش مسند أحمد، دار صادر، بيروت.
١٥٧. منية الطالبين في تفسير القرآن المبين: جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم ـ ١٤٣٤هـ.
١٥٨. الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت.
١٥٩. المواقف: عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (المتوفّى ٧٥٦هـ) دار الجيل، بيروت ـ ١٤١٧هـ.
١٦٠. موسوعة طبقات الفقهاء: تأليف اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، قم، ١٤١٨ـ ١٤٢٤هـ.
١٦١. الموطأ: مالك بن أنس(المتوفّى١٧٩هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٦هـ.
١٦٢. ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(المتوفّى ٧٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٣٨٢هـ.
١٦٣. الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفّى١٤٠٢هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

حرف النون

١٦٤. الناسخ والمنسوخ: النحاس، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤١٢هـ.
١٦٥. الناسخ والمنسوخ: ابن خزيمة الفارسي، مطبعة السعادة ـ ١٣٢٣هـ.
١٦٦. النشر في القراءات العشر: ابن الجزري الدمشقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٧. النص الخالد لم و لن يحرّف أبداً: السيد علي الموسوي الدارابي، مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ١٤٣٣هـ.
١٦٨. نظم الدرر وتناسق الآيات والسور: البقاعي الشافعي إبراهيم بن عمر (المتوفّى٨٨٥هـ).
١٦٩. نفحات الرحمن: الشيخ محمد بن عبد الرحيم الغروي النهاوندي(المتوفّى١٣٧١هـ)، مؤسسة البعثة، قم.
١٧٠. النكت في إعجاز القرآن: علي بن عيسى الرُّمّاني(٢٩٦ـ ٣٨٤هـ)دهلي ـ ١٩٣٤م.
١٧١. النواة في حقول الحياة: محمد حبيب بن سليمان العبيدي(١٢٩٦ـ ١٣٨٣هـ).
١٧٢. نور الثقلين: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (المتوفّى ١١١٢هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم ـ ١٤١٢هـ.
١٧٣. النهاية: ابن الأثير الجزري(المتوفّى ٦٠٦هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم ـ ١٣٦٤هـ .ش.
١٧٤. نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي لخطب وكلمات الإمام علي(عليه السلام)(المتوفّى ٤٠٦هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤٠٨هـ.

حرف الواو

١٧٥. الوحي المحمدي: **محمد رشيد رضا**(المتوفّى ١٣٥٤هـ) الطبعة السادسة ـ ١٩٦٠م.
١٧٦. وسائل الشيعة: **محمد بن الحسن الحرّ العاملي**(المتوفّى ١١٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٣هـ .

الفهرس

مقدمة في علوم القرآن........ ١١

تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني........ ١١

الأقسام في القرآن الكريم........ ١١

جواز الحلف بغير الله سبحانه........ ١٣

أنواع الأقسام الواردة في القرآن الكريم........ ١٣

القسم الأوّل: الأقسام المفردة........ ١٣

القسم الثاني: الأقسام المتعدّدة........ ١٤

الأوّل: القسم في سورة الصافات........ ١٥

الثاني: القسم في سورة الذاريات........ ١٥

الثالث: القسم في سورة الطور........ ١٦

تفسير ما هو المراد من الأقسام الخمسة؟........ ١٦

الرابع: القسم في سورة القلم........ ١٧

الخامس: القسم في سورة الحاقّة........ ١٨

السادس: القسم في سورة المدّثّر........ ١٨

السابع: في سورة القيامة........ ١٩

الثامن: القسم في سورة المرسلات........ ١٩

التاسع: القسم في سورة النازعات........ ٢٠

العاشر: القسم في سورة التكوير........ ٢١

الحادي عشر: القسم في سورة الانشقاق........ ٢٢

الثاني عشر: القسم في سورة البروج........ ٢٢

الثالث عشر: القسم في سورة الطارق........ ٢٣

الرابع عشر: القسم في سورة الفجر........ ٢٤

الخامس عشر: القسم في سورة البلد ٢٤

السادس عشر: القسم في سورة الشمس ٢٥

السابع عشر: القسم في سورة الليل ٢٦

الثامن عشر: القسم في سورة الضحى ٢٦

التاسع عشر: القسم في سورة التين ٢٧

العشرون: القسم في سورة العاديات ٢٧

المبحث العشرون الأمثال في القرآن الكريم ٢٨

١التمثيل الأوّل(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ.... (البقرة:١٤ـ١٨.) ٢٨

البقرة ٢التمثيل الثاني أَوْ كَصَيِّب مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي... .) (البقرة:١٩ـ٢٠.) ٢٩

بيان التمثيل ٢٩

البقرة٣التمثيل الثالث(إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا.... .) (البقرة:٢٦.).... ٣٠

البقرة٤التمثيل الرابع(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ....) (البقرة:٧٤.) ٣١

البقرة٥التمثيل الخامس(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ...).(البقرة:١٧١.) ٣١

البقرة٦التمثيل السادس(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ..... .) (البقرة:٢١٤.) ٣١

البقرة٧التمثيل السابع:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ....) (البقرة:٢٦١.)..... ٣٢

البقرة٨التمثيل الثامن(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ....) (البقرة:٢٦٤.)٣٢

البقرة٩التمثيل التاسع(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنة....) (البقرة:٢٦٥.)٣٣

البقرة١٠التمثيل العاشر(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ....) (البقرة:٢٦٦.)٣٣

البقرة١١التمثيل الحادي عشر(الّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلاّ كَما يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطان. .) (البقرة:٢٧٥.).. ٣٤

آل عمران ١التمثيل الثاني عشر(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ ...) (آل عمران:٥٩ـ٦٠.)٣٤

آل عمران ٢التمثيل الثالث عشر(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم...) (آل عمران:١١٦ـ ١١٧.) ٣٥

الأنعام١التمثيل الرابع عشر(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ... .) (الأنعام:١٢٢.)..... ٣٥

الأعراف١التمثيل الخامس عشر(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى....) (الأعراف:٥٧ـ٥٨.) ٣٥

الأعراف٢التمثيل السادس عشر(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطان.) (الأعراف:١٧٥ـ١٧٧.)٣٦

التوبة١التمثيل السابع عشر(وَالّذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْريقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنينَ و...) (التوبة:١٠٧ـ ١٠٩.) ٣٦

يونس١التمثيل الثامن عشر(إِنَّما مَثَلُ الحَياة الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ....) (يونس:٢٤ـ ٢٥.) ٣٧

هود١التمثيل التاسع عشر(إِنَّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبّهِمْ أُولئِكَ......) (هود:٢٣ـ ٢٤.)............ ٣٧

الرعد١التمثيل العشرون(لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء.....) (الرعد:١٤.) ٣٨

الرعد٢التمثيل الحادي والعشرون(أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً.....) (الرعد:١٧.) .. ٣٨

إبراهيم١التمثيل الثاني والعشرون(مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في.....) (إبراهيم:١٨.) . ٣٨

إبراهيم٢التمثيل الثالث والعشرون(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة...) (إبراهيم:٢٤ـ ٢٥.)..... ٣٨

إبراهيم٣التمثيل الرابع والعشرون(وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ...).(إبراهيم:٢٦.) ٣٩

إبراهيم٤التمثيل الخامس والعشرون(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا....) (إبراهيم:٤٤ـ ٤٦.)٣٩

النحل١التمثيل السادس والعشرون(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ....).(النحل:٥٦ـ٦٠.) .. ٣٩

النحل٢التمثيل السابع والعشرون(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..) (النحل:٧٣ـ٧٥.) ٤٠

النحل٣التمثيل الثامن والعشرون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَهُوَ كَلٌّ...) (النحل:٧٦.)٤٠

النحل٤التمثيل التاسع والعشرون(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ....) (النحل:٩١ـ ٩٢.) ٤٠

النحل٥التمثيل الثلاثون(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا...) (النحل:١١٢ـ ١١٣.)........ ٤١

الإسراء١التمثيل الحادي والثلاثون (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .....) (الإسراء:٢٩ـ ٣٠.)٤٢

الكهف١التمثيل الثاني والثلاثون(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لاِحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب....) (الكهف:٣٢ـ ٤٣.)٤٢

الكهف٢التمثيل الثالث والثلاثون (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماء أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ .....).(الكهف:٤٥.)٤٣

الحج١التمثيل الرابع والثلاثون (يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ ...) (الحج:٧٣ـ٧٤.) ٤٣

النور١التمثيل الخامس والثلاثون (اللّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكوة....).(النور:٣٥.) ٤٤

النور٢التمثيل السادس والثلاثون(وَالّذينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَراب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَمآنُ....).(النور:٣٩.) ٤٤

النور٣التمثيل السابع والثلاثون(أَوْ كَظُلُمَات فِي بَحْر لُجِّيّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ...) (النور:٤٠.) ٤٥

العنكبوت ١التمثيل الثامن والثلاثون (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ....).(العنكبوت:٤١ـ ٤٣.) ٤٥

الروم١التمثيل التاسع والثلاثون(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ...) (الروم: ٢٨.) ٤٦

فاطر١التمثيل الأربعون(وَما يَسْتَوي البَحْران هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ....).(فاطر:١٢.) ٤٦

فاطر٢التمثيل الحادي والأربعون(وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ*....(فاطر:١٩ـ ٢٢.) ٤٧

يس١التمثيل الثاني والأربعون (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ....).(يس: ٧٨ ـ ٧٩ .) ٤٧

الزمر١التمثيل الثالث والأربعون (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُركاءُ مُتَشاكِسونَ و... .(الزمر:٢٩.) ٤٧

الزخرف ١التمثيل الرابع والأربعون (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوّلِينَ* وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيّ إِلاّ ...) .(الزخرف:٦ـ٨.) .. ٤٨

الزخرف٢التمثيل الخامس والأربعون (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِين*...).(الزخرف:٥٤ـ٥٦.) ٤٨

الزخرف٣التمثيل السادس والأربعون (وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * و...).(الزخرف:٥٧ـ٦١.).. ٤٨

محمد١التمثيل السابع والأربعون (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِن...).(محمد:١٥.).......... ٤٩

الفتح١التمثيل الثامن والأربعون (هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى..).(الفتح:٢٨ـ ٢٩.).......... ٤٩

الحديد١التمثيل التاسع والأربعون (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ....).(الحديد:٢٠.) ٥٠

الحشر١التمثيل الخمسون (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاءِ...).(الحشر:١٤ـ ١٥.)................. ٥٠

الحشر٢التمثيل الحادي والخمسون (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ...).(الحشر:١٦.) ٥١

الجمعة١التمثيل الثاني والخمسون (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ...).(الجمعة:٥.) ٥١

التحريم١التمثيل الثالث والخمسون (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط....).(التحريم:١٠.) ٥١

التحريم٢التمثيل الرابع والخمسون (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ..).(التحريم:١١ـ ١٢.) ٥١

الثانية: مريم بنت عمران... ٥٢

المبحث الحادي والعشرون في أسباب النزول... ٥٢

القرآن كتاب الأجيال والقرون... ٥٥

التأكّد من صحّة سبب النزول.. ٥٥

١. أُسطورة الغرانيق ٥٥

٢. تأخير نزول الوحي لجرو ميّت تحت السرير... ٥٦

٣.امتناع أبي طالب عن التكلّم بالتوحيد ٥٦

يلاحظ عليه بوجهين: ٥٦

٤. صلاة رسول الله على المنافق........ ٥٧

٥. تصميم النبي على التمثيل بسبعين من المشركين........ ٥٧

القصص القرآنية ٥٨

الأنبياء الذين ذُكرت قصصهم فهم: ٥٨

القصص القرآنية في غير الأنبياء ٥٩

أ. الموضوعية والواقعية ٦٠

ب. تصحيح التحريف........ ٦٠

ج. الإيجاز في سرد القصّة........ ٦٠

د. المحافظة على كرامة الأنبياء ٦٠

١. قصّة آدم في التوراة والذكر الحكيم........ ٦١

٢. قصّة نوح(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم........ ٦١

٣. قصة لوط(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم........ ٦١

٤. قصّة يعقوب(عليه السلام) في التوراة والقرآن الكريم........ ٦٢

النبي يعقوب يصارع الرب!! ٦٢

٥. هارون في التوراة والقرآن الكريم........ ٦٣

المبحث الثالث والعشرون التفسير و حاجة القرآن إليه........ ٦٣

سؤال وإجابة ٦٥

القرآن وآفاقه اللامتناهية........ ٦٥

المبحث الرابع والعشرون مؤهلات المفسِّرأوشروط المفسِّر وآدابه........ ٦٦

شروط التفسير ومؤهّلات المفسّر........ ٦٩

١. معرفة قواعد اللغة العربية........ ٦٩

٢. معاني المفردات ٦٩
٣. تفسير القرآن بالقرآن ٧٠
٤. الحفاظ على سياق الآيات ٧١
الشاهد الأوّل: ٧٢
الشاهد الثاني ٧٢
٥. الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين ٧٣
٦. الرجوع إلى العقل الحصيف أو أحد الثقلين ٧٤
النبيّ هو المفسّر الأوّل ٧٤
٧. معرفة أسباب النزول ٧٥
٨. الإحاطة بتاريخ صدر الإسلام ٧٥
٩. تمييز الآيات المكّية عن المدنية ٧٦
١٠. الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية ٧٧
١١. الاجتناب عن التفسير بالرأي ٧٧
المبحث الخامس والعشرون المناهج التفسيرية ٧٨
تمهيد ٧٨
أنواع المناهج التفسيرية ٧٩
أنواع المناهج التفسيرية ٧٩
المنهج الأوّل: تفسير القرآن بالقرآن ٧٩
المنهج الثاني: التفسير البياني للقرآن ٨٢
المنهج الثالث: تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية ٨٣
المنهج الرابع: تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة (عليهم السلام) ٨٥
أمّا أشهر المصنّفات على هذا النمط عند أهل السنّة فهي عبارة عن: ٨٥
وأمّا التفسير بالمأثور عند الشيعة، فأشهرها ما يلي: ٨٥

المبحث السادس والعشرون أنواع الاهتمامات التفسيرية ٨٦
الأوّل: تفسير القرآن في ظل العقل الحصيف ٨٦
١. واحد لا ثاني له ٨٧
أ. صرف الوجود لا يتعدّد ٨٧
ب. التعدّد يستلزم التركيب ٨٧
ج. الوجود اللا متناهي لا يقبل التعدّد ٨٨
٢. لا مدبّر للكون إلاّ الله ٨٨
٣.الله تبارك وتعالى فوق الرؤية ٨٩
٤. هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ٨٩
القرآن والعقل العملي ٩٠
١. تنزيهه سبحانه عن العبث ٩٠
٢. الله عادل لا يجور ٩١
الثاني: تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية والسنن المختلفة ٩٢
الأوّل: تفسير الآيات على ضوء مدرسة الاعتزال ٩٢
١. الشفاعة حطّ الذنوب أو رفع الدرجة ٩٢
٢. هل مرتكب الكبيرة يستحقّ المغفرة أو لا ؟ ٩٣
الثاني: التفسير على ضوء المنهج الأشعري ٩٤
١. جواز التكليف بما لا يطاق ٩٤
٢. امتناع رؤية الله أو إمكانها ٩٥
الثالث: التفسير على ضوء السنن الاجتماعية ٩٦
خصائص تفسير المنار ٩٦
الوصية للوالدين ليست منسوخة ٩٧
الصبر وأثره البنّاء ٩٧

انشقاق السماء عند اختلال نظامها ٩٨
مؤاخذات على تفسير المنار ٩٨
الرابع: التفسير على ضوء العلم الحديث ١٠١
الخامس: التفسير حسب تأويلات الباطنية ١٠٢
مع الشهرستاني في كتابه «مفاتيح الأسرار» ١٠٤
السادس: التفسير حسب تأويلات الصوفية ١٠٥
هانحن نذكر شيئاً من تفاسيرهم: ١٠٦
١. تفسير التستري ١٠٦
٢. حقائق التفسير للسلمي ١٠٦
٣. لطائف الإشارات ١٠٧
٤. تفسير الخواجه ١٠٧
٥. كشف الأسرار وعدّة الأبرار ١٠٧
٦. تفسير ابن العربي ١٠٧
٧. عرائس البيان في حقائق القرآن ١٠٧
٨. التأويلات النجمية ١٠٧
التفسير الإشاري بين القبول والرفض ١٠٨
ختامه مسك حول كتاب «التفسير والمفسّرون» ١١٠
الأُولى: جعل الإمام علي(عليه السلام) ثالث المفسّرين من الصحابة ١١٠
الثانية: اعتماده في بيان عقيدة الشيعة على خصومهم ١١٠
الثالثة: مفسّرو الشيعة يُخضِعون الآيات لعقائدهم ١١١
المبحث السادس والعشرون منهج أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير القرآن المجيد ١١٢
الأوّل:استنطاق نفس الآية ١١٢
١. الاستغفار سبب نزول الرزق ١١٢

٢. المسح ببعض الرأس لوجود (الباء) ١١٣

٣. تعلّق الخمس بكلّ فائدة ١١٣

٤. بطلان الطلاق في الحيض........ ١١٣

الأُسلوب الثاني: تفسير الآية بآية أُخرى ١١٤

١. تفسير شاهد ومشهود ١١٤

٢. استنباط حكم قصر الصلاة من حكم الطواف ١١٥

٣. تفسير الاجتناب عن الخمر بآية أُخرى........ ١١٥

٤. الواجب قطع الأصابع من أُصولها ١١٦

الأُسلوب الثالث: تفسير الآية بشكل بديع خاف عن أذهان العامّة........ ١١٦

١. الذمّي الّذي نقض حكم الذمّة ١١٦

٢.تحديد أقل الحمل بالجمع بين آيتين ١١٧

٣. الاستدلال على أنّ الحسنين ابني رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بحرمة التزويج ١١٧

الأُسلوب الرابع: التفسير بالإشارة إلى أبرز المصاديق ١١٧

١. النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة القائمون مقامه هم الصراط المستقيم........ ١١٨

٢. المنذر هو الرسول وعليّ الهادي ١١٨

٣. الأئمّة هم أهل الذكر........ ١١٨

٤. الإشارة إلى مصداق مَن يعلمون ومَن لا يعلمون ١١٨

٥. تفسير (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)........ ١١٨

٦. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم المصطفون........ ١١٩

٧. أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هم نعم الله تعالى........ ١١٩

٨. تفسير صدور الذين أُوتوا العلم........ ١١٩

٩. الأئمّة(عليهم السلام)هم المتوسّمون ١٢٠

١٠. ردّ الأمانات إلى أهلها ١٢٠

الأُسلوب الخامس: مزج الآية بجملة إيضاحيّة.. ١٢٠

الأُسلوب السادس: الاستئناس بالآية على المورد ١٢١

الروايات الموضوعة على لسانهم ١٢١

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري(عليه السلام)... ١٢١

٢. تفسير علي بن إبراهيم القمّي ١٢١

المبحث السابع والعشرون المفسّرون في عصر الرسالة وبعدها ١٢٣

الوصي هو المفسّر الثاني ١٢٤

المفسّرون بعد الإمام علي(عليه السلام).. ١٢٥

المبحث الثامن والعشرون في فضائل القرآن.. ١٢٦

ضعف الأحاديث الواردة في فضائل السور... ١٢٧

فهرس مصادر التأليف ١٢٨